

DOSTOEVSKY

دوستويفسكي

الأخر

ALTER

EGO

رواية

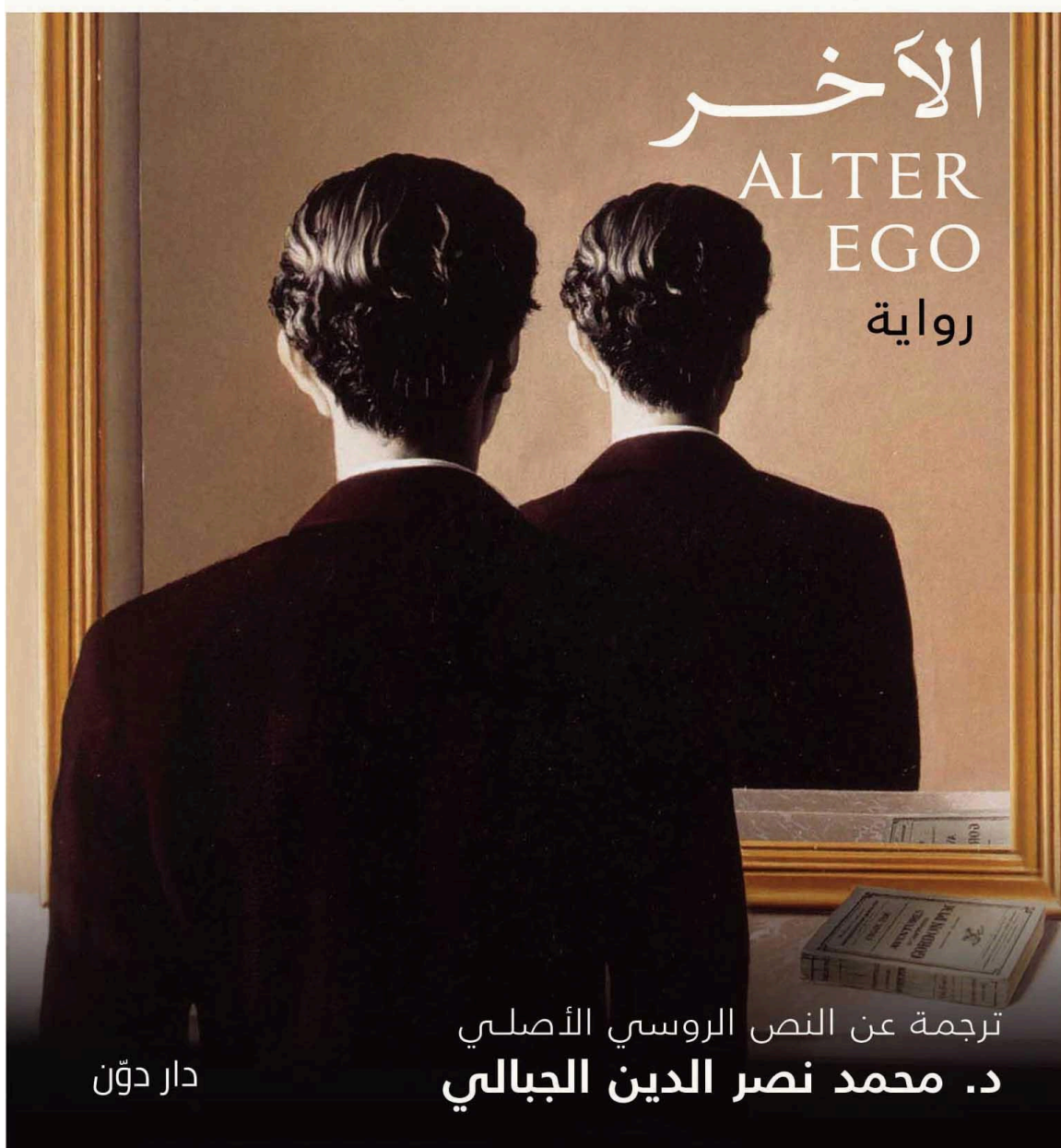
دار دُون

ترجمة عن النص الروسي الأصلي  
د. محمد نصر الدين الجبالي



# DOSTOEVSKY

## دوستويفسكي



الأخر

ALTER  
EGO

رواية

ترجمة عن النص الروسي الأصلي  
د. محمد نصر الدين الجبالي

دار دوّن

الآخر

**Alter Ego**

فيودور ميخائيل دوستويفسكي: الآخر، رواية

طبعة دار دَوْن الأولى: مايو ٢٠٢١

رقم الإيداع: ١١٢٠٣/ ٢٠٢١ - الترقيم الدولي: 9 - 251 - 806 - 977 - 978

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

© دار دَوْن

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

فيودور ميخائيل دوستويفسكي

الآخر

Alter Ego

رواية

ترجمها عن النص الروسي الأصلي

د. محمد نصر الدين الجبالي



# نُشِرَت للمرة الأولى عام ١٨٤٦

## تقديم

«القرين»، «الشبيه»، «المثل»، «المزدوج» - أسماء كثيرة أطلقها النقاد والمترجمون على أهم روايات دوستويفسكي «Двойник» وأهم رواية تحليل نفسي في الأدب الروسي على الإطلاق. وقد سمحنا لأنفسنا بالاختلاف مع جميع هذه الترجمات. ونرى أن السبب في عدم دقتها يرجع إلى الاعتماد على الترجمة الوسيطة سواء الإنجليزية أو الفرنسية التي تُرجمت العنوان على النحو التالي «The double»

وبالعودة إلى معنى العنوان في المعاجم اللغوية الروسية، ووضعاً في الاعتبار السياق الزمني الذي استُخدمت فيه من قِبَل الكاتب، يتضح لنا أن هذه الكلمة قد استخدمت للمرة الأولى في اللغة الروسية في عام ١٨٢٩، وهي ليست روسية الأصل، حيث يوجد باللغة الروسية كلمة مرادفة لها تماماً هي стень والتي تعني «الأنا الأخرى» أو تلك «الأنا التي في المرأة» أو «الذات البديلة» أو «الذات الأخرى». وهو المعنى الذي يوافق من وجهة نظرنا الترجمة السليمة للعنوان.

والمعروف أن الكلمة التي استخدمها فيودور دوستويفسكي قد أُدرجت في اللغة الروسية في العشرينيات من القرن التاسع عشر، وقد كتب الناقد (أ. سيموف) في عام ١٨٢٩ أن هذه اللفظة تعني ذلك الشخص الذي نراه في المرأة حينما ننظر إلى أنفسنا. ومن هذا المنطق فإن هذه الشخصية ليست شبيهة بالبطل أو مثيلاً له، بل هي على العكس، ربما على النقيض منه. إنها كما نقترح في عنوان الرواية «الآخر» «الأنا الأخرى» أو «Alter ego»

وقد كتب دوستويفسكي روايته «الآخر» وهو بعد في الرابعة والعشرين. ونشر العمل للمرة الأولى على صفحات مجلة «مذكرات وطنية» تحت عنوان «مغامرات السيد جوليا دكين».

تحكي الرواية قصة ياكوف بتروفيتش جوليادين، أحد الموظفين في سانت بطرسبرغ، وهو رجل بسيط خجول يحلم بالحصول على ترقية، وأن يصبح ذا مكانة خاصة بين النخبة العلمانية في العاصمة. وبسبب تعقيدات نفسية لديه، يتخيل أنه التقى بشخص يلازمه يشبهه تمامًا ظاهريًا، إلا أنه على النقيض منه في تصرفاته ورغباته. إنه يجسد كل الأحلام غير المحققة لياكوف بتروفيتش.

واعُتبرت الرواية في حينها أهم حدث في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر. ومثّلت استمرارًا لتقاليد بوشكين وغوغول. تناول دوستويفسكي في هذه الرواية شخصية الرجل البسيط التقليدية في الأدب الروسي، إلا أنه تعمق في تحليل نفسية البطل وأظهر مقدرةً كبيرةً في هذا المجال. استطاع ببراعة التعبير عن الصراع الخارجي الظاهري بين الفرد والمجتمع، وفي الوقت ذاته، كشف عن الصراع والتناقضات الداخلية بين جانبي الشخصية لدى كل إنسان «الجانب المضيء» والآخر «المظلم» أو «الذات» و«الذات الأخرى». هذه الرواية تُعد محاولة من الكاتب للتغلغل في طبيعة النفس البشرية، وقد توصل في النهاية إلى نتيجة مفادها أن ازدواجية الأفكار والرؤى هي سمة مميزة للإنسان.

ويُعد هذا الموتيف أو الحوار بين الجوانب المختلفة في الشخصية من الموتيفات الشائعة في كتابات دوستويفسكي. حيث يحتل مكانة هامة في أعماله «الجريمة والعقاب» و«الأبله» و«الإخوة كارامازوف».

وتعد هذه الترجمة الأولى للنص من اللغة الروسية مباشرة.

وتعد هذه هي الترجمة الأولى للنص الأصلي من اللغة الروسية مباشرة حيث سبق أن صدرت الرواية بترجمة المترجم الكبير د. سامي الدروبي الذي ترجمها عن النص الفرنسي.

وأتقدم بالشكر الجزيل الى دار نشر «دون» على الإسهام الكبير الذي تبذله في سبيل إعادة ترجمة روائع الأدب الروسي حتى يلمس القارئ العربي المستوى الحقيقي لهذا الأدب رفيع المستوى و الذي قدم روسيا إلى العالم.

أ.د. محمد نصر الدين الجبالي

# الفصل الأول

كانت الساعة قرابة الثامنة عندما استيقظ ياكوف بيتروفيتش جولياديكين، الكاتب بإحدى الإدارات، بعد نوم عميقٍ. ثنأب وتمطأ ثم فتح عينيه تمامًا في النهاية. غير أنه ظلّ مستلقياً لبُرهة بلا حراكٍ، يبدو وكأنه ما زال في حيرة من أمره، ما إذا كان قد استيقظ بالفعل أم لا، وما إذا كان كل ما رآه في منامه واقعياً أم ما زال يغطّ في سباته وأحلامه المضطربة.

غير أنه سرعان ما استعاد حواسّه، وبدت ردود أفعاله مع الوقت طبيعية ومعتادة. بدت له جدران تلك الغرفة الصغيرة بدهانها الأخضر المتسخ، مألوفةً، يغشاها الغبار والدخان، وكأنها تُحملك فيه، وكذا بدت له المنضدة المصنوعة من خشب الماهوجني، والكراسي المصنوعة من تقليد نفس نوع الخشب، والأريكة التركبية المصنوعة أيضاً من الماهوجني، والمكسوة بقماش من المشمع يميل إلى الحمرة، وتزينه الأزهار الخضراء، وملابسه التي خلعتها على عجل بالأمس وألقى بها على الأريكة بلا اكتراث ولا ترتيب. وأخيراً تبدّى له من نافذة الغرفة أن ذاك اليوم هو من الأيام الكئيبة العكرة والغائمة كما هو الحال عادةً في فصل الخريف. بدا له وكأن هذا النهار يرمقه مثل كل شيء حوله بغضب وحادّة وقسوة، حتى إنه لم يعد لدى السيد جولياديكين أي شك في أنه استيقظ من أحلامه ورؤاه، وأنه فعلاً في مدينته العاصمة بطرسبورج. ومتواجد بمنزله الذي يقع في شارع الدكاكين الستة، في الطابق الرابع لأحد المباني الضخمة، وفي شقته الخاصة تحديداً.

بعد أن قام بهذا الاكتشاف العظيم، أغمض عينيه بشكلٍ لا إرادي، وكأنه يأسف على حلمه الذي كان للتوّ، ويمنّي النفس أن يستعيده ولو للحظاتٍ.. غير أنه سرعان ما هبّ من سريره، لعلّه اهتدى أخيراً إلى الفكرة التي تمحورت حولها خيالاته المشوشة والمضطربة منذ استيقاظه وما زالت.

هرع جوليا دكين نحو مرآة صغيرة مستديرة على الطاولة. ورغم أنه رأى فيها شخصاً رثاً ناعساً، يبدو وكأنه كفيف ذو عينيّن متورمتين من فرط النوم، ووجهه عادياً ليس فيه ما يميزه عن غيره، ولا يمكن أن يثير اهتمام من ينظر إليه، إلا أنه قد بدا على هذا الوجه أن صاحبه راضٍ كل الرضا عن نفسه وهيئته في المرآة.

قال بصوتٍ خافتٍ «في نفسه»:

- شكراً للرب أن عافاني، وأفقت هذا الصباح دون أن أصاب بشيء، كأن يثبت في أنفي دمّل أو ما شابه. لكان موقفاً شديد الحرج.. أو أن يحدث لي أي سوء. على كل حالٍ حتى الآن الأمور ليست سيئة، حتى الآن الأمور على خير ما يرام.

سُر جوليا دكين كثيراً حينما أدرك أن أموره بخيرٍ، فأعاد المرآة إلى موضعها الأول، أما هو، وعلى الرغم من أنه كان حافي القدمين، مرتدياً ملابس النوم، إلا أنه هرع إلى النافذة الصغيرة المطلّة على فناء المبنى، وأخذ ينظر بمزيدٍ من الاهتمام إلى الشارع، وكأنه يبحث عن شيء في فناء المبنى الذي تُطل عليه نوافذ الشقة.

وبدا أنه سعيد بما يرى، حيث ارتسمت الابتسامة على وجهه. ثم نظر إلى ما وراء سور المبنى، حيث الغرفة الصغيرة التي يسكن بها خادمه بيتروشكا. ولما تيقّن أنه غير موجود بالغرفة، تسحب بهدوء إلى الطاولة وفتح أحد الأدراج، وأخذ يتحسس بيده في أعماق الدرج، وأخرج في النهاية لفافة من الورق القديم المتسخ، محفوظة في حافظة أوراق بالية بعض الشيء. وقام بفتحها بحرصٍ شديدٍ، ثم نظر باهتمام وسعادة في جيب الحافظة الخفي. بدت حزمة الأوراق النقدية الخضراء والرمادية والزرقاء ومتعددة الألوان تلك وكأنها ترمق السيد جوليا دكين بترحاب وسعادة، فانتعش وجهه، ووضع حافظة النقود المفتوحة أمامه على المائدة، وأخذ يفرك يديه بحماسة علامة على الرضا الشديد.

أخيراً أخرج جوليا دكين حزمة النقود التي ما إن يراها حتى يشعر بالطمأنينة. وأخذ يعدّ النقود مرة أخرى، ولعلّها المرة الواحدة بعد المئة منذ أمس. وفي أثناء العد أخذ يمسح

بحرص ودون كلل كل ورقة بإصبعيه السبابة والإبهام. وبعد أن فرغ من العد تمتم قائلاً  
«سبعمائة وخمسون روبلاً.. مبلغ محترم.. مبلغ يبعث على السعادة». ثم واصل حديثه  
الخافت لنفسه بصوت مطمئن وهو يرتجف من فرط السعادة، وقابضٌ بقوة على حزمة  
النقود في يده، وفاغرٌ فاه بابتسامه عريضة: «إنه مبلغ يبعث في النفس السعادة ويسرُّ  
القلب! أي شخص غيري كان ليسرَّ كثيرًا لو امتلك مبلغًا كهذا. مَنْ له أن يعارضني في ذلك  
ويرى فيه مبلغًا تافهًا؟! إن مبلغًا كهذا يمكن أن يساعد المرء على المضي بعيدًا في حياته..»

فكّر السيد جوليا دكين في نفسه «ولكن ماذا حدث؟ أين ذهب بيتروشكا؟» ومضى في  
ملابس النوم نحو النافذة مرة أخرى ليلقي نظرة جديدة إلى السور. لا وجود لبيتروشكا  
هناك. لم يكن هناك سوى سماور وحيد يغلي غضبًا، ويكاد أن يطفح الماء منه في أي لحظة.  
وبدا وكأنه ينادي السيد جوليا دكين بكلماتٍ غامضة سريعة راجيًا: «هلاً أخذتني أيها الرجل  
الطيب، فقد أصبحت جاهزًا تمامًا».

قال السيد جوليا دكين في نفسه غضبًا: «لعنة الله عليه.. إن هذا الكسول الأحمق بيتروشكا  
بمقدوره أن يخرجني عن شعوري. أين عساه يتسكع الآن؟»

وهكذا كان لغضب السيد جوليا دكين ما يبزّره. مضى باتجاه مدخل الشقة، وهي عبارة عن  
ممرٍ صغيرٍ ينتهي ببابٍ مفتوحٍ على السلم. فتح الباب قليلًا فرأى الخادم بيتروشكا محاطًا  
بجمع من سكان المنزل، منهم الخدم والملاك وأناس تصادف مرورهم. كان بيتروشكا يقصُّ  
عليهم شيئًا ما والجميع ينصتون إليه. ويبدو أن السيد جوليا دكين لم يعجب بموضوع  
الحدث ولا بالحديث ذاته؛ فصاح على خادمه يناديه، وعاد إلى غرفته مستاءً بل قُل غاضبًا  
جدًّا. تمتم في نفسه قائلاً: «هذا الوغد مستعدٌّ لبيع أيِّ إنسانٍ مقابل المال، لا سيما أنا سيده.  
لقد باعني. لا ريب باعني. أستطيع أن أراهن على أنه باعني بأقل من كوبيك واحد. ماذا  
هناك؟»

«لقد أحضروا الزي الخاص بي يا سيدي».

«ارتدِه وتعال».

ارتدى بيتروشكا بدلته، وولج إلى غرفة سيده، وعلى وجهه ابتسامه بلهاء. كانت البدلة تبدو غريبة ولا تناسبه بشكل واضح. كان يرتدي بدلة خضراء اللون، والتي عادة ما يرتديها الخدم، ولكنها صاخبة اللون، ولها أشرطة ذهبية. ومن الواضح أنها كانت لشخص قبله، يفوقه في الطول بمقدار نصف متر على الأقل.

وكان بيتروشكا يحمل في يده قبعة مزدانة بأشرطة ذهبية اللون وريش أخضر. ويتدلى على فخذه سيفٌ من النوع الذي يحمله الخدم في غمديّ جلديّ. ولكي نستكمل الوصف نقول: إن بيتروشكا كان حافي القدمين، فقد اعتاد دائماً أن يسير في المنزل حافي القدمين في ملابسه الرثة.

فحص السيد جوليا دكين خادمه بعينه جيداً، وبدا أنه راضٍ عنه، فمن الواضح أن البدلة التي استأجرها كانت لمناسبة احتفالية مهمة. وكان من الواضح أيضاً أثناء تفحص جوليا دكين لخادمه، أن بيتروشكا ينظر بترقب شديد إلى سيده، ويتابع بفضول كل حركة من حركاته، حتى إنه أصاب سيده بالارتباك والحرج.

- حسناً. وماذا عن العربة؟

- العربة وصلت أيضاً.

- ليوم كامل؟

- نعم. طوال اليوم. مقابل ٢٥ روبلاً.

- هل أحضرت حذائي أيضاً؟

- نعم.

- يا لك من أبله! ألا يمكنك مناداتي بسيدي؟ هات الحذاء..

وبدا على وجه السيد جوليا دكين الرضا والسعادة بالحذاء الجديد، الذي جاء على مقاسه تمامًا، وأمر الخادم بإعداد الشاي وتجهيز الحمّام له حتى يغتسل ويحلق ذقنه. أطال جوليا دكين في حلاقة ذقنه، حيث يقوم بذلك بدقة وحذرٍ. وقضى وقتًا أطول في الاستحمام. شرب الشاي في عجلة حتى يتفرغ للحدث الأهم، ألا وهو ارتداء ملابس الخروج. ارتدى جوليا دكين بنطاله شبه الجديد، وبعده قميصه ذا الأزرار المذهّبة، وصدريّة مرصعة بزهور صغيرة بديعة. ثم ارتدى رباطة عنق من الحرير وألوانها زاهية، وأخيرًا ارتدى السترة الرسمية لموظفي الحكومة، التي بدت أيضًا كالجديدة، وتم تنظيفها بعناية. وفي أثناء ارتداء الملابس، رمق الحذاء عدة مرات بنظرات كلها سعادة وحُبٍّ، وأخذ يرفع قدمه اليمنى ثم اليسرى كلّ دقيقة ليستمتع برؤيه حذائه، وكان يتمتم بكلمات متصلة، ويضيف إليها أحيانًا غمزات وإشاراتٍ بوجهه، علامة على الرضا والسعادة.

ومع ذلك يجب القول إن السيد جوليا دكين كان مشوشًا بعض الشيء في هذا الصباح؛ ذلك لأنه لم يلحظ تقريبًا الابتسامات والإيماءات التي كان بيتروشكا يقوم بها وهو ينظر إلى سيده أثناء مساعدته إياه في ارتداء ملابسه. وما إن فرغ من الأمر تمامًا حتّى وضع السيد جوليا دكين حزمة النقود في جيبه، وألقى نظرة إعجاب على خادمه بيتروشكا الذي كان قد أتمّ هو أيضًا لباسه وارتدى حذاءه، وأصبح جاهزًا تمامًا.

ولما تيقّن من أن كل شيء على ما يرام، ولم يعد هناك سبب للبقاء أكثر في الغرفة، خرج بخطى سريعة، وهبط الدَّرَج وقلبه يخفق من فرط الانفعال.

ما إن خرج من المنزل حتى اقتربت نحو المدخل عربة زرقاء عليها بعض الشعارات محدثةً جلبة كبيرة. وفي أثناء مساعدته لسَيِّده على ركوب العربة، تبادل بيتروشكا الغمزات والإشارات مع السائق وبعض ممن كانوا يقفون في الجوار. ثم صاح بالسائق «هيا. انطلق». قال ذلك وهو يكتم ضحكةً بلهاء كادت تنفجر من بين شفثيه. ثم قفز جالسًا على الدكة

التي في الخلف. انطلقت العربية تزمجر بعجلاتها وجلاجلها في اتجاه شارع نيفسكي. وما إن تجاوزت العربية بوابات المبنى، حتى فرك السيد جوليادكين يديه بحماسة، وأفلتت من بين شفتيه ضحكة خافتة لا تكاد تُسمع، وبدا كرجل مرح الطبع تمكّن من تدبير مكيدة، وهذا هو سرُّ سعادته وابتهاجه.

غير أنه سرعان ما تحوّل الفرح إلى قلق وتوتر غريب، سيطر على ملامح وجه السيد جوليادكين. وعلى الرغم من الطقس الغائم والرطوبة المرتفعة، إلا أنه قام بفتح زجاج العربية من الجانبين، وأخذ يتفحص وجوه المارّة يُمّنة ويُسرة، وما إن يشعر أن أحدهم ينظر إليه حتى يتبدّل وجهه ويصطنع نظرة مهذبة ووجهًا كلّه وقار وثقة بالنفس. حتى وصل إلى تقاطع شارعي ليتينايا مع نيفسكي، فأصابه إحساس سيئ وقشعريرة وقطّب حاجبيه كما يحدث لرجل داس أحدهم على دمل في قدمه سهوًا، فارتدى إلى أبعد زاوية مظلمة من العربية.

ويرجع السبب في ذلك إلى أنه رأى اثنين من زملائه الشباب في العمل. وبدا له أنهما أيضًا أصيبا بالحيرة والدهشة حينما التقيا بزميلهما، حتى إن أحدهما أشار إلى السيد جوليادكين بإصبعه. وبدا للسيد جوليادكين أن الآخر قد نادى عليه بصوت عالٍ في الشارع، وهو تصرّف غير لائق مطلقًا.

ظلّ بطلنا في زاوية العربية ساكنًا، ودون استجابةٍ لزميليه. وأخذ يفكّر في نفسه «ما بال هؤلاء الصبية. وما الغريب في ذلك؟ رجل يركب عربية، فأبيّ عجبٍ وغرابة في ذلك؟ رجلٌ شعر بالحاجة إلى الذهاب إلى عمله في عربية فقام بذلك ببساطة. يا للواقحة! أنا أعرفهما. ما زالا يتصرفان كصبية ويستحقان العقاب بالسوط. لا همّ لهما إلا انتظار استلام الراتب كلّ شهر والتسكع هنا وهناك. لو كان الأمر بيدي لردعتهما حتى لا...»

لم يكمل السيد جوليادكين جملته. توقف فجأة، وبدت علامات الذعر على وجهه حين مرت على يمينه عربية فخمة يجرها زوج من الخيول التتيرية. بدت العربية مألوفة لديه. أما السيد الجالس فيها فقد لمح السيد جوليادكين حين أخرج رأسه من نافذة العربية في حركة

طائشة. وأصيب الرجل بالذهول هو أيضًا لهذه الصدفة التي لم تكن في حسبانها، فالتفت قدر استطاعته، وظلّ كذلك يطالع بفضولٍ شديدٍ زاوية العربة التي انزوى فيها بطلنا بسرعة.

كان الرجل في العربة هو نفسه السيد الذي يعمل لديه جوليا دكين في وظيفة مساعد مدير المكتب. ولما أيقن جوليا دكين أن رئيسه أندريه فيليبوفيتش قد تعرّف عليه، وأنه يحملق فيه بكلتا عينيه، ولما أدرك أنه ليس بمقدوره الاختباء، أُصيبَ بخجلٍ ووجلٍ شديد حتى احمرت أذناه. فكّر في نفسه: «هل أنحني إليه محيياً إياه أم لا؟ هل أجيبه على إشارات الاهتمام التي يرسلها لي الآن أم لا؟ هل أكشف عن نفسي أمامه أم لا؟ ربما الأفضل أن أتظاهر أنني لست أنا، بل شخص آخر يشبهني تمامًا وأنظر إليه وكأن شيئاً لم يكن» وأخذ يتمتم في نفسه: «نعم. لست أنا، طبعاً لست أنا». قال هذه الكلمات وهو ينزع قبعته أثناء مرور أندريه فيليبوفيتش وينظر إليه دون أن يحوّل بصره عنه، ويهمس بصوت يكاد لا يخرج: «أنا.. أنا لا شيء.. أنا لا شيء على الإطلاق. يقيئاً لست أنا. يا أندريه فيليبوفيتش. حتماً لست أنا. لست أنا وحسب». إلا أنّ العربة الفخمة كانت قد تجاوزت عربة السيد جوليا دكين بسرعة وانقطعت الشحنة المغناطيسية المنبعثة في أعين رئيسه، ومع ذلك ظلّ وجلاً في ذروة الخجل. ثم ابتسم وظلّ يدمدم في نفسه: «لقد كنت غيبياً عندما تصنعت عدم معرفتي إياه. كان يجب أن أتمتع بالشجاعة وأحبيه بصراحة وبرفعة ونبل. مثلاً أن أقول له إنني أيضًا مدعو على العشاء. بكل بساطة».

ثم سرعان ما يتذكر تصرّفه المعيب الخاطيء فيتألم بحرقّة ويقطّب حاجبيه ويلقي بنظرة تحدّ إلى مقدمة العربة حتى إنه يبدو كمن يرغب في سحق كل أعدائه بنظراته تلك حتى يستحيلوا رماداً. وفجأة توصل إلى فكرة ملهمة، فشدّ الحبل المثبت في كوع السائق وأمره بإيقاف العربة والالتفاف إلى الخلف والعودة من نفس الطريق إلى شارع ليتينايا.. كان السبب ببساطة أن السيد جوليا دكين يرغب في مقابلة طبيبه كريستيان إيفانوفيتش بشكل عاجل والبوح له بأمر مهم حتى تهدأ نفسه. وعلى الرغم من أنه قد تعرّف على طبيبه منذ أمد قريب، وإذا تحرّينا الدقة فإنه لم يزر العيادة إلا مرة واحدة الأسبوع الماضي؛

ليشكو إليه بعض الأعراض الطبية البسيطة، إلا أن الطبيب كما يقولون كالكاهن. وعلى المرء أن يصارحه بكل شيء ولا يخفي عنه شيئاً، كما أن من واجب الطبيب أن يعرف كل شيء عن المريض.. هكذا كان يتمتم بطلنا وهو يخرج من العربة عند مدخل أحد المباني ذات الطوابق الخمس في شارع ليتينايا، وحيث أمر السائق بإيقاف العربة، ثم وهو يصعد الدرج محاولاً أن يتمالك نفسه ويخفض من تسارع ضربات قلبه، التي عادة ما تتزايد عند صعوده درج منازل أناس غرباء.

« نعم.. هكذا هو... أليس كذلك؟ هل الأمر كذلك؟ هل سيكون من اللائق أن أقوم بذلك؟ هل سيكون مناسباً أن أفعل ذلك؟ ولكن، وما الضرر؟ أنا أحكي عن نفسي ولا ألام على ذلك مطلقاً. سيكون من الغباء أن أخفي ذلك عنه. سأدعي أنني كنت أمرُّ بالصدفة بالجوار، وسيرى كيف هو الأمر وما يجب فعله».

ووسط هذه الأفكار وصل السيد جوليا دكين إلى الطابق الثاني، وتوقف أمام الشقة التي تحمل رقم ٥ والتي علقت على بابها لافتة نحاسية جميلة كُتِبَ عليها:

كريستيان إيفانوفيتش روتينشبيتس

أخصائي الطب والجراحة

توقّف بطلنا أمام الشقة للحظاتٍ، أصلح فيها هندامه، ورسم على وجهه ابتسامة لطيفة ووقورة، وأخذ يستعد لدق جرس الباب. ولما أصبح مستعداً تماماً لدق الجرس واثته فكرة فجأة، وسأل نفسه إذا كان من الأفضل أن يحضر إلى الطبيب غداً، وأنه ليست هناك حاجة ماسّة حتى الآن لزيارة الطبيب. ولكن ونظراً لأن السيد جوليا دكين قد سمعَ - في هذه اللحظة - وَقَعَ أقدامٍ تصعد السلم، فقد عدل عن هذا الرأي فوراً. وبنظرة حازمة ووجه صارم تماماً، دق جرس باب شقة الطبيب كريستيان إيفانوفيتش.

## الفصل الثاني

بدا كرستيان إيفانوفيتش روتينشبيتس، أخصائي الطب والجراحة، رجلاً مسنّاً، ورغم ذلك يتمتع بصحة جيدة. له حاجبان كثيفان، والشيب واضح على لحيته. وبدا أن نظراته المعبرة القوية قادرة على علاج جميع الأمراض. ويحمل على صدره وسامًا رفيعًا. في صباح ذلك اليوم كان الطبيب في مكتبه، مسترخيًا على مقعده المريح، يحتسي قهوته التي أحضرتها إليه طبيبة من تلاميذه تعاونه في العيادة، ويدخن سيجارًا ويكتب من وقتٍ لآخر وصفات طبية لمرضاه. وبعد أن كتب مرهفًا لمريض طاعن في السن يعاني من البواسير، ورافقه حتى الباب الجانبي لمكتبه، جلس في انتظار المريض التالي. دخل السيد جوليادين إلى الغرفة.

ومن الواضح أن كريستيان إيفانوفيتش لم يكن يتوقع هذه الزيارة. بل إنه لم يكن يرغب في رؤية السيد جوليادين أمامه؛ ولذا فقد بدت عليه علامات التوتر للحظات، وبشكل لا إرادي، ارتسمت على وجهه علامات الانزعاج. ولما كان السيد جوليادين يعاني دومًا من الإحساس بالحرج، وأنه في المكان والوقت غير المناسبين حينما يلجأ إلى أحدٍ للحديث عن شأن خاص به، فقد كان الأمر شديد الثقل على نفسه، لاسيما وأنه لم يكن لديه متسع من الوقت للتمهيد لشكواه بشكلٍ جيدٍ، وهي في نظره أهم عقبة تواجهه في مثل هذه الحالات، ولذا فقد شعر بالاضطراب الشديد، فتمتم ببضع كلمات خافتة وكأنه يعتذر عن مجيئه. لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل في هذه اللحظة، فسحب كرسياً وجلس دون أن يسمح له الطبيب بذلك. وفي اللحظة ذاتها شعر بأنه ارتكب فعلاً غير لائق، وأراد أن يصلح خطأه سريعاً في عدم احترام الذوق والأدب، فنهض واقفاً عن الكرسي الذي كان قد جلس عليه دون دعوة. وما إن هدأ واستقرت نفسه، حتى أدرك أنه ارتكب خطأ مزدوجاً، فشرع سريعاً في ارتكاب الثالث وأخذ يدمدم بكلمات غامضة وكأنه يعتذر، وارتسمت على وجهه ابتسامة خجلة مضطربة. صمت قليلاً وفي النهاية جلس على الكرسي وهو يحاول استرداد

ثقتة بنفسه، ويرمق الطبيب بنظرات ثاقبة متحدية. كانت نظراته تلك ذات قوة وتأثير نفسي كبير وقوي على أعدائه، ولها قدرة استثنائية على سحقهم وتحويلهم إلى رماد، فضلاً عن ذلك، كانت تلك النظرة تعبر عن استقلال السيد جوليادكين واعتزازه برأيه، فهي تدل بوضوح على أنه رجل لا غبار عليه، وأنه صاحب رؤية خاصة به كسائر الرجال، وأنه زاهد في مخالطة الناس على كل حال.

تنحج كريستيان إيفانوفيتش وقد بدت على وجهه علامات الرضا عما قام به صاحبنا، ورمق السيد جوليادكين بنظرة فاحصة متسائلة.

قال السيد جوليادكين مبتسماً:

- كريستيان إيفانوفيتش. لقد قررت الحضور إليكم وإزعاجكم للمرة الثانية، وأرجو أن يتسع صدركم لي.

بدا واضحاً أن السيد جوليادكين يعاني كثيراً في إيجاد الكلمات المناسبة.

ردّ كريستيان إيفانوفيتش قائلاً، وهو ينفث دخان سيجاره من فمه، ويضع السيجار على الطاولة:

- لكن يجب عليك الالتزام بالتعليمات. فقد شرحت لك من قبل أن دواءك يكمن في التخلي عن عاداتك.. أنت في حاجة إلى الترفيه والترويح عن النفس، وإلى أصدقاء ومعارف تتردد عليهم.. وفي الوقت نفسه يجب ألا تأنف من شرب الخمر أحياناً. يجب أن تصنع لنفسك صحة مسلية ومقبلة على الحياة وتتمسك بها.

عاجله السيد جوليادكين بالقول، وهو ما زال مبتسماً لأنه يعتقد أنه لا يختلف كثيراً عن الآخرين، وأن سلوكه سويٌّ، وأنه يرقّه عن نفسه كما يفعل الآخرون تماماً، وأنه بالتأكيد يستطيع الذهاب إلى المسرح؛ لأنه يملك المال كغيره، وأنه في الصباح يكون في العمل، وفي المساء لديه الوقت الكافي للقيام بما يريد، وأنه إنسان لا بأس به على الإطلاق. حتى

إنه لَمَح في كلامه إلى أنه ليس أقل من الآخرين على الإطلاق، فهو يعيش في شقته الخاصة، ولديه خادم يُدعى بيتروشكا.. وهنا تحديداً، توقف السيد جوليا دكين فجأة عن الكلام.

- همم ... لا. ليس هذا ما قصدت. وما أردت أن أسألك عن ذلك مطلقاً. ما أريد أن أعرفه عنك بشكل عام هو إذا كنتَ من مُحبِّي الاختلاط والصحبة المرححة مع الآخرين، وهل تحسن الاستفادة من الوقت؟ باختصار هل تنتهج نمط حياة يتسم بالكآبة أم بالمرح والسعادة؟

- أنا يا كريستيان إيفانوفيتش...

قاطعته الطبيب بقوله:

- ما أقوله هو أن عليك إحداث تغيير جذري في نمط حياتك كلها، والتغلب على طبعك بشكلٍ ما.

لفظ كريستيان إيفانوفيتش كلمة «التغلب» بطريقة خاصة، وتوقَّف عن الكلام لبرهة، وهو يرسم على وجهه ملامح الجدية والصرامة. ثم أكمل:

- عليك ألا تعزل نفسك عن حياة المرح، وأن تداوم على حضور العروض المسرحية والصالونات، وفي كل الأحوال عليك ألا تأنف شُرب الخمر. لن تنفعك ملازمة بيتك. أحذرك من البقاء في المنزل.. هذا محرّم عليك.

ردَّ السيد جوليا دكين، وهو يرمق محدّثه بنظرة ذات مغزى، ومن الواضح أنه كان يبحث عن عبارة موفقة للتعبير عن أفكاره:

- يا كريستيان إيفانوفيتش. أنا رجلٌ يحب الهدوء. لا يسكن في شقتي سواي وبيتروشكا.. أقصد خادمي بيتروشكا يا كريستيان إيفانوفيتش. أريد أن أقول يا كريستيان إيفانوفيتش

إنني ماضٍ في طريقي في الحياة، طريقي الخاص بي يا كريستيان إيفانوفيتش. أنا راضٍ عن نفسي، ومكتفٍ بها، وأعتقد أنني لستُ عبئًا على أحدٍ. كما أنني يا كريستيان إيفانوفيتش أخرج للتنزه أيضًا.

- كيف؟ صحيح! في هذه الأيام ليس التنزه وحده بالأمر الممتع على الإطلاق؛ فالطقس سيئ تمامًا.

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش. أنا يا كريستيان إيفانوفيتش، ورغم كوني مسالمًا بطبعي كما سبق أن تشرفت بإيضاح ذلك لكم من قبل، إلا أن حياتي يا كريستيان إيفانوفيتش مستمرة. الحياة دروبها كثيرة.. أنا أريد... أقصد أن أقول يا كريستيان إيفانوفيتش... سامحني يا كريستيان إيفانوفيتش فأنا لا أجيد التعبير.

- همم... واصل حديثك..

واصل السيد جوليا دكين حديثه بلهجة فيها القليل من الاستياء، متعثرًا ومشوشًا، وتعلو وجهه ابتسامة صفراء:

- أقول ذلك يا كريستيان إيفانوفيتش حتى تعذرني؛ لأنني كما يبدو لا أحسن التعبير. من هذا المنطلق يا كريستيان إيفانوفيتش ربما اختلف عن الآخرين، ولا أستطيع الحديث كثيرًا، ولم أتعلم فنَّ الخطابة وسبك العبارات الجميلة. ولكنني في المقابل يا كريستيان إيفانوفيتش إنسان فاعل. نعم. في المقابل أنا إنسان فاعل في المجتمع يا كريستيان إيفانوفيتش.

- همم.. كيف ذلك... إنسان فاعل؟

بعد أن قال كريستيان إيفانوفيتش هذه الجملة سادت فترة صمت لدقيقة. رمق الطبيب السيد جوليا دكين بنظرة غريبة، وكأنه لا يصدق ما يقول. وبدوره ألقى جوليا دكين على محدثه نظرة يشوبها الكثير من الريبة.

ثم واصل السيد جوليا دكين حديثه بنفس اللهجة، وبدأت عليه علامات الانزعاج والحيرة بفعل إصرار كريستيان إيفانوفيتش على رأيه:

- أنا يا كريستيان إيفانوفيتش أحب السلام والسكينة، وأمقت جلبة الحياة من حولي. هناك، في المجتمع الكبير يا كريستيان إيفانوفيتش، يحتاج المرء إلى الركض والهرولة كثيرًا (وهنا أخذ السيد جوليا دكين ينقر الأرض بإحدى قدميه). هذا شيء ضروري ومطلوب في هذا المجتمع. يحتاج المرء إلى أن يجيد المجاملة وحسن الحديث. هذه الأشياء ضرورية. وأنا يا كريستيان إيفانوفيتش لم أتعلم هذه الأشياء.. لم أتعلم شيئًا من هذا كله.. لم أتقن يومًا هذه الحيل والخبائث. لم يكن لدي الوقت لذلك. أنا رجل بسيط، لا أعرف المكر ولا الدهاء وباطني كظاهري. نعم يا كريستيان إيفانوفيتش، في هذه النقطة بالذات أنا أستسلم وأعترف أنه لا طاقة لي بذلك.

نطق السيد جوليا دكين بهذه الكلمات، وملامح وجهه تعبر ببلاغة عن إيمانه الشديد بما يفعل، وأنه لا يأسف على الإطلاق على اعترافه باستسلامه وعدم قدرته على التعامل مع حيل المجتمع ودهاء الناس، بل إنه على النقيض من ذلك تمامًا. وكان كريستيان إيفانوفيتش يصغي إليه مُطرقًا رأسه إلى أسفل، وتعلو وجهه إشارة غير طيبة وكأنه يعلم مسبقًا أو استشعر مسبقًا ردّ محدّثه. وأعقب هذا الحديث المسهب صمتٌ طويلٌ.

وفي النهاية قال كريستيان إيفانوفيتش بصوتٍ يكاد لا يُسمع:

- أظن أنك شردت قليلًا عن الموضوع الأساسي. وأعترف أنني أجد صعوبة في فهم ما تقول.

في هذه المرة رد السيد جوليا دكين بلهجة حادة وصارمة:

- أنا يا كريستيان إيفانوفيتش لست بليغ اللسان. سبق أن شرفت بإبلاغكم أنني لا أتمتع بحسن الحديث يا كريستيان إيفانوفيتش.

- همم..

عاد السيد جوليا دكين إلى لهجته الهادئة، وواصل حديثه هذه المرة بلهجة تحمل أكثر من معنى، وأحياناً بشيء من الفخر والزهو متوقفاً بعد كل نقطة يذكرها:

- كريستيان إيفانوفيتش! حين دخلت عليكم بدأت حديثي بالاعتذار لكم. والآن ها أنا أكرر ما سبق أن فعلت، ومرة أخرى أرجو المعذرة منكم، وأن تتحملوني بعض الوقت. ليس لديّ ما أخفيه عنكم يا كريستيان إيفانوفيتش. فأنا رجلٌ ليس ذا شأنٍ كما تعلمون، ولكني لحسن حظي لستُ أسفًا على ذلك ولا نادماً. بل على العكس من ذلك يا كريستيان إيفانوفيتش، ولكي أكشف الأمر تماماً فأنا أفتخر بذلك، أفتخر بكوني إنساناً على الهامش، وليس ذا شأنٍ. ليس لديّ اهتمامات معينة، وهذا أيضاً مبعث فخرٍ لي. أقوم بعملٍ في وضح النهار ولا أخفي شيئاً، لا أعرف الخبث، وعلى الرغم من قدرتي على ردّ الإساءة، نعم قادرٌ وبقوة على ذلك، غير أنني لا أرغب في أن ألوث روحي؛ ولذا أفضل أن تبقى يدي طاهرة نظيفة. بهذا المعنى يا كريستيان إيفانوفيتش، أعني أن تبقى يداي طاهرتين وغير مدنستين.

صمتَ السيد جوليا دكين لحظاتٍ، غير أن وجهه كان يحمل الكثير من التعبيرات، ثم واصل بانتعاشة ووداعة:

- أتابع طريقتي قدماً يا كريستيان إيفانوفيتش وفي وضح النهار، ولا أعرف الأساليب الملتوية، بل أحتقرها وأتركها لغيري. ولا أحاول أبداً إهانة أناس ربما هم أشرف وأطهر مني ومنكم.. أقصد أنني أريد القول أنهم أشرف مني ومن غيري يا كريستيان إيفانوفيتش، وليسوا أشرف مني ومنكم. أمقت الزهو، وأحتقر الرياء، النفاق، الدناءة، وأغضب من الوشايات والأقاويل والنميمة. لا أرتمي أقنعة إلا في الحفلات التنكرية، وأرفض أن أرديها كلّ يوم في تعاملاتي مع الناس. وأخيراً أريد أن أطرح عليكم سؤالاً واحداً يا كريستيان إيفانوفيتش. كيف كنتم لتتصرفون في حال رغبتكم في الانتقام من عدوِّ لكم، عدو شرير أو هكذا تحسبونه؟

أنهى السيد جوليا دكين حديثه بهذا السؤال، وهو يرمق كريستيان إيفانوفيتش بنظرة ملؤها التحدي. وعلى الرغم من جلاء ووضوح كلامه والثقة التي يفوح بها، وقدرته على وزن كل لفظ ينطق به معوًلاً على إحداث أقوى تأثير ممكن على محدثه، إلا أن السيد جوليا دكين نظر إلى كريستيان إيفانوفيتش بشيء من القلق، بل قل بكثير من القلق، وإذا شئت الصدق، بقلق مفرط ومبالغ فيه. هو الآن ينظر إليه، وينتظر على أحر من الجمر وفي خضوع تام وحزن شديد، جواباً شافياً من كريستيان إيفانوفيتش. غير أنه أصيب بالدهشة وربما بخيبة الأمل الشديدة عندما دمدم الأخير غاضباً ثم أزاح المقعد في اتجاه الطاولة وأجاب بلهجة خشنة جافة، لا تخلو من الاحترام والتوقير، أن وقته ثمين، وليس بمقدوره فهم ما يقول بشكل واضح، وأنه على كل حال على استعداد لتقديم أي عون، وأنه تحت أمره ولكن في حدود ما يستطيع، وما عدا ذلك لا يتحمل مسؤوليته في المستقبل. ثم أخرج قلمه، وسحب الدفتر، واقتطع منه ورقة لكتابة الوصفة الطبية، وقال له: إنه سيصف له الدواء اللازم.

ردَّ السيد جوليا دكين بصوت خافت وسريع، وهو ينهض واقفاً وممسكاً باليد اليمنى للطبيب: لا يا كريستيان إيفانوفيتش. لا ينبغي أن تفعل ذلك. لا.. لا ينبغي أبداً فعل ذلك. حقاً يا كريستيان إيفانوفيتش لا ضرورة لذلك مطلقاً..

ولكن وبينما كان السيد جوليا دكين يردد هذه الكلمات، حدث تحوُّل غريب في داخله. بدت عيناه الرماديتان تصدران بريقاً غريباً وشفته ترتعدان بقوة، وكل عضلات وجهه وجميع ملامحه وكأنها تنتفض بشدة. كان جسمه كله يرتجف. نجح بحركته الأولى في إيقاف كريستيان إيفانوفيتش عن كتابة وصفته، ووقف السيد جوليا دكين جامداً بلا حراك، وكأنه لا يصدق نفسه، وكأنه ينتظر من يلهمه بما عليه أن يفعل بعد ذلك.

وقع شيء غريب حينها. بدا الطبيب حائراً مسمراً على كرسيه، مشوشاً لا يدري ماذا يفعل، ونظر في عين السيد جوليا دكين الذي كان بدوره ينظر إلى الطبيب بنفس الطريقة. وفي آخر الأمر نهض كريستيان إيفانوفيتش وهو يمسك بياقة سترة السيد جوليا دكين. وقف

الرجلان ينظران لبعضهما البعض عن قُرب للحظات. دون أن يحوّل أحدهما عينيه عن الآخر. وعندها قام السيد جوليا دكين بحركة ثانية؛ حيث ارتجفت شفتاه ولحيته، وانفجر بطلنا في البكاء فجأة. كان يبكي وهو يهز رأسه، ويضرب على صدره بيده اليمنى، بينما يمسك بيده اليسرى ياقة سترة كريستيان إيفانوفيتش المنزلية. أراد أن يفسر الأمر، ويبرر ما يحدث سريعاً، لكنه لم يستطع أن يلفظ ولو كلمة واحدة. وأخيراً استفاق كريستيان إيفانوفيتش من ذهوله هذا وقال للسيد جوليا دكين محاولاً إجلاسه على المقعد:

- كفى. اهدأ من فضلك. اجلس.

ردّ السيد جوليا دكين بصوت حزين خائف وخافت:

- لديّ أعداء يا كريستيان إيفانوفيتش. نعم، لديّ أعداء. أعداء أشرار أقسموا على القضاء عليّ.

واصل كريستيان إيفانوفيتش، وقد نجح في إقناع السيد جوليا دكين بالجلوس على الكرسي:

- كفى، كفى. عن أي أعداء تتحدث؟ عليك ألا تفكر فيهم. لست في حاجة إلى ذلك على الإطلاق. اجلس. اجلس.

هدأ السيد جوليا دكين أخيراً دون أن يحوّل نظره عن كريستيان إيفانوفيتش. خطا كريستيان إيفانوفيتش جيئة وذهاباً في الغرفة، وعلى وجهه علامات الغضب وعدم الرضا. ساد صمتٌ طويلٌ.

في النهاية قال السيد جوليا دكين وهو يهبط من مقعده حزينا مغلوباً:

- أشكركم يا كريستيان إيفانوفيتش. أشكركم من كل قلبي. وأقدر تماماً ما قمتم به من أجلى. وحتى آخر يوم في حياتي لن أنسى رأفتكم وعطفكم عليّ يا كريستيان

إيفانوفيتش.

جاء رد الطبيب على تصرف السيد جوليا دكين هذه المرة حادًا، وقال له محاولًا إجلاسه مرة أخرى على كرسيه:

- كفى. كفى. قلت لك كفى. ماذا بك؟ قل لي ماذا يقلقك. حدّثني عن مشاكلك. عن أي أعداء تتحدث؟ ما هو الأمر الذي تخفيه ويؤرقك؟

ردّ السيد جوليا دكين وهو يطرق رأسه إلى أسفل:

- لا يا كريستيان إيفانوفيتش. لننسى هذا لأمر الآن. لنؤجل الحديث عنه إلى حين.. إلى وقت آخر ويوم آخر أنسب لي ولكم يا كريستيان إيفانوفيتش، حيث تتجلى فيه الأمور وتكشف الأقنعة عن الوجوه ويتجلى كل شيء. تتفقون معي يا كريستيان إيفانوفيتش بالتأكيد. اسمحوا لي من فضلكم بالمغادرة مع أمنياتي لكم بقضاء يوم سعيد يا كريستيان إيفانوفيتش.

ختم السيد جوليا دكين كلامه وهو ينهض من كرسيه ويمسك بقبعته وملامح وجهه تكسوها الجدية والحزم.

- آه، حسنًا، كما تريد. همم (مرت دقيقة من الصمت) من ناحيتي وكما تعلم سأقدّم كل ما أستطيع من مساعدة.. وأتمنى لك الخير من كل قلبي.

- أتفهم تمامًا ما تقولون يا كريستيان إيفانوفيتش، أتفهم تمامًا. نعم. أتفهم تمامًا الآن.. وعلى كل حال، أرجو أن تسامحوني على إزعاجي لكم يا كريستيان إيفانوفيتش.

- همم.. لا، لست هذا ما أردت قوله لك. ومع ذلك لا بأس. واصل تناول الأدوية التي وصفتها لك سابقًا..

- سأفعل، سأتناول الدواء كالعادة كما أمرتم يا كريستيان إيفانوفيتش. سأشتريه من نفس الصيدلية.. أصبحت وظيفة الصيدلي اليوم شأنًا عظيمًا يا كريستيان إيفانوفيتش..

- ماذا تقصد بكلامك هذا؟

- بالمعنى المباشر يا كريستيان إيفانوفيتش. أريد أن أقول إن هذا هو دستور هذه الأيام.

- همم..

- وما من شاب اليوم، بما فيهم الصيادلة، إلا ويبيح لنفسه إهانة إنسان وقور محترم.

- همم... ماذا تعني بذلك؟

- أقصد يا كريستيان إيفانوفيتش شخصًا بعينه.. معروف لي ولكم يا كريستيان إيفانوفيتش، فلاديمير سيميونوفيتش على سبيل المثال..

- أها..

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش، وأنا أيضًا أعرف البعض يا كريستيان إيفانوفيتش ممن لا يعيرون اهتمامًا لرأي الجماعة، في سبيل التعبير عما يفكرون فيه بصراحة.

- وكيف ذلك؟

- حسنًا يا سيدي، الأمر غريب بعض الشيء. هناك أناس لا يتورعون عن القيام بأعمال غير متوقعة ومؤلمة، أو كما يقول المثل: يقدمون لك طعامًا غير مستساغ كالكوكا بالقشدة.

- ماذا؟ ماذا يقدمون؟

- نعم، كوكا بالقشدة يا كريستيان إيفانوفيتش.. هذا مثل شعبي روسي. ولديهم المقدرة في الوقت نفسه على توجيه كلمات الملاطفة والإعجاب والتهنئة لأشخاص يكرهونهم يا

كريستيان إيفانوفيتش.. أذكر هؤلاء على سبيل المثال يا كريستيان إيفانوفيتش..

- تهنئة؟

- نعم يا سيدي، التهنة يا كريستيان إيفانوفيتش. هكذا فعلَ أحد أصدقائي المقربين قبل أيام...

ردّ كريستيان إيفانوفيتش وهو ينظر باهتمامٍ إلى السيد جوليادين:

- أحد أصدقائك المقربين.. كيف كان ذلك؟

- نعم يا سيدي. أحد أصدقائي المقربين كان عليه أن يبارك لصديقٍ آخر حصوله على ترقية جديدة في العمل. والأخير رجل لطيف ومُحَبَّب كثيرًا بالنسبة إليّ. فهو من هؤلاء الذين يطلق عليهم الصديق الصدوق. قال الأول للثاني مهنتًا: «أعبر من أعماق قلبي عن سعادتني وأتقدّم بالتهاني الصادقة لكم يا فلاديمير سيميونوفيتش بمناسبة الترقّي للمنصب الجديد. وما يضاعف من سعادتني أن الزمن الذي نعيش فيه هو زمن أبناء ذوي السُلطة والنفوذ»  
وهنا قام السيد جوليادين بالإشارة برأسه بطريقة لا تخلو من المكر، وأرفق ذلك بغمزات من عينيه في وجه محدّثه:

- همم.. هكذا قال له؟

- نعم. يا كريستيان إيفانوفيتش. قال ذلك ثم نظر إلى أندريه فيليبوفيتش الذي هو عم صاحبنا فلاديمير سيميونوفيتش. وإن شئت الصراحة يا كريستيان إيفانوفيتش. ما أهمية أن يرقى إلى الدرجة الثامنة(\*)؟ ما أهمية ذلك بالنسبة لي؟ لكم أن تتصوروا أنه يريد الزواج، رغم أنه ما زال صبيًا، وما زالت آثار حليب مرضعته على شفّتيه لم تجف بعد. اعذروني على هذا التعبير. هذا ما قلّته لفلاديمير سيميونوفيتش.

لعليّ قد أخبرتكم بكل شيء يا كريستيان إيفانوفيتش. والآن اسمحوا لي بالانصراف.

- همم...

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش. فلتسمحوا لي بالانصراف. ولكي أضرب عصفورين بحجرٍ واحدٍ بعد التلميح إلى أصحاب الوساطة والنفوذ، توجهت بحديثي إلى كلارا ألسوفيفنا (كنا في منزل السيد ألسوفي إيفانوفيتش أول أمس). وبعد أن شدت كلارا بأغنية رومانسية تثير المشاعر قلت لها: «لقد كان أداؤك عاطفيًا ومؤثرًا، غير أن إنصات الحضور لك لم يكن عن مشاعر إعجاب صادقة». وأنا هنا ألمح بوضوح يا كريستيان إيفانوفيتش - كما تفهمون بالطبع - إلى أنهم لا يعجبون بصوتها، بل لهم مآرب أخرى من وراء ذلك.

- وماذا كان رد فعله؟

- ابتلع كلماتي ولم يعلّق كما يقولون.

- همم...

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش. أما العجوز نفسه فقد قلت له: يا سيد ألسوفي إيفانوفيتش. أعرف ما أدين لكم به وأقدّر فضلكم الذي غمرتموني به منذ طفولتي، ولكنني أنصحكم بأن تفتحوا أعينكم يا ألسوفي إيفانوفيتش، وتتنظروا إلى ما يحدث حولكم. أنا أحاول أن أكشف لكم الأمور بصراحة وإخلاص يا ألسوفي إيفانوفيتش.

- هكذا إذا...

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش.

- وماذا فعل حينها؟

- وماذا يمكن أن ننتظر منه يا كريستيان إيفانوفيتش؟ أخذ يغمغم ويأتي بحديث من الشرق والغرب، ثم قال إنه يعرفني جيدًا، وأن صاحب المعالي هو رجل الكرم والعطايا.. ثم

استرسل في حديث غير مفهوم وعشوائي وبلا هدف. ماذا يمكن أن نتوقع منه؟ عندما يهرم الرجل يفقد القدرة على التدبير والتعبير بحكمة.

- أها، هكذا إذا.

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش. ومَن مَنَّا ليس كذلك. إنه شيخ رجله والقبر كما يقولون. ما إن يسترسل أحدهم أمامه بالخوض في سيرة غيره إلا ويجد منه آذانًا صاغية. لا يستطيع العيش دون ذلك..

- تقصد النميمة؟

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش. أشاع أحدهم شائعة، وأخذوا جميعًا في ترديدها وتورط معهم هذا العم، الدب العجوز. وتورَّط معه ابن أخيه وهو صديقٌ شابٌّ.. اتفقوا جميعًا مع عددٍ من النساء العجائز حتى يدبروا الأمر على طريقتهم. هل تتصور؟ هل لكم أن تخمنوا كيف قرر هؤلاء اغتيال إنسان؟

- اغتيال إنسان؟

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش، من أجل اغتيال إنسانٍ معنويًّا، قرَّر هؤلاء إطلاق شائعة ونشرها بين الناس.. أنا أتحدث عن صديقي المقرَّب..

أوما كريستيان إيفانوفيتش برأسه.

نشروا شائعةً عنه بين الناس. وأعترف لكم يا كريستيان إيفانوفيتش أنني أخجل من تكرارها أمامك الآن.

- همم...

- أشاعوا أنه تعهدّ بالزواج من إحدى الفتيات، وفي الوقت نفسه خطبَ فتاةً أخرى.. مَنْ تتوقع يا كريستيان إيفانوفيتش أن يخطب؟

- مَنْ؟

- صاحبة مطعم صغير فقير، امرأة ألمانية من العوام، كان يتناول طعامه عندها. زعم هؤلاء أنه خطبها اضطرارًا؛ نظرًا لأنه مدينٌ لها بالمال.

- هذا ما أشاعوه هم؟

- هل تصدق يا كريستيان إيفانوفيتش؟ تلك المرأة الألمانية القبيحة والوقحة التي لا تعرف الحياء ولا الخجل. تلك التي تدعى كارولينا افنونا.. هل تعرفونها؟

- أعترف، من جهتي أنا...

- أفهمكم يا كريستيان إيفانوفيتش، أفهمكم تمامًا وأنا أيضًا من جهتي أشعر...

- قل لي من فضلك: أين تعيش حاليًا؟

- أين أعيش يا كريستيان إيفانوفيتش؟

- نعم.. أنا أرغب في... يبدو أنك كنت تعيش حياتك في السابق في...

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش كنت أعيش.. كنت أعيش... كيف لي ألا أفعل ذلك.

أجاب السيد جوليادكين وعلى محياه ترتسم ابتسامة خفيفة، وبدا أن ذلك قد أخجل محدثه السيد كريستيان إيفانوفيتش قليلًا.

- لا. لم تفهمني جيدًا. أقصد أن أقول إنني من جهتي...

- أنا أيضًا يا كريستيان إيفانوفيتش أردت أن أقول إنني من جهتي... (ثم واصل مبتسمًا) إلا أنني يا كريستيان إيفانوفيتش أطلت عليكم بحديثي، وآمل أن تأذنوا لي بالانصراف.. وأتمنى لكم صباحًا سعيدًا...

- همم...

- نعم يا كريستيان إيفانوفيتش أفهمكم تمامًا. أنا الآن أفهمكم تمامًا.. اسمحوا لي أخيرًا بالانصراف، وأتمنى يومًا سعيدًا لكم.

ردّد السيد جوليا دكين جملته الأخيرة وهو يرسم بجسده انحناءة فيها تكلف. ثم خرج من الغرفة وترك كريستيان إيفانوفيتش في زهولٍ شديدٍ. وبعد أن وصل إلى أسفل درج منزل الطبيب، ابتسم وفرك يديه من فرط السعادة. وقف عند باب المبنى، واستنشق النسيم المنعش، وشعر بالكثير من الحرية والانطلاق. كان على استعدادٍ للاعتراف بأنه الإنسان الأكثر سعادة على ظهر الأرض. وهَمَّ أن يتوجه إلى عمله، وإذا به يسمع صوتًا قويًا وكأنه فرقة عجلات عربية ورنين أجراسها. نظر إليها وتذكّر كل شيء. فتح الخادم بيتروشكا باب العربة، وعندها داهم السيد جوليا دكين شعورٌ غريبٌ مزعجٌ، وبدا وجهه وجلاً للحظات، وكأن أحدًا طعنه في قلبه. وضع قدمًا في العربة ثم التفت فجأة ونظر إلى نافذة كريستيان إيفانوفيتش. وكما توقّع، كان كريستيان إيفانوفيتش واقفًا يطل من النافذة، يتحسس ذقنه بيده، وينظر بفضولٍ إلى صاحبنا.

فكّر السيد جوليا دكين في نفسه وهو يلج إلى داخل العربة «هذا الطبيب غبي، نعم، إنه في منتهى الغباء. قد يكون ماهرًا في مداواة مرضاه لكنه رغم ذلك شديد الغباء». صاح بيتروشكا بالسائق «هيا!». وانطلقت العربة مرة أخرى في اتجاه شارع نيفسكي.

## الفصل الثالث

قضى السيد جوليا دكين هذا الصباح بأكمله في إنجاز مهام عديدة مرهقة. فحين وصل بالعربة إلى شارع نيفسكي أمرَ بالتوقف عند مبنى «جوستيني دفور». قفز من العربة وهرول يقطع الممر الخاص بالمبنى برفقة خادمه بيتروشكا، واتجه مباشرة نحو دكان للمصوغات الفضية والذهبية. كان من السهل على كل من يراه فهم أنه مثقل بالهموم والمتاعب والمشكلات. وبعد أن فاوض البائع على شراء طاقم كامل للمائدة، ونجح في الحصول عليه مقابل ألف وخمسمائة روبل فقط، حصل - فوق البيعة - على علبة سيجار جميلة، وطاقم أمواس حلاقة من الفضة. كما اهتم أيضًا بمعرفة أسعار بعض الأشياء الثمينة والمفيدة، وقطع عهدًا للبائع بأن يعود غدًا، أو حتى أن يرسل في اليوم ذاته مساءً خادمه لدفع الثمن واستلام هذه الأشياء. وسجل جوليا دكين عنوان المحل، واستمع باهتمام إلى البائع الذي طلب أكثر من مرة الحصول على عربون، ووعده أن يدفعه في الوقت المناسب. بعد ذلك سارع بتوديع البائع العنيد، وسار في الممر الخارجي للمبنى مرة أخرى، تتبعه نظرات ودعوات أصحاب الدكاكين للشراء. وتراوحت نظراته ما بين خادمه والدكاكين المختلفة، يبحث فيها عن دكانٍ جديدٍ.

وفيما هو يطوف بالشارع، عرج على محل لتبديل العملات، واستبدل كل الأوراق النقدية الكبيرة التي في حوزته بأخرى صغيرة. ورغم تكبده خسارة في عملية التبديل تلك، إلا أنه بدا سعيدًا جدًا لأن محفظة النقود صارت أضخم وأكثر انتفاخًا. أخيرًا توقف في محلّ لبيع الأقمشة النسائية. ومرة أخرى أخذ يفاوض على شراء بضاعة كبيرة وبمبلغ ضخم، ومرة أخرى قدّم وعدًا للبائع أن يمر عليه في وقتٍ آخر بكل تأكيد، وسجّل رقم المحل، وعندما سأله الأخير عن العربون كرّر مرة أخرى أنه سيدفعه في الوقت المناسب. ثم دخل دكاكين أخرى وسأل عن أشياء شتى، وفي كلٍّ منها كان يفاوض لتخفيض السعر، ويهتم بالسؤال عن مختلف الأشياء وأثمانها، ويترك المحل ليعود إليه بعد قليل بعد أن يقضي وقتًا طويلًا

في مناقشة البائع حول السعر، ويبدل في ذلك جهدًا جهيدًا. حتى إذا غادر مبنى جوستيني دفور، اتجه إلى أحد محال بيع الأثاث الشهيرة، حيث فاوض لشراء أثاث لست غرف، وأبدى إعجابه بمقعد تزيين حريمي على أحدث موضة، وبعد أن أقنع البائع أنه سيمر لاحقًا بالتأكيد، خرج من المكان، ثم عرج على مكان آخر وسامم على شراء شيء آخر. باختصار لم يبدُ أنه سيتوقف عن ذلك إلا عندما صار السيد جوليا دكين نفسه يشعر بالملل من ذلك. وفجأة، ولسبب يعلمه الله وحده، بدأت تتنابه مشاعر وخز الضمير. وشعر أنه ما من شيء يجبره على لقاء أندريه فيليبوفيتش على سبيل المثال، أو حتى لقاء كريستيان إيفانوفيتش. وأخيرًا دقت الساعة المعلقة على المبنى في الشارع تمام الثالثة ظهرًا. جلس السيد جوليا دكين في العربة، وتبين أنه منذ الصباح لم يشتري سوى زوجين من القفازات وقارورة عطور ثمنها روبل ونصف. ونظرًا لأن الوقت كان ما زال مبكرًا، فقد أمر السائق بالتوقف بالقرب من أحد المطاعم الشهيرة المطلة على شارع نيفسكي، والذي لم يكن يعرفه إلا بالاسم. خرج من العربة وسارع بالدخول إلى المطعم لتناول الطعام والاسترخاء بعض الوقت، والانتظار لوقت يعمله هو.

تناول طعامًا خفيفًا، وكأنه مدعو في المساء لعشاء دسم، وشرب كأسًا من الفودكا، وجلس على أحد الكراسي، وتجول ببصره في أرجاء القاعة بفضول، ثم أمسك بصحيفة روسية صغيرة الحجم، وأخذ يطالع ما فيها. وبعد أن قرأ سطرين أو نحو ذلك، نهض ونظر إلى نفسه في المرآة، ورتب شعره وهندامه، ثم دنا نحو النافذة ونظر ليتأكد ما إذا كانت العربة في مكانها.. ثم عاد أخيرًا إلى مقعده، وأمسك بالصحيفة من جديد يطالعها.

وبدا أن صاحبنا يعاني شدة القلق والاضطراب. ونظر إلى ساعة الحائط فوجد أن الوقت ما زال الثالثة والربع، وأنه ما زال لديه متسع من الوقت. وبعد تفكير، أيقن أنه ليس من اللائق البقاء جالسًا دون أن يطلب شيئًا من النادل؛ فأمر أن يحضروا له فنجان من الشوكولاتة الساخنة على الرغم من عدم إحساسه بالرغبة في ذلك حينها. وبعد أن انتهى من احتساء الفنجان، لاحظ أن الوقت قد مرَّ بعض الشيء ونهض لدفع الحساب. وفجأة شعر بيد أحدهم يضربه برفقٍ على كتفه.

التفت ورأى أمامه اثنين من زملائه بالعمل، هما نفسيهما اللذان التقاهما صباحًا في شارع ليتينايا. ومن الواضح أنهما ما زالا صغيرين في السن والرتبة الوظيفية. ولم تكن تربطه بهما علاقة قوية، كما لم تكن بينهم عداوة أيضًا. وبالتالي التزم الطرفان بقواعد اللياقة والاحترام عند اللقاء. كان كل طرف يعي أنه ما من آفاق لعلاقة أقوى، وأن ذلك يبدو أمرًا مستحيل الحدوث. وبدا اللقاء المفاجئ مزعجًا بعض الشيء للسيد جوليادكين، حيث قَطَّب حاجبيه، وبدا وجلاً مضطربًا بعض الوقت.

أخذ الموظفان الصغيران يتهامسان:

- ياكوف بيتروفيتش، ياكوف بيتروفيتش. أهذا أنت؟ أنت هنا؟ ما الس...

قاطعهما السيد جوليادكين على عجلٍ بصوتٍ مضطرب بفعل دهشتهما الفجة تلك وتعبيرهما عن ذلك دون حرج:

- هذا أنتم أيها السادة؟ هل هربتما من المكتب؟ ها ها ها...

ولكيلا يهين نفسه ويحط من قدرها ويساوي بينها وبين هذين الموظفين الصغيرين، ولكي يحافظ على المسافة والحدود الفاصلة بينه وبينهما، حرَّك يده وربت على كتف أحدهما، إلا أن السيد جوليادكين لم ينجح في القيام بذلك بلطف، فبدا الأمر على نحو لا يريده على الإطلاق.

- ماذا عن صاحبنا الدب؟ أما زال في المكتب؟

- من تقصد بالدب يا ياكوف بيتروفيتش؟

- الدب. ألا تعرفان مَنْ هو الدب؟

ابتسم السيد جوليادكين، والتفت نحو النادل ليأخذ منه باقي المبلغ. ثم أردف قائلاً:

- إنني أقصد أندريه فيليبوفيتش أيها السادة.

واصل حديثه بعد أن انتهى من النادل، والتفت بوجه صارم نحو الموظفين، فنظرَ كلُّ منهما إلى الآخر نظرةً لا تخلو من دلالة. أجاب أحدهما قائلاً:

- نعم يا ياكوف بيتروفيتش. ما زال بالمكتب وقد سألت عنك.

- ما زال هناك. أليس كذلك؟ إذا فليبق هناك في مكتبه. سألت عني إذا، ها؟

- نعم يا ياكوف بيتروفيتش. ماذا دهاك؟ نراك متأنقاً تفوح منك الرائحة العطرة الزكية.

أجاب السيد جوليادين وهو ينظر جانباً ويجتهد لكي يبدو مبتسماً.

- نعم أيها السادة. هكذا أنا.

وعندما لاحظ الرجلان أنه يبتسم انفجرا ضاحكين، ما زاد من قلقه وتوتره.

صمت قليلاً ثم أجاب وكأنه قد عزم على الكشف لهما عن حقيقة ما:

- أحب أن أقص عليكم شيئاً كأصدقاء. أنتما تعرفاني جيداً، ولكنكما حتى الآن كنتما تعرفان جانباً واحداً في شخصيتي. ولست ألومكما على ذلك، فالذنب في ذلك ذنبي أنا. أعترف بذلك.

مطَّ السيد جوليادين شفثيه، أخذ يتفرس وجه الشابين، ويرمقهما بنظرات ذات مغزى. فتبادل الرجلان النظرات فيما بينهما مرة أخرى.

- إنكما أيها السيدان لم تعرفاني حق المعرفة حتى الآن، وليس هذا هو الوقت أو المكان المناسبين لتفسير الأمر وطرح المبررات لذلك. إلا أنني سأذكر لكما شيئاً عابراً. هناك أناس أيها السيدان لا يحبون الأساليب الملتوية ولا يرتدون الأقنعة إلا في الحفلات التنكرية

فحسب. هناك أناس يؤمنون بأن رسالة الإنسان في الحياة لا ينبغي أن تقتصر على تلميع الأرض بكعوب أحذيتهم. هناك أناس أيها السادة لا يدعون أنهم سعداء، أو أنهم راضون عن حياتهم حين يرتدون سراويل واسعة على سبيل المثال. هناك أناس يكرهون الاستعراض والنفاق والدسائس والمؤامرات، والأهم أيها السادة أنهم لا يدسون أنوفهم فيما لا يعنيههم.. والآن أيها السيدان اسحبا لي بالانصراف...

توقف السيد جوليا دكين. وبما أن الشابين كانا الآن راضيين تمامًا، فقد انفجرا ضاحكين بشكلٍ غير مهذب. استشاط السيد جوليا دكين غيظًا وقال:

- اضحكا أيها السيدان. اضحكا إلى حين. ستريان بأّم أعينكما عاقبة الأمور. ستعيشان لتريا ذلك.

نطق السيد جوليا دكين بهذه الكلمات وهو يتناول قبعته وعلى وجهه ارتسمت علامات الحزن والإهانة. ثم أضاف موجهاً الجملة الأخيرة لهما:

- ورغم ذلك أود أن أقول لكما أيها السيدان ما هو أكثر من ذلك. ثلاثتنا هنا سويًا وجهًا لوجه. ها هي أيها السيدان مبادئ الحياة: فشلي يجعلني أقوى وأكثر صمودًا، ونجاحي يجعلني رابط الجأش أكثر ولا أؤذي أحدًا بأي حال. لست متطفلًا، ولا أدس أنفي فيما لا يعينني، وأفتخر بذلك. لا أجيد الدبلوماسية. يقولون أيضًا أيها السادة: إن الطائر يتجه بنفسه إلى صياده. تلك حقيقة، وأنا على استعداد أن أتفق معها، ولكن من منا الصياد ومن الطائر؟ تلك مسألة أخرى أيها السيدان.

صمت السيد جوليا دكين، وكان صمتًا ذا مغزى. رسم على وجهه ملامح جادة صارمة، ورفع حاجبيه ومطّ شفتيه إلى أقصى درجة، وانحنى أمام الشابين، ثم انصرف تاركًا إياهما في حيرةٍ وذهولٍ.

سأله الخادم بيتروشكا بلهجة جافة، وقد بدا عليه الملل من التنقل هنا وهناك في هذا الطقس قارس البرودة:

- إلى أين نتحرك يا سيدي؟

لم يُجِبْه، فكَّرَ سؤاله مرة أخرى وهو ينظر إليه، ولمح في عينيه تلك النظرة الصاعقة المخيفة، التي تكررت مرتين هذا الصباح، وها هو يرمقه بها مرة ثالثة وهو يهبط درجات السلم.

- إلى جسر ازمايلوفسكي.

صاح بيتروشكا في السائق:

- هيا. إلى جسر ازمايلوفسكي.

- فكَّرَ جوليا دكين في نفسه «العشاء عندهم يبدأ في الخامسة. أليس الوقت مبكرًا الآن؟ على كل حال أستطيع الذهاب مبكرًا، فهو عشاء عائلي. نعم.. أستطيع الذهاب دون رسميات أو تكلف. لماذا يحرم عليّ الذهاب؟ حتى صاحبنا الدب يقول إن كل شيء يجب أن يكون بدون كلفة.. ولذا أنا أيضًا سأكون.»

هكذا فكَّرَ السيد جوليا دكين، ورغم ذلك ازداد قلقه واضطرابه. كان من الواضح أنه يؤهل نفسه للتعرض لموقف حرج أو ما هو أكثر. أخذ يهمس في نفسه ويلوح بيده اليمنى وينظر من حين إلى آخر من نافذة العربة، حتى إن من ينظر إلى وجهه حينها لا يمكن أن يصدق أنه في طريقه لتناول الطعام بشراهة، ناهيك عن نهبه إلى جَمْعِ عائلي دون كلفة و«صون فاصون» كما يقول أصحاب الأصول من الناس.

وصل أخيرًا إلى جسر ازمايلوفسكي، وأشار للحوذي إلى أحد المباني، واجتازت العربة بوابات المبنى بصوتٍ راعٍ، وتوقفت عند سلم المدخل الأيمن من المبنى. ولمحَ بنظره وجه

أنثى يطل من النافذة، فأرسل إليها قُبلةً بيده. والحقُّ أنَّه لم يكن يعقل ما يفعل، وكان يبدو وكأنه لا هو حيٌّ ولا هو ميت. هبط من العربة شاحب الوجه حائرًا مضطربًا، وولج إلى مدخل المنزل، ونزع قبعته بشكلٍ لا إرادي، وشعر برعشة خفيفة في ركبتيه، وانطلق بسرعة يصعد السلم.

سأل الخادم الذي فتح له الباب:

- هل السيد ألسوفي إيفانوفيتش هنا؟

- نعم يا سيدي.. أقصد لا يا سيدي. هو ليس بالبيت.

- كيف ذلك؟ ما هذا الذي تقوله يا عزيزي؟ أنا مدعو على العشاء أيها الرجل. كما أنك تعرفني جيدًا.

- طبعًا يا سيدي، ولكني أمرت ألا أدعك تدخل يا سيدي.

- أنت... أنت بالتأكيد مخطئ أيها الرجل. هذا أنا. أنا أيها الرجل العزيز. أنا مدعو على العشاء.

قال السيد جوليادين هذه الكلمات وهو يلقي بمعطفه، ويظهر عزمًا واضحًا على الدخول.

- معذرة يا سيدي. غير مسموح يا سيدي. أمرت ألا أسمح لكم. أمرت أن أمنعكم من الدخول. هذا ما أمرت به.

شحب السيد جوليادين. وفي هذه اللحظة فتح باب إحدى الغرف الداخلية للشقة وخرج منها الخادم المُسنّ جيراسيميتش الذي يعمل في منزل ألسوفي إيفانوفيتش.

- هذا هو يا يمليان جيراسيموفيتش. يريد أن يدخل. وأنا...

- أنت غبي يا ألكسي. عد إلى العمل، وابعث إليّ بذلك الوغد سيمينيتش.

ثم قال بلهجة مهذبة وصارمة في الوقت نفسه:

- ممنوع يا سيدي. مستحيل أن تدخل. سيدي طلب عدم السماح لكم ولا يستطيع أن يستقبلكم.

ردّ السيد جوليا دكين بتردد:

- هل هذا ما قالوه؟ أنهم لا يرغبون في استقبالي؟ عذرًا يا جيراسيميتش، ولكن ما السبب في ذلك؟

- مستحيل تمامًا يا سيدي. أبلغتهم بوصولكم، فقالوا أن أطلب منكم المعذرة، وأنهم لا يستطيعون استقبالكم يا سيدي.

- ولكن ما السبب؟ كيف ذلك؟ كيف؟

- اسمحوا لي أن أغلق الباب؟ اسمحوا لي.

- ولكن كيف ذلك؟ هذا غير ممكن... أبلغهم... كيف ذلك؟ أنا مدعو على العشاء...

- اسمحوا لي. اسمحوا لي.

- حسنًا. تلك مسألة أخرى أن يطلب أن أعذره. ورغم ذلك يا جيراسيميتش، كيف يعقل هذا يا جيراسيميتش؟ كيف يا جيراسيميتش؟

- اسمحوا لي. اسمحوا لي.

ردّ جيراسيميتش ذلك وهو يحاول إبعاد السيد جوليا دكين بيده عن الباب للسماح لسيدين بالدخول، وكانا قد وصلا للتو إلى مدخل الشقة.

كان الضيفان هما أندريه فيليبوفيتش وابن أخيه فلاديمير سيميونوفيتش. نظر كلاهما بحيرة إلى السيد جوليا دكين. أراد أندريه فيليبوفيتش أن يقول شيئًا إلا أن السيد جوليا دكين كان قد عزم على أمرٍ ما. فقد غادر مدخل شقة ألسوفي ايفانوفيتش مطرقةً عينيه إلى أسفل، محمّر الوجه من فرط الخجل، أشعث الوجه وشديد الحزن.

دمدم وهو يجتاز عتبة الشقة إلى الدرج:

- سأمرُّ فيما بعد يا جيراسيميتش لأشرح الأمر، وآمل أن يتم ذلك في الوقت المناسب. سيوضح كل شيء في حينه.

وإذا بالسيد أندريه فيليبوفيتش يهرول نحو ياكوف بيتروفيتش منادياً:

- ياكوف بيتروفيتش. ياكوف بيتروفيتش..

كان صاحبنا قد وصل إلى الطابق الأول، فالتفت من فوره إلى أندريه فيليبوفيتش وسأله بلهجة حادة:

- ماذا تريد يا أندريه فيليبوفيتش؟

- ماذا بك يا ياكوف بيتروفيتش؟ ما الذي جرى؟

- لا شيء يا أندريه فيليبوفيتش. لقد قررت الانصراف. هذا شأني أنا. تلك حياتي الخاصة يا أندريه فيليبوفيتش.

- ماذا تقول؟

- أقول يا أندريه فيليبوفيتش إنها حياتي الخاصة، وأعتقد أنه ليس من حق أحدٍ أياً كان أن يلومني على سلوكي وتصرفاتي عندما يتعلق الأمر بعلاقاتي الرسمية مع الآخرين.

- كيف؟ علاقات رسمية؟ ماذا بك أيها السيد؟

- لا شيء.. يا أندريه فيليبوفيتش. لا شيء على الإطلاق. فتاة وقحة. هذا كل ما في الأمر.

- ماذا؟ كيف؟

أصيب أندريه فيليبوفيتش بالحيرة والذهول حتى إنه أصبح لا يدري ماذا يقول. كان السيد جوليا دكين يحادثه وهو يقف في الأسفل في الطابق الأدنى يرمقه بنظراتٍ فاحصة تكاد أن تقفز إلى أعماقه. وعندما لاحظ أن محدّثه قد اضطرب تقدّم نحوه خطوةً لا إرادياً، فترجّع الأخير خطوةً للخلف. فتقدّم السيد جوليا دكين أكثر، فنظر أندريه فيليبوفيتش حوله بقلقٍ وتوترٍ شديدين. وفجأة هروا السيد جوليا دكين يلتهم الدرج صعوداً، فقفز أندريه فيليبوفيتش أسرع منه وولج إلى الشقة وأغلق الباب خلفه.

بقي السيد جوليا دكين وحيداً. وأظلمت الدنيا في عينيه. أصيب بحيرة تامة ولم يدري ماذا يفعل، وظلّ هكذا واقفاً متسماً مذهولاً يتذكّر ما مرّ به مؤخراً من ظروف غريبة تستعصي على الفهم. أخذ يدمدم في نفسه، همس في نفسه وهو يحاول بجهد جهيد أن يبتسم:

وفي الوقت نفسه، سمع على الدرج في الأسفل صوت خطوات تقترب. لعلهم ضيوف جدد للسيد ألسوفي إيفانوفيتش. أفاق السيد جوليا دكين من ذهوله بعض الشيء، وأسرع يرفع ياقة معطفه لتغطية أكبر جزء من وجهه. ثم هبط الدّرج سريعاً وكاد يتعثّر عدة مرات. وفي الأسفل شعر ببعض الوهن، ونوع من الخدر وقد بلغ منه الاضطراب مبلغه. وحين وصل إلى الدرج الخارجي للمنزل لم يستطع الانتظار حتى وصول العربة، بل هروا تجاهها مجتازاً الفناء الموحد. وعند وصوله إلى العربة، وفي أثناء استعداده للدخول والجلوس في مكانه بها، شعر برغبة قوية أن تنشق الأرض وتبتلعه، أو أن يختفي مع عربته في جحر للفئران حتى لا يُعثّر عليه أبداً. بدا له أن كل الحاضرين في منزل ألسوفي إيفانوفيتش ينظرون إليه الآن من جميع نواحي المنزل. كان يدرك أنه سيموت من فوره إذا ما نظر خلفه.

صاح في بيتروشكا غاضبًا وهو يساعده في ركوب العربة:

- ما الذي يُضحكك أيها الغبي؟

- وما الذي يمكن أن يُضحك؟ لست أضحك. إلى أين الآن؟

- إلى المنزل. هيّا انطلق.

صاح بيتروشكا وهو يستقر جالسًا في مؤخرة العربة.

- إلى المنزل.

- فكّر السيد جولياديكين في نفسه «وجه غراب فعلاً!» في هذه الأثناء كانت العربة قد تحركت بعيدًا، وقطعت جسر ازمايلوفسكي. وفجأة قام صاحبنا بشد اللجام بقوة، وأمر السائق بالعودة. فأدار السائق الحصانين ووصل خلال دقيقتين إلى فناء منزل السوفي إيفانوفيتش. وصاح السيد جولياديكين: «قف أيها الغبي. لا داعي. اخرج من الفناء».

بدا وكأن السائق كان يتوقع ذلك، فلم يتبرّم، بل قام بدوره في الفناء دون توقّف، ثم خرج مرة أخرى إلى الشارع.

لم يقرّر السيد جولياديكين العودة إلى منزله. وبعد أن اجتازت العربة جسر جيرينوفسكي، أمر السائق بالعروج إلى أحد الأزقة والتوقف قرب حانة فقيرة. وغادر العربة ودفع حساب السائق، وبهذا تحرّر من طاقمه المرافق أخيرًا، وأمر بيتروشكا بالعودة إلى المنزل وانتظاره حتى يعود. أما هو فدخل الحانة واختار لنفسه مكانًا، وطلب العشاء. شعر بحزنٍ وغمٍ شديدين، وكانت الأفكار المضطربة تموج بعقله. أخذ يسير جيئةً وذهابًا بعض الوقت وهو في قلقه هذا، ثم جلس أخيرًا ويدها تغطيان وجهه، وشرع يستجمع كلّ قواه للتفكير في محاولة إيجاد حل ومخرج لوضعه الراهن.

## الفصل الرابع

اليوم هو يوم احتفاليّ كبيرٌ. هو عيد ميلاد كلارا السوفيفنا، الابنة الوحيدة لمستشار الدولة بريديي، الذي كان في وقتٍ ما يرعى السيد جوليا دكين ويحميه. وشهد اليوم إقامة حفل عشاء فخم لم يشهد له مثيل في دوائر كبار الموظفين منذ زمن، سواء في حي جسر ازمايلوفسكي، أو حتى في النواحي القريبة. كانت حفلة العشاء أشبه بولائم الملك البابلي بيلشاصر، بما فيها من بذخ وإسراف ولياقة في التعامل مع الضيوف. كانت الوليمة عامرة بكل صنوف الشمبانيا والمحار والفاكهة القادمة من محلات يليسييف وميليوتين الشهيرة. وكان الصالون مزدحمًا بجمعٍ غفيرٍ من كبار وعليّة القوم، يضم كبار رجال الدولة. واختتم هذا اليوم الاحتفالي الكبير بحفلٍ راقصٍ صغيرٍ وعائلي، لكنه فريد في ذوقه الراقى والوقور.

أعلم تمامًا أن مثل هذه الحفلات الراقصة تحدث ولكن نادرًا. إنها تبدو أقرب إلى الأعياد الأسرية منها إلى الحفلات التقليدية. ولا يمكن أن تُقام سوى في منازل عليّة القوم من أمثال مستشار الدولة بريديي. ومع ذلك فالكثير من مستشاري الدولة ليس بمقدورهم تنظيم مثل هذه الحفلات. آه.. لو قدّر لي أن أكون شاعرًا! ولو على الأقل مثل هوميروس أو بوشكين - أقل من ذلك لن أجرؤ على المجازفة - كنت لأصف لكم أيها القراء بقلم بديع وصور زاهية ملونة هذا اليوم الاحتفالي الكبير.

كنت لأبدأ قصيدتي بوصف وليمة العشاء... وكنت لأركز كثيرًا على تلك اللحظة الفريدة والمدهشة عندما تم رفع أول كأس نخب ملكة الحفل. كنت لأصوّر لكم أولاً كيف تجمّد المدعوون في صمتٍ ترقبًا لما سيحدث. كان صمتهم أقرب ببلاغة خطب ديموستيني منه إلى الصمت. كنت لأصف لكم بعدها السيد أندريه فيلييوفيتش، كونه أكبر الضيوف سنًا، وله الحق في سبق، وصدرة الذي تزيّنه الأوسمة بنفّس القدر الذي يضيف له الشيب جمالًا ووقارًا. كان هو أول من رفع النخب، ونطق بكلمات التمنيات السعيدة، وأمسك بكأس

النبيد، ورفعته عاليًا فوق رأسه. أما النبيد فهو من النوع النادر، أحضر خصيصًا من مملكة بعيدة لكي يضيفي المتعة واللذة على هذه اللحظات. كان النبيد أشبه برحيق إلهي من خمر للبشر. كنت لأصوّر لكم الضيوف، ووالدي ملكة الحفل السعداء، الذين رفعوا كؤوسهم هم أيضًا بعد أندريه فيليبوفيتش وأعينهم وأذانهم مثبتة عليه.

كنت لأريكم كيف بدا صاحب الصيت الواسع أندريه فيليبوفيتش متأثرًا بشدة وهو يذرف دموعه سقطت في كأسه وهو يهدي التهاني والأمنيات إلى ملكة الحفل، ويدعو الضيوف في النهاية إلى أن يشربوا في نخبها.

لكنني أعترف، أعترف تمامًا بأنني لم أستطع تصوير حجم الفرح والسعادة التي غمرت الجميع عند ظهور الملكة كلارا ألسوفيفنا بنفسها. بدت وكأنها تزهو بوجهها كزهرة في الربيع شديدة الحمرة من فرط الخجل، وربما من فرط النعيم. ارتمت الملكة في أحضان أمها، وقد بدا أن نفسها قد فاضت بفعل الموقف. كنت لأعجز عن تصوير ملامح الأم الحنون الرؤوم التي ذرفت الدمع سريعًا، وكيف انتحب الأب ألسوفي إيفانوفيتش، وهو الموظف الكبير الوقور. كان هذا الرجل قد فقد ساقيه أثناء الخدمة، ولكنَّ القدر كافأه بوفرة في المال والثروة ومنزل جميل وابنة رائعة. كان الرجل يبكي كطفل وهو يقول «إن صاحب السعادة رجل كريم وصاحب عطايا جواد». لا. لم أكن لأقدر بأي حالٍ من الأحوال على وصف ذلك لكم، والانفعال الذي تملك قلوب الحاضرين في تلك اللحظة. حتى إن أحد الضيوف وهو موظف شاب (لكنَّ هيئته أقرب إلى هيئة مستشار كبير منها إلى موظف صغير في السجلات) لم يستطع تمالك نفسه، فبكى هو أيضًا وهو ينصت إلى كلمات أندريه فيليبوفيتش باهتمام.

لم تكن هيئة أندريه فيليبوفيتش في تلك اللحظة المهيبة تنبئ بكونه مستشار دولة أو رئيس قسم في إحدى الإدارات. بدا مظهره على نحوٍ آخر ليس بمقدوري وصفه، ولكنه بالتأكيد ليس مظهر مستشار. بدا وكأنه أعلى شأنًا، كان يحلُّق فوق الجميع..

وفي النهاية.. لو كنتُ أمِلكِ ملكة حُسن التعبير والأسلوب الرفيع لكانَ بمقدوري تصوير تلك اللحظات الرائعة التي لا تُنسى والتي بدت وكأنها تجسد حقيقة أن الفضيلة تسمو على الرذيلة والغفلة والحسد والسلوك المعيب. لن أنطق بشيءٍ. سأوثر الصمت. أفضل أن أسكت تمامًا. سيكون ذلك أفضل كثيرًا من البلاغة. سأتحَدَّث فقط عن ذاك الشاب السعيد الذي يبلغ السادسة والعشرين من العمر، وأعني به فلاديمير سيمينوفيتش، ابن أخ أندريه فيليبوفيتش، الذي وقف بدوره واقترح نخبًا جديدًا.

تعلَّقت به نظرات الأبوين الدامعة، وعينا عمه أندريه فيليبوفيتش الفخورة به، وعينا الفتاة ملكة الحفل الخجولة، وأعين الحضور التي تشع من أغلبها مشاعر الحماسة والإثارة، وأخيرًا أعين زملائه التي لم تخلُ نظراتهم من غيرة وحسد. أردت أن أصمت، ولكن هذا الشاب يجبرني على الحديث عنه؛ فلهذه الكثير مما يجذب إليه الأنظار ويفري بالحديث. كان أقرب إلى رجلٍ كبيرٍ في السن منه إلى شابٍ، وأعني هنا الجانب الإيجابي بالطبع. كانت طريقته في الحديث تناسب شكله تمامًا، وكل شيء فيه من لباسه ورُتبتِه، كان في تلك اللحظة الاحتفالية المهيبة وكأنه يؤكد إلى أي مدى يمكن أن تصنع الفضيلة من الإنسان شخصًا سعيدًا. لن أصف كيف قام أنطون أنطونوفيتش سيتوتشكين مدير مكتب إحدى الإدارات وزميل أندريه فيليبوفيتش في العمل، وصديق العائلة القديم وهو في الوقت نفسه الأب الروحي للفتاة كلارا السوفيفنا، باقتراح نخب ثالث. وهو رجل مُسنٌ ذو وجه يشبه قمرًا رماديًا. قام بالغناء أثناء النخب مثل ديك ينشد أبياتًا مضحكة مقفاة. تسبَّب هذا التجاوز لحدود اللياقة من قِبَل الرجل في انفجار الجميع ضحكًا حتى البكاء. كما أنني لن أصف كيف نهضت كلارا السوفيفنا من مقعدها وبإشارة من أبويها، وطبعت قُبلةً على وجه المُسنِّ امتنانًا على ما بثَّه من مرحٍ وبهجة. وحسبي أن أقول إن الضيوف في نهاية الأمر، وبعد هذا العشاء الدسم، شعروا وكأنهم عائلة واحدة، وبمشاعر حميمية وحارةٍ وأخوية غادروا مائدة الطعام. فأما الشيوخ من الرجال، فقد أخذوا يتبادلون أطراف الحديث الودي لفترة قصيرة، واتسم كلامهم بالمودة والصراحة والوقار، ثم توجهوا في وقارٍ شديدٍ إلى الصالون المجاور. وبدون إضاعة أي دقيقة، وبعد أن قسَّموا أنفسهم إلى مجموعاتٍ صغيرة،

جلسوا على موائد القمار الخضراء وكل منهم معتدٌ بنفسه أيما اعتداد. وأما السيدات، فقد بقين في الصالون الكبير وأصبحن فجأةً ودُودَاتٍ للغاية وبشكل نادر الحدوث، وتبادلن الحديث عن مختلف الأشياء. أما صاحب الدار نفسه، السيد عالي المقام الذي فقدَ قدميه في خدمة الحقيقة والإيمان، وتمت مكافأته على النحو الذي ذكرناه آنفًا، فقد أخذ يطوف بين الضيوف على عكازيه وبمساعدة ابنته والشاب فلاديمير سيمينوفيتش، ويتحول وجهه فجأةً إلى الابتسام بلطفٍ؛ فيقرر تنظيم حفل راقص مرتجل دون أن يكتثرت بالنفقات. ولهذا الغرض، أرسل شابًا (هو نفس الشاب الموظف بالسجلات الذي يشبه مستشار الدولة) لإحضار الموسيقيين على وجه السرعة.

وسرعان ما وصل الموسيقيون وبلغ عددهم أحد عشر عازفًا، وبدأ الحفل في تمام الساعة الثامنة والنصف، وكان لحناً لرقصة فرنسية شهيرة. ثم تلتها رقصات مختلفة.. ولستُ في حاجة للقول أن قلبي ليس بارعًا في الوصف ولا أملك من الموهبة ما يكفي لكي أرسم صورة أمينة لهذه الحفلة الراقصة المرتجلة، والتي وهبها ربُّ المنزل لضيوفه كرمًا ولطفًا منه. وأنى لي، أنا الكاتب فقير الموهبة، الذي يقص حكايات السيد جوليا دكين - وهي حكايات غريبة، اعترف بذلك - أنى لي أن أصف ذلك المزيج الرائع من الجمال والوقار والمرح والرقي والأناقة الذي ساد الحفل. كيف لي، أنا الكاتب المتواضع، أن أصف الحيل والضحكات التي تقوم بها زوجاتُ كبار الموظفين اللائي يبدین وكأنهن من الأساطير القديمة. أقول ذلك مدحًا لهن. كيف لي أن أصف أجسادهن الرائعة وأكتافهن ووجناتهن ذات اللون الوردی الفاتح، وقوامهن الممشوق مثل طواحين الهواء وأقدامهن النشطة النحيقة.. كيف لي، أنا الكاتب المسكين، أن أصف الفرسان اللامعين، وهؤلاء الموظفين الرسميين والشباب الوقور المبهر والرائع!

كان الجميع من الشباب والكهول الذين يقضون الوقت بين كل رقصةٍ وأخرى في التدخين، وكذا الذين لا يدخنون.. كلهم يحملون ألقابًا شهيرةً وأسماء. كلهم متأنقون لبقون ويشعرون جيدًا بقيمتهم ومنزلتهم العظيمة. هؤلاء الرجال الذين يتحدثون غالبًا بالفرنسية مع النساء، وإذا اضطروا للحديث بالروسية، فإنهم يستخدمون أرقَّ العبارات، مع المبالغة في

المجاملات والجمل المعبّرة والبليغة. فقط في غرفة التدخين، هناك فقط كان هؤلاء يسمحون لأنفسهم ببعض الخروج عن مألوف الكلام الراقي الأنيق، وأن يقول أحدهم للآخر مثلاً: «يقولون إنك وغدّ يا بيتكا، لقد قطعت رقصة البولكا بلطف» أو «أنت وغدّ يا فاسيا عذبت الفتاة بلا رحمة».

ولكن، وكما شرفت بالإشارة أنّك أيها القارئ، قلّمي لا يطاوعني ولا يسعفني، ولذا فأنا أفضل الصمت أو بالأحرى أن أعود إلى صاحبنا السيد جوليا دكين البطل الحقيقي والوحيد لهذه القصة الصادقة.

في واقع الأمر، بدا جوليا دكين في وضع غريب للغاية، إن لم يكن أسوأ من ذلك. هو أيضاً هنا أيها السادة وإن لم يكن في حفلة الرقص، ولكنه تقريباً حاضر هنا. هو - أيها السادة - لا يضر شراً لأحدٍ ولا يريد إهانة أحد وعلى الرغم من كونه يفعل ما يريد من تلقاء نفسه، إلا أنه في هذه اللحظة بدا وكأنه في طريق مسدود. وعلى الرغم من غرابة ذلك، إلا أنه كان يقف في ممر سلم الخدم في منزل ألسوفي إيفانوفيتش. ولكن لا بأس في ذلك، ولا لوم عليه في أنه يقف هناك، فهو من يقرّر ماذا يفعل كما يقول ولم يكن ذلك بنية القيام بأي سوء. لقد قبع أيها السادة في ذلك الركن البارد والمظلم من المبنى، وسط كومة من الملابس القديمة وخزانة ملابس، مما ساعده على الاختباء، وأخذ يتابع ما يدور بالداخل كطرفي محايد. لا يقوم بشيء سوى بالمراقبة فقط. في مقدوره أيضاً أيها السادة أن يدخل الشقة.. ولماذا لا يكون في وسعه الدخول؟ ليس عليه سوى التقدّم خطوة واحدة وسيتمكن من الدخول بكل بساطة. جلس هناك لأكثر من ثلاث ساعات في طقس بارد وسط كومة من الملابس الرثة، وخلف حاجز ينتظر. وحتى يبرر ما يفعل اقتبس جملة قالها الوزير الأول الفرنسي دو فيليل «كل شيء يأتي في أوانه ومن يصبر ينل». وقد قرأ السيد جوليا دكين هذه العبارة في كتاب غير مهمٍّ ودونها، إلا أنها بدت مناسبة تماماً للموقف الذي هو فيه الآن؛ ولذا فقد استدعتها ذاكرته فوراً، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، يجب القول إن أفكاراً وخواطر كثيرة تراود المرء الذي ينتظر الفرج من مأزق دام ثلاث ساعات وفي الظلمة والبرد. وبعد أن اقتبس عبارة الوزير الفرنسي فيليل، تذكر السيد جوليا دكين - ولسبب غير

معروف - الوزير التركي السابق مارتيميريس، وكذا الجميلة لويس سيدة البلاط الملكي، والذين قرأ سير حياتهم في أحد الكتب.. ثم جالت بباله خاطرة جديدة مفادها أن اليسوعيين قد جعلوا مبدأهم الأساسي أن الغاية تبرر الوسيلة طالما يتحقق الهدف المنشود. كانت تلك الخاطرة التاريخية مبعثاً على أن تزداد ثقته في نفسه، حتى إنه قال لنفسه إن هؤلاء اليسوعيين من أولهم إلى آخرهم على درجة كبيرة من الغباء، وأنه يستطيع بسهولة وضعهم في جيبه.. آه.. ليت غرفة البوفيه خالية.. ليتها تفتح لدقيقة واحدة فحسب (وهي الغرفة التي تتصل مباشرة بالممر الذي يختبئ به السيد جولياديكين).. لو حدث ذلك لاجتاز الغرفة رغماً عن الجميع إلى الصالون الكبير، ثم إلى غرفة القمار ومنها إلى القاعة الكبرى حيث الحفل الراقص. سيتمكن من المرور بكل تأكيد من غرفة إلى غرفة، ولن يأبه بأحد، سينسل، ولن يلحظه أحد، وفي الداخل يعرف جيداً ماذا عليه أن يفعل. هكذا أيها السادة كانت خواطر وأفكار السيد جولياديكين بطل حكايتنا الحقيقية، على الرغم من صعوبة تفسير ما يجيش في نفسه في هذه اللحظة على نحو دقيقٍ تمامًا.

في الواقع، كان السيد جولياديكين قد استطاع الوصول إلى سلم الخدم وإلى الممر الذي يفضي إلى الدرج، انطلاقاً من مبدأ «لماذا لا أستطيع التواجد هنا طالما الكل يستطيع؟» لكنه لم يجرؤ على المضي قدماً أكثر من ذلك. هذا أمر آخر.. لم يجرؤ أن يقدم على ذلك.. ليس عن خوفٍ أو جبنٍ، بل لأنه لم يرد ذلك.. لم يرغب في القيام بذلك. فضّل جولياديكين أن يبقى ويراقب خفية.. وها هو الآن يترقب فرصة للتسلل أيضاً خفية. سيبقى كذلك، ينتظر ساعتين ونصف تقريباً. لماذا لا يفعل؟ ولا ينتظر؟ لقد كان الوزير الفرنسي دو فيليل نفسه يتكبد عناء الانتظار. فكر جولياديكين، ثم قال في نفسه: «وما شأن فيليل بما أفعل الآن؟ ما علاقته بالأمر؟ كيف لي أن أتخذ قراراً وأنسل إلى الداخل؟ ما العمل؟ أم أنك يا جولياديكين تجيد الحديث وتجنب عن الفعل، كما هو الحال مع ممثلي المسرح من الكومبارس، الذين لا يفعلون ولا يقولون شيئاً».

قال جوليا دكين هذه الجملة في نفسه وهو يقرص خده المتجمد بيده المتصلبة بفعل البرد. ثم أردف «ما أنت سوى شخص مسكين يا جوليا دكا. أنت اسم على مسمى (\*\*). لك نصيب كبير من اسمك».

ويجب القول إن تدليل جوليا دكين لنفسه هذا، لم يكن لهدف أو لغرض معين. وهكذا تقدم إلى الأمام حتى حانت اللحظة المناسبة، ولاحظ من خلال نافذة صغيرة أن غرفة الطعام أصبحت خاوية، ولم يبقَ فيها أحد. تقدّم خطوتين وإذا به يقف أمام باب الغرفة مباشرة ويهم بفتح الباب الموصل. أخذ يتساءل مترددًا «أدخل أم لا؟» نعم أم لا؟ سأدخل.. لم لا أفعل ذلك؟ الشجاع لا يخشى المضي في أي طريق». بثت هذه الكلمات الأمل في نفسه، ولكن لسبب ما وفجأة، توارى مرة أخرى وتراجع للخلف قائلاً في نفسه «لا.. لا يجب أن أفعل ذلك. كيف يمكن لشخص ما الدخول هكذا؟ ها هم أناس يدخلون الغرفة. لماذا جئنا عندما كانت خاوية؟ يجب أن أدخل مهما كلفني الأمر. لا. لا يمكن فعل ذلك في ظل شخصية مترددة ضعيفة مثلي. يا لها من دناءة. جئنا كدجاجة. لا بُدَّ وأنه الهلع والرعب والفرع قد تملكوا مني. لا ريب في ذلك. أعرفك جبان. أعرف الخوف والجبن فيك. لا شك في ذلك. ليس عليك إلا أن تبقى هكذا حيث أنت ككتلة من الخشب جامدة وبلا حراك. لو كنت بالمنزل الآن لرغبت في الحصول على كوب من الشاي الساخن. سيكون من الرائع أن أحصل على كوب من الشاي. ولو تأخرت سيستيقظ بيتروشكا متدمرًا. أليس من الأفضل أن أعود إلى المنزل الآن؟ وليذهب كل شيء عدا ذلك إلى الجحيم. سأعود إلى منزلي وحسب».

وبعد أن قرر إنهاء الأمر على هذا النحو، وثب جوليا دكين فجأة إلى الأمام، كأن أحدهم حرك زنبركًا أو نابضًا في داخله فدفعه قدمًا، فإذا هو في خطوتين يقف في منتصف غرفة البوفية تمامًا. وبعد أن خلع معطفه سريعًا ونزع عنه قبعته، وأخفاهما في زاوية الغرفة، ثم أصلح من هيئته ومسح وجهه وشعره ونظر حوله أكثر من مرة ثم... ثم تقدّم إلى غرفة الشاي ومنها إلى الغرفة التالية، وانسل خفية بين الضيوف المنشغلين بلعب الورق.. ثم..

وهنا بدا وكأن السيد جوليا دكين قد نسي كل شيء، ولا يدري ما يحيط به، وها هو يقتحم قاعة الرقص كالصاعقة.

تصادف أن الرقص كان متوقفًا في تلك اللحظة. كانت السيدات يتجولن في تلك اللحظة في القاعة مختلات بأنفسهن، وتجمع الرجال في دوائر ومنهم من كان يتجول هو أيضًا بصحبة سيدة حسناء. إلا أن السيد جوليا دكين لم يلحظ من بين كل هؤلاء سوى كلارا ألسوفيفنا وبجوارها أندريه فيليبوفيتش. كما لاحظ أيضًا السيد فلاديمير سيمينوفيتش، واثنين أو ثلاثة من الضباط. ثم لاحظ شابين أو ثلاثة مظهرهم يثير الاهتمام، أو كما يقال، وجوههم تبعث على الأمل في المستقبل.. رأى أناسًا آخرين وربما لم يرَ أحدًا. أو لا.. على الأرجح لم يرَ أحدًا، ولم ينظر إلى أحد.. كان يتحرك بفعل قوة الدفع تلك التي دفعته دفعًا إلى داخل قاعة حفلة الرقص، والتي لم يكن مدعوا إليها. ثم دفعته قدمًا وقدمًا.. فها هو يمر بجوار أحد المستشارين، بل إنه داس على قدمه، وقبّلها بالمناسبة، سحق أطراف ثوب امرأة محترمة ومزقه، ثم صدم خادماً يحمل صينية، ودفع شخصًا آخر ولم يلحظ كل ذلك أو بالأحرى، لاحظ كل شيء ولكنه لم ينظر إلى أيٍّ منهم، بل مضى قدمًا إلى الأمام، حتى وجد نفسه أمام كلارا ألسوفيفنا نفسها.

وبلا شك، كان يود أن تنشق الأرض وتبتلعه في تلك اللحظة، وكان سيتقبل ذلك المصير بكل سعادة، إلا أنه لم يكن هناك بد من إنجاز ما بدأه. فما وقع قد وقع.

ماذا يجب على أن أفعل؟ «الصمود عند الفشل، والمضي قدمًا عند النجاح». لم يكن السيد جوليا دكين بالطبع شخصًا فضوليًا شرييرًا، كما لم يكن من الصنف الذي يجيد النفاق.. هذا ما كان. ولكن المشكلة هي أن هؤلاء اليسوعيين يدسون أنوفهم.. وهو ليس في حال، أو على استعداد للاستماع إليهم. وكل ما كان حوله من جلبة وضوضاء، وكل الضحكات والكلمات التي تموج حوله توقفت وخفت فجأة، وكان أحدهم أشار إلى الجميع بذلك. صمت الجميع، ورويدًا ورويدًا تحلقوا حول السيد جوليا دكين.

أما السيد جوليا دكين، فلم يكن يسمع أو يرى شيئاً من ذلك.. لم يكن ينظر إليهم.. لم يكن ليفعل ذلك مهما كلفه الأمر. أطارق بنظره إلى الأسفل، ووقف متسماً على قدميه، وقد أقسم يميناً أن يطلق النار على نفسه.. أما الآن، فقد قرّر أن يمضي قدماً فيما عزم عليه. وبعد أن أقسم على ذلك، قال السيد جوليا دكين لنفسه «ليكن ما يكون» وقد دهش هو نفسه عندما بدأ يتحدث للجميع فجأة.

بدأ السيد جوليا دكين بتقديم التهاني والتمنيات الكريمة لصاحب الدار. وقد وفق في التعبير عن التهاني، وما إن جاء دور التمنيات تعثر فجأة وشعر أنه إذا لم يكمل فسوف يفسد كل شيء. وهذا ما حدث. فقد تعثر وارتبك وتوقف تماماً عن الكلام.. توقف عن الكلام واحمرّ وجهه خجلاً ففقد اتزانه. فقد اتزانه، نعم، ثم رفع عينيه. رفع عينيه ثم طاف بها في أركان القاعة، طاف بها في أركان القاعة طويلاً محدقاً في الحضور.. ثم وقف ساكناً بلا حراك، وكأنه قد غاب عن الوعي. كان الجميع من حوله في حالة صمت، وكأنهم ينتظرون نهاية المشهد، وهناك من كان منهم يضحك في مؤخرة القاعة، ومنهم من كان يهمس بصوت واضح بالقرب منه. نظر السيد جوليا دكين إلى أندريه فيليبوفيتش نظرة ذليلة خاضعة وأجابه الأخير بنظرة كادت أن تقتله لولا أنه كان أقرب إلى الموت بالفعل في تلك اللحظة. واستمر الصمت مسيطراً على المكان.

قال السيد جوليا دكين بصوت يكاد لا يسمع وعلى وجهه ارتسمت ملامح إنسان شبه ميت:

- كل ما حدث مرده إلى ظروف الخاصة وحياتي الخاصة يا أندريه فيليبوفيتش. لم يكن ما حدث أمر رسمي يا أندريه فيليبوفيتش...

عاجله أندريه فيليبوفيتش بصوتٍ خافتٍ وهو في ذروة السخط والغضب:

- يجب أن تخجل من نفسك يا رجل. اخجل من نفسك.

قال هذه الكلمات ثم اصطحب كلارا ألسوفيفنا في يده، وابتعد عن السيد جوليا دكين.

تمتم السيد جوليا دكين في نفسه وهو ينظر حوالبه بعينيه البائسة المغتمة التائهة محاولاً أن يبحث بين الحضور الكثيف عن شخص يعرفه من وسطه الاجتماعي:

- ليس على ذلك. ليس علي أن أخجل. مما أستحي يا أندريه فيليبوفيتش؟

ثم أردف يهمس وهو يحاول التحرك من مكانه رويداً رويداً للخروج من هذا الحشد:

- حسناً. لا شيء. لا شيء أبداً أيها السادة. حسناً. ماذا بكم؟ يمكن أن يحدث ذلك لأي شخص.

أفسحوا له الطريق فانسلم من بين صفيين من الضيوف الفضوليين والذاهلين في الوقت نفسه. كان قدره هو من يقوده. شعر السيد جوليا دكين نفسه بذلك. أن قدره يقوده. أدرك ذلك تماماً. كان على استعدادٍ لدفع أعلى ثمن ممكنٍ في سبيل التواجد الآن في الركن الصغير المظلم على سلم الخدم حيث كان قبل قليل، ودون أن يضطر إلى خرق قواعد اللياقة والأدب والوقار. ولكن، ونظراً لأن ذلك أصبح مستحيلاً الآن، فقد حاول العثور على ركن هادئ في المنزل والوقوف بعيداً في تواضع ووقار دون أن يزعج أو يلفت الانتباه لحضوره. وحينها ربما يحظى بحسن المعاملة من قبل الضيوف ورب المنزل.

إلا أن السيد جوليا دكين أحس في تلك اللحظة بدوار وأن قواه تخور ويكاد يسقط. وأخيراً استطاع الوصول إلى أحد أركان القاعة ومكث هناك كشخص غريب غير مبالٍ بما يحدث حوله، ويستند بيديه إلى كرسيين حتى أصبحتا ملكه تماماً لا يجلس عليهما أحد. وقد حاول جاهداً أن يلقي نظرة فاحصة على أصدقاء السوفي إيفانوفيتش القريبين منه. كان أقربهم ضابط فارغ القامة، شديد البنية، جميل الطلعة، حتى إن السيد جوليا دكين شعر أنه حشرة صغيرة بالمقارنة به.

- إن هذين الكرسيين محجوزان سيدي الملازم. أحدهما للسيدة كلارا السوفي فنا والثاني للأميرة تشيفتشيناوفا التي ترقص الآن. وأنا يا سيدي الملازم أحجزهما لهما.

هكذا تمتم السيد جوليا دكين بلهجة ونظرة ذليلة إلى السيد الملازم. لم يأبه به السيد الملازم، بل ابتسم ابتسامة قاتلة والتفت في صمت. وبعد أن تلقى السيد جوليا دكين هذه الصفة، مضى يجرب حظه مرة ثانية، وفي مكانٍ آخر واقترب من موظف كبير يقف بمفرده وعلى صدره وسام رفيع. إلا أن الأخير رد عليه بنظرة قاسية باردة لدرجة أن السيد جوليا دكين شعر وكأن أحدهم ألقى عليه سطل ماء بارد. صمت السيد جوليا دكين تمامًا. وقرّر أنه من الأفضل أن يصمت وألا ينطق بأي كلمة بعد الآن، وأن يبدو وكأنه واحد من سائر الناس ومثل أي شخص من الحضور، وأنه أيضًا مدعو كسائر المدعوين، وأن مكانته الاجتماعية لا تقل عنهم بأي حال من الأحوال؛ ولذا فقد أخذ ينظر من حينٍ إلى آخر إلى أزرار كُم سترته، ثم رفع عينيه وأخذ يحدق بسيد مظهره في غاية الاحترام والوقار.

قال في نفسه: «هذا السيد يضع على رأسه باروكة. ولو قمنا بإزالتها سيظهر رأسه العاري الأصلع. نعم، صلعة ملساء تُشبه ملمس يدي تمامًا» وما كاد السيد جوليا دكين يصل إلى هذا الكشف العظيم، حتى تذكّر الأمراء العرب الذين إذا رفعوا العمامة الخضراء التي يرتدونها اقتداءً بالنبي محمد، حتى تظهر تحتها رؤوسهم ملساء عارية تمامًا.

ثم أخذت الأفكار تتصارع - على ما يبدو - في خاطره، ولسببٍ ما، تذكر الأحذية التركية ولاحظ أن السيد أندريه فيليبوفيتش كان ينتعل حذاءً أقرب للأحذية التركية منه إلى الروسية.

كان من الواضح أن السيد جوليا دكين قد أخذ يألف ويعتاد على وضعه الجديد رويدًا رويدًا. وجاءته فكرة «ماذا إذا انفصلت هذه النجفة من مكانها وسقطت على الحضور. ليتها تفعل. كنت لأهرع تجاه كلارا ألسوفيفنا لأنقذها. وبعد أن أنجح في ذلك سأقول لها: «لا تنزعجي يا سيدتي. لا بأس يا سيدتي. أنا من أنقذك. ثم...».

وهنا التفت السيد جوليا دكين حوله وكأنه يبحث عن كلارا ألسوفيفنا، ولكنه رأى بدلًا منها جيراسيميتش مدير منزل ألسوفي ايفانوفيتش. اقترب جيراسيميتش نحوه بقلقي ودون أن يخرق الرسميات. ارتعد السيد جوليا دكين وتجعّد وجهه بسبب ما انتابه من إحساس

غامض مزعج. بشكل آلي أخذ ينظر حوله، وتمنى لو يستطيع الانسلاخ من الغرفة فوراً وبأي طريقة. باختصار.. أن يتلاشى بحيث لا يَلْحَظُه أحدٌ من الحضور.. ولكن كان الأوان قد فات. فقبل أن يتخذ قراره هذا كان جيراسيميتش يقف أمامه بالفعل.

قال صاحبنا لجيراسيميتش مبتسماً:

- هل ترى يا جيراسيميتش؟ اذهب بسرعة واطلب من الخدم. هل ترى الشمعة التي في الشمعدان الكبير يا جيراسيميتش؟ إنها تكاد تسقط. هل كنت تعرف ذلك؟ اذهب واطلب من الخدم أن يضعوها جيداً. صدّقني ستسقط الآن فعلاً يا جيراسيميتش...

- أية شمعة؟ لا يا سيدي. الشمعة لن تسقط يا سيدي.. أما أنت فهناك من يستدعيك هناك.

- من يرغب في الحديث معي يا جيراسيميتش؟

- في الحقيقة، لا أعرف يا سيدي من بالتحديد. إنه من طرف أحد السادة. سألني هل ياكوف بيتروفيتش جولياكين هنا؟ اطلب منه أن يأتيني لأمرٍ عاجلٍ ومهمٍّ جداً. هذا ما حدث يا سيدي.

- لا يا جيراسيميتش. أنت مخطئ. ليس الأمر على هذا النحو يا جيراسيميتش.

- أشك في ذلك يا سيدي.

- لا يا جيراسيميتش. ليس هناك من شك. لا شك في ذلك مطلقاً. لا أحد يطلب لقائي يا جيراسيميتش. لم يطلبني أحد. أما أنا فسأظل هنا في بيتي، أعني في مكاني يا جيراسيميتش.

أخذ السيد جولياكين نفساً عميقاً ونظرَ حوله. كان ظنه في محله. فقد كانت كل الأعين والأذان مصوّبة إليه. أخذ الحضور من الرجال يتجمعون ويقترّبون منه وكلهم آذان صاغية. فيما ابتعدت السيدات، وهن يهمسن إلى بعضهن البعض. أما ربُّ المنزل فقد بدا على مسافةٍ

من جوليا دكين، وعلى الرغم من ذلك لم يلحظ أحد في القاعة أنه يعلم بما يجري للسيد جوليا دكين أو يشارك في الأمر، فقد تمَّ كلُّ شيءٍ بشكلٍ لبق ودون جلبه، غير أن كل ذلك قد جعل بطل قصتنا يدرك أن لحظة الحسم قد حانت، وأن عليه أن يوجّه ضربته القاصمة إلى أعدائه الآن. كان السيد جوليا دكين قلقًا ومضطربًا. وكمن جاءه الوحي فجأة، بدأ يتحدث إلى جيراسيميتش بصوتٍ مرتجف يشبه صوت كاهن في معبد:

- لا يا صديقي. ما من أحدٍ يطلبني. أنت لا تقول الحقيقة. أخطأت الآن كما أخطأت اليوم صباحًا عندما كنت تحاول إقناعي ب... عندما تجرأت وحاولت إقناعي (وهنا رفع السيد جوليا دكين صوته) بأن السوفي إيفانوفيتش الذي تعهدني بالرعاية منذ الصغر، وكان لي نعم الأب، قد أوصد بابه في وجهي في هذا اليوم المحبب إلى قلبه والعائلي.

جال السيد جوليا دكين بنظره في أنحاء القاعة وهو يشعر بالرضا عن نفسه ولكن، ونظرًا لانفعاله الشديد لم يستطع منع الدموع من أن تسيل على أطراف رموش عينيه. أردف يقول مختتمًا حديثه:

- أعود فأكرّر يا صديقي. أنت مُخطئٌ ولا تقول الحقيقة. لقد أخطأت وارتكبت فعلًا قاسيًا. إن خطأك لا يُغتفر..

كانت لحظة جليلة وموقفًا عظيمًا. شعر جوليا دكين أن الأثر الذي أحدثته كلماته حقيقيًا. وقف السيد جوليا دكين خافضًا رأسه مطرقًا عينيه في انتظار أن يغمره السوفي يافانوفيتش بعطفه ويعانقه عناقًا أبويًا. بدا على الحاضرين التوتر والاضطراب، حتى جيراسيميتش المعروف بالقسوة والصرامة، بدا وكأنه قد اضطرب وتعثر بشكل واضح عندما كان ينطق بكلمة «أشك في ذلك».. وها هي الأوركسترا القاسية التي لا تعرف الرحمة تنطلق فجأة بعزف موسيقى رقصة البولكا.

وهكذا توقّف كل شيء فجأة، وفترت الحماسة والإثارة كلها. انتفض السيد جوليا دكين منزعًا وتراجع جيراسيميتش. تجمع الضيوف بفضول وحماسة وبهجة لمشاهدة راقصي

البولكا. افتتح فلاديمير سيمينوفيتش الرقص بصحبة كلارا ألسوفيفنا، وتبعهما الملازم صاحب الوجه الجميل يراقص الأميرة. أما باقي الحضور فقد وقفوا يصفقون ويمدحون الراقصين على أنغام البولكا. الرقصة الجديدة والعصرية والجميلة، التي تصيب الراقصين بالدوار من فرط روعتها. نسي الحضور السيد جوليا دكين بعض الوقت. وفجأة عاد الحضور إلى اضطرابهم، سادت فوضى شديدة عندما سقطت كلارا ألسوفيفنا وهي لا تكاد تتنفس من التعب وهوت على أحد المقاعد تلهت وقد احمرَّ وجهها، ولهت صدرها بشدة. صمت الأوركسترا. وهرعت كل الأفئدة تطمئن على عروس الحفل الساحرة، وسارع الجميع لتحيتها والثناء عليها وشكرها أن منحهم تلك اللحظات السعيدة بمشاهدتها وهي ترقص. وفجأة وجدت أمامها السيد جوليا دكين. بدا صاحب الوجه غاضبًا ومُرَهَقًا أيما إرهاق، وبالكاد يمشي على قدميه. ولسبب ما ابتسم ومدَّ يده نحوها بتضرُّع. ومن فرط دهشتها، لم تنجح في سحب يدها في الوقت المناسب ووقفت بشكل آلي ملبية دعوة السيد جوليا دكين. تمايل السيد جوليا دكين إلى الأمام مرةً ثم أخرى، ثم رفع ساقه ثم ضرب الأرض بقدمه وهو يترنح فاقدًا توازنه.. كان يريد مراقبة كلارا هو أيضًا.. فصرخت الفتاة وهرع الجميع لتخليصها من يدي السيد جوليا دكين، وفي لحظة كان صاحبنا قد أصبح بعيدًا عن عروس الحفل الفاتنة بمقدار عشر خطوات. وتجمَّع عددٌ من الحضور حوله هو أيضًا، وسمِعَ صراخٌ مرتفعٌ كان لسيدتين عجوزتين كاد أن يدهسهما أثناء اندفاعه للخلف. كان الاضطراب عظيمًا. الجميع كان يتساءل والجميع كان يصرخ والجميع كان يتناقش. صمتت الأوركسترا وتحرك صاحبنا وسط الحشد المحيط، ودمدم في نفسه كالآلة مبتسمًا أحيانًا ولسان حاله يقول: «ولم لا يحق لي؟ يبدو لي أن البولكا رقصة جميلة جديدة خلقت لامتاع النساء.. وإني على استعداد لتجربتها طالما الأمر هكذا.»

ولكن يبدو أن أحدًا لم يحفل أو يطلب موافقة السيد جوليا دكين. شعر صاحبنا فجأة بأن يدًا تمسك بذراعه، وأن يدًا أخرى قد استقرت فوق ظهره، وأن أحدهم يصطحبه بعناية ورفق إلى مكانٍ ما، سرعان ما أدرك أنه باب الشقة. أراد السيد جوليا دكين أن يقول شيئًا أو ربما يفعل شيئًا.. لكن لا... لقد أصبح لا يريد ذلك على الإطلاق. اكتفى بضحكات خفيفة

متقطعة، وفي النهاية، أحسَّ بهم يُلبِسُونه معطفه ويضعون قبعته على رأسه، حتى كادت عيناه تختفي تحتها، وأخيرًا وجدَ نفسه على مدخل الشقة المظلم والبارد. هبط السلم، وأثناء هبوطه زُلَّت قدماه بقوة حتى خُيِّلَ إليه أنه يسقط في هاوية سحيقة. رغب في الصراخ، وفجأة وجدَ نفسه في فناء المبنى.

شعر السيد جوليا دكين برائحة الهواء الرطب والمنعش فتوقف للحظاتٍ، وأثناء وقوفه سمع صوت الأوركسترا يعاود العزف. وفجأة تذكَّر السيد جوليا دكين كلَّ شيءٍ، وبدأ أنه يستعيد قواه مرة أخرى. انطلق من مكانه حيث كان يقف متسمراً وركض لا يلوي على شيءٍ إلى حيث الهواء والحرية، وإلى حيث تقوده عيناه..

## الفصل الخامس

دقت الساعة الثانية عشرة ليلاً في جميع أبراج مدينة سان بطرسبورج، حين كان السيد جوليا دكين يفر هارباً إلى كورنيش نهر فانتانكا الصغير بالقرب من جسر آزمايلوفسكي، محاولاً النجاة بنفسه من أعدائه ومن ظلمهم وإهاناتهم له، والتي بدت كصفعات قاسية، كان يفرُّ أيضاً من صرخات العجائز المذعورات ومن آهات النساء والنظرات القاتلة المميته التي رمقه بها السيد أندريه فيليبوفيتش. كان السيد جوليا دكين في حكم الميت. كان ميتاً تماماً وبكل معنى الكلمة. ورغم أنه استطاع في تلك اللحظة الإبقاء على قدرته على الركض، فما ذلك إلا محض معجزة يصعب عليه هو نفسه تصديقها. كانت الليلة من ليالي نوفمبر الرهيبة، والطقس رطب يغشيه الضباب والمطر والجليد أحياناً؛ ولذا ينتشر بين الناس الزكام والرشح والحمى وارتفاع الحرارة. بعارة واحدة، كانت الليلة عامرة بكل عطايا شهر نوفمبر في سان بطرسبورج. صوت الرياح وهي تزار في الشوارع الفارغة فتهيج أمواج نهر فونتانكا، وترتفع بمياهها السوداء أعلى الحواجز وتكاد تلامس المصابيح القليلة المضاءة على الرصيف. فتقوم الأخيرة، هي الأخرى، بالصراخ عالياً من فرط ألم الاصطدام بالأمواج حتى يبدو الأمر وكأنه حفل موسيقي ألحانه قعقعة وصرير لا نهاية له، اعتاد عليه وألفه سكان المدينة. انهمر المطر والجليد في آنٍ واحدٍ. حملت الرياح القوية ذرات الماء أفقيًا، فبدت وكأنها تندفع بقوة من أنبوب إطفاء. كان المطر يهطل بقوة على وجه صاحبنا المسكين السيد جوليا دكين، فيؤلمه ويوخزه بشدة وكأنها آلاف من الإبر والدبابيس تخترق جسده.

وفي صمت الليل الذي لا يكدره إلا قعقعة عجلات العربات البعيدة من حينٍ لآخر، وزئير الرياح وصرير المصابيح وصوت الماء المتساقط على الأرض من كل مكانٍ مثل أسطح المباني والشرفات والمزاريب، كان لا يوجد أثر لإنسان في الشارع سواء بالقرب منه أو بعيداً عنه. ويبدو أنه لا يمكن أن يتواجد شخص في هذا الوقت وهذا الطقس في الشارع.

كان السيد جوليادكين وحده هناك غارقًا في يأسه وجبنه، يركض على رصيف نهر فونتانكا الصغير بخطى سريعة وقصيرة محاولًا الوصول بأقصى سرعة إلى شارع المحال الستة، حيث شقته التي تقع في الطابق الرابع.

وعلى الرغم من المطر والثلج المتساقط ومظاهر الطبيعة الهائجة، التي تجمعت كلها في تلك الليلة من شهر نوفمبر من ليالي بطرسبورج، وكأنها قد تحالفت مع بعضها البعض ضد السيد جوليادكين فجأة، بعد أن خارت قواه تمامًا بسبب المصائب التي تعرض لها وأخذت تضرب بقوة في جسده، وتنفذ إلى عظامه تسحقها، وتعمي بصره وتجعله يترنح ويتأرجح ويكاد يخرج عن طريقه وما تبقى لديه من عقل وحكمة. على الرغم من تكالب كل هذا عليه وفي آن واحد، وكأن تحالفًا قد تمَّ بين أعدائه والطبيعة على إفساد يومه تمامًا، بقي السيد جوليادكين غير مكترث على الإطلاق بما يحدث، وبما يرى من أدلة إضافية على مطاردة القدر له وقسوته عليه، فما جرى له منذ قليل في منزل مستشار الدولة بيرينديف كان كافيًا لإصابته بالصدمة والذهول. ولو قابله الآن شخص محايد غير مهتم بالأمر ولاحظ كيف يهرول المسكين حزينًا فسيفزع هو أيضًا من فوره وسيدرك أن السيد جوليادكين لا ينشد في تلك اللحظة إلا أمرًا واحدًا، وهو الفرار والفرار. أن يختبئ ويتوارى. أن يفر من نفسه. كأنه يريد الاختباء من نفسه في مكانٍ ما. نعم. هكذا كان هو في الواقع. وأكثر من ذلك لم يكن السيد جوليادكين يرغب في الفرار من نفسه فحسب، بل أن يختفي تمامًا وألا يكون له وجود على ظهر الأرض، وأن يتحول إلى رماد. في تلك اللحظة بدا وكأنه لا يلوي على شيء ولا يهتم بشيء. لم يكن يفهم ماذا يحدث حوله، بل كان ينظر في كل الاتجاهات، وكأن كل تلك الليلة الممطرة المضطربة لم تكن. وكأنه لا جليد ولا مطر ولا رياح ولا كل مظاهر الطقس السيء تلك.

ونسي أثناء ذلك حذائه الفوقي الذي يحمي الحذاء من المطر والذي سقط من قدمه اليمنى على رصيف نهر فونتانكا وغطس في الثلج والوحل. لم يفكر السيد جوليادكين حتى في العودة للبحث عنه كما لم يلحظ أنه فقدَه أصلًا. كان في حيرة واضطراب شديدين لدرجة أنه توقَّف عدة مرات أثناء ركضه في منتصف الرصيف متسمرًا بلا حراك يستعيد ما تعرض

له في تلك الليلة العصبية. في تلك اللحظات، كان يموت بكل معنى الكلمة، يتلاشى.. وما هي إلا لحظات ثم يستأنف الركض كرجل مجنون، يركض دون أن ينظر خلفه، وكأن أحدهم يطارده ويحاول اللحاق به، أو كأن كارثة قد وقعت وتكاد تفتك به. كان في حالة مأساوية في واقع الأمر..

وفي نهاية الأمر، توقف السيد جوليادين، وقد خارت قواه، فاستند إلى سور حديدي على الحالة التي يبدو عليها الشخص الذي أصيب فجأة بنزيف في الأنف، وأخذ جوليادين ينظر إلى النهر الصغير ومياهه السوداء العكرة. ومن غير المعروف كم قضى من الوقت على هذه الحالة. ما أعرفه تمامًا أن السيد جوليادين كان قد بلغ غاية اليأس، وكان قد وصل لدرجة من الإعياء والإرهاق حتى كاد يموت، لولا ما بقي لديه من أطلال روحه الضعيفة. لقد نسي كل شيء، كل شيء على الإطلاق.. جسر ازمايلوفسكي وشارع المحال الستة وحالته الآن.. ما المشكلة في الواقع؟ أصبح لا يبالي ولا يكثر بشيء. فالموضوع قد انتهى بالفعل والحكم قد صدرَ وصدّق عليه. فما باله يعذب روحه؟

وفجأة.. فجأة ارتعد بالكامل وقفز خطوةً أو خطوتين جانبًا. وأخذ ينظر ويستكشف المكان من حوله وهو لا يزال يعاني من القلق الذي لا يجد له تفسيرًا. ورغم أنه لا أحد هناك، ولم يحدث شيء ما، إلا أنه قد بدا له أن هناك شخصًا ما يقف في تلك اللحظة بالقرب منه أو بجانبه، ويميل مثله على السور الحديدي، والعجيب أن هذا الرجل قال له شيئًا ما بصوت متقطع غير مفهوم تمامًا، ولكنه تحدّث عن أمورٍ مألوفةٍ وتتعلق به من قريب. تساءل السيد جوليادين وهو يحاول أن يتبين ما حوله «ما هذا؟ هل أحلم؟ ولكن أين أنا في واقع الأمر؟ آه.. آه..».

وهز رأسه وأصبحت نظراته إلى الأفق الرطب الممتد يملؤها الخوف والقلق والحزن. بذل جهدًا جهيدًا ليرى شيئًا وسط الضباب الثقيل، وأن يخترق بنظره هذا الظلام المعبأ بالبخار الكثيف، ولكنه لم يرَ شيئًا. بدا له أن كل شيء على حاله. ليس هناك من جديد. لا شيء لفت انتباهه. بدا وكأن كل شيء على ما يرام وكما ينبغي له أن يكون. وأن الجليد يتساقط

بشكل أكثر قوة وكثافة، حتى إن المرء لا يستطيع أن يميز شيئًا أبعد من عشرين خطوةً على الأكثر. كما كان صرير المصابيح المنارة يشتد هو أيضًا، وبدت الرياح وكأنها تنشد أغنية أكثر شجناً وحرزاً وكأنها توسلات فقير مسكين لا يمل من طلب المال ليسد رمقه «آه.. آه.. ماذا دهاني؟» تساءل السيد جوليا دكين وهو يواصل سيره بعد أن نظر حوله جيداً في كل مكان.

في الوقت ذاته، بدأت تخالجه مشاعر جديدة. ليست هي بقلقٍ ولا بخوفٍ. وكأن نوعاً من الحمى أصابه من رأسه إلى أخمص قدميه. كانت تلك لحظة أليمة وشعور لا يحتمل.

قال لنفسه محاولاً بث الأمل فيها «لا بأس. ربما. لا شيء في ذلك مطلقاً.. ربما. لا عيب في ذلك، ولا يمكن أن يكون ما حدث سبباً في تلويث شرفي. ربما كان كل ما حدث ضرورياً». واصل حديثه لنفسه، وهو نفسه لا يفهم ما يقول. «ربما سيتم تفسير ذلك بشكل أفضل مع مرور الوقت، ولن تكون هناك حاجة عندها لتبرير الأمر». هكذا واصل السيد جوليا دكين حديثه محاولاً إقناع نفسه وتخفيف الأمر عليها، وفي أثناء ذلك وقف وتخلّص من بقايا الثلج الملتصق بملابسه والمتجمع بكثافة على قبعته وبقائه ومعطفه وربطة عنقه وحذائه وعلى كل مكان في جسمه. إلا أن ذلك لم يسعفه في التخلص من ذاك الشعور الغريب والحزن الشديد غير المعتاد.. وعلى مسافة بعيدة دوت طلقات مدفع.

فكر صاحبنا في نفسه «يا له من طقس سيئ. ربما سيحتاج الفيضان المدينة؟ ربما. فقد ارتفع منسوب المياه كثيراً». وما إن قال ذلك وفكّر فيه حتى شاهد أحد المارة مقبلاً نحوه. ربما هو أيضاً تأخّر في الشارع لظروف طارئة مثله. فالأمر يبدو عادياً ولا غرابة فيه. وربما هي محض مصادفة عادية. إلا أنه ولسببٍ غير معلوم شعر السيد جوليا دكين بالتوتر والاضطراب والذعر.. ليس من بين الأسباب أنه خاف أن يكون هذا الرجل العابر شريراً. وربما.. قال السيد جوليا دكين لنفسه «قد يكون وجود هذا الرجل في هذا الوقت المتأخر في الشارع هنا صدفةً لا أكثر.. وربما أيضاً هو هنا بهدف إيدائي، ولهذا يعبر الطريق في اتجاهي» ومع ذلك ربما لم يفكر السيد جوليا دكين على هذا النحو تمامًا، بل إنه شعر على

الفور بشيء مشابه وإحساس مزعج للغاية. كما أنه لم يكن لديه وقت للتفكير وللشعور. فالرجل قد أصبح قريبًا للغاية من السيد جوليا دكين. وكعادة قام جوليا دكين بتصنع وضع خاص وتعبير بليغ على وجهه يوحي بأنه هنا بالصدفة، وأنه هنا من تلقاء نفسه، وأنه لا يضر أي شيء لأي إنسان. ثم توقف فجأة متسمراً في مكانه كما لو كانت ساعة قد أصابته، ثم عاد سريعاً إلى الورا في إثر الرجل المار الذي تجاوزه للتو. التفت بطريقة وكأن هناك شيئاً يدفعه للحركة. وكان الرجل المار قد اختفى سريعاً وسط العاصفة الثلجية. كان هو أيضاً في عجلة من أمره مثل السيد جوليا دكين، وكان مثله غارقاً في معطفه من رأسه إلى أخمص قدميه. وكان مثله قد قطع رصيف فونتانا جيئة وذهاباً عدة مرات بخطوات سريعة قصيرة ومتقطعة أحياناً.

همس السيد جوليا دكين وهو يبتسم بريبة وجسده يخفق بأكمله « ما معنى.. ما معنى هذا؟» أصاب الصقيع ظهره فأصبح ملمسه شديد البرودة. كان الرجل المار قد اختفى، حتى إنه لم يعد يسمع وقع أقدامه، غير أن السيد جوليا دكين ظلّ واقفاً متسمراً في مكانه يحدق ببصره في اتجاه الطريق الذي سلكه الرجل. غير أنه استعاد وعيه شيئاً فشيئاً في النهاية. فكَرَّ في حزنٍ: «ماذا دهاني؟ هل جننت؟» ثم التفت وواصل طريقه مسرعاً الخطى وهو يحاول ألا يجهد عقله في التفكير في أي شيء. ولتحقيق هذا الهدف أغمض عينيه. وفجأة، ووسط عواء الريح وهمهمة العاصفة، سمع مرة أخرى وقع أقدام تقترب، فارتعد وفتح عينيه، فإذا هو من جديد وعلى مسافة عشرين خطوة أمام رجل غريب. كان الرجل مسرعاً على عجلة من أمره، وقد زاد من خطواته، حتى إن المسافة بينه وبين السيد جوليا دكين تقلصت سريعاً. كان السيد جوليا دكين يستطيع تمييز ملامح الشخص المتأخر هذا، وها هو يتفرس وجهه ويصرخ من فرط الدهشة والرعب، حتى إن قدميه لم تقويا على حمله. كان الرجل هو نفسه الذي التقاه جوليا دكين قبل عشر دقائق. على أن ظهوره الثاني هذا، وعلى هذا النحو المحير لم يكن السبب الوحيد في صدمة السيد جوليا دكين. وتحت تأثير حالة الذهول تلك، تسمر جوليا دكين في مكانه، وتنحج وكأنه يريد أن يقول شيئاً ثم انطلق يطارد هذا الشخص الغريب، حتى إنه صرخ فيه أملاً منه أن يتوقف فوراً. توقف الرجل

الغريب بالفعل على مسافة عشر خطوات من السيد جوليا دكين، وكان ضوء المصباح مسلطًا بالكامل على وجهه وعلى كامل جسده. التفت الرجل نحو السيد جوليا دكين وهو ينتظر بقلق وعلى أحر من الجمر أن يعتذر عن فعلته.

قال صاحبنا بصوت مرتجف: «المعذرة، ربما أكون مخطئًا».

التفت الرجل في صمت وعلى وجهه علامات الاستياء، ثم واصل سيره بسرعة، وبدا وكأنه يحاول تعويض الثابتين اللتين أضعهما في ضحبة السيد جوليا دكين. أما صاحبنا فكان جسمه يرتجف بالكامل ولم تكن قدماه تقويان على حمله؛ فجلس يتأوه على حافة الرصيف. كان من الواضح أن لديه العذر في ذلك، وفي انفعاله هذا. فقد بدا له وجه الرجل الغريب مألوفًا بشكلٍ ما. ويمكننا أن نذهب أبعد من ذلك. فقد كان يعرفه. نعم كان على يقين من ذلك. فقد التقاه مرات ومرات. حتى إنه التقاه من فترة قريبة. في أي مناسبة كان ذلك؟ ربما أمس؟ على العموم ليس الأمر الأهم أنه قد رآه في السابق. وليس لدى هذا الرجل ما يلفت الانتباه إليه من النظرة الأولى. فهو كسائر الرجال. رجل لائق المظهر كحال الكثير من الرجال. وربما امتلك خصلاً أخرى مهمة. باختصار يبدو رجلًا طيبًا لا يضر الشر لأحد.

لم يكن السيد جوليا دكين يكره أي مشاعر تجاه هذا الرجل، سواء حسد أو عداوة أو حتى عدم قبول. بل على العكس من ذلك. ورغم ذلك، بدا (وهنا يكمن بالمناسبة، الجانب الأهم في الموضوع) أن السيد جوليا دكين لا يريد أن يلتقي بهذا الرجل حتى لو كان المقابل هو حصوله على كنوز الدنيا ولا سيما في هذه الظروف. وما هو أكثر من ذلك أن السيد جوليا دكين يعرف هذا الرجل تمام المعرفة، يعرف اسمه ولقب عائلته، ورغم ذلك، أكرر أنه لن يناديه باسمه لو منح كنوز الدنيا كلها. ما كان ليفعل أو يعترف بذلك الآن. أن يعترف بأن هذا هو اسمه واسم أبيه واسم جده الأكبر.

كم استمر السيد جوليا دكين مشدوهمًا حائرًا هكذا؟ وهل ظلّ لوقتٍ طويلٍ قابلاً بهذا الشكل على الرصيف؟ لا أستطيع الإجابة. ما أعرفه أنه ما إن أفاق قليلاً من هذه الحالة وعاد إلى

صوابه، إذا به يركض سريعًا وبكل ما أوتي من قوة ودون أن ينظر خلفه. حتى شعر بضيق أنفاسه. تعثر مرتين أثناء ركضه، حتى كاد يسقط، وبسبب ذلك فقد أحد حذائيه، وبقي حذاؤه الأيمن فقط الذي سبق وقد فقد غطاءه من قبل. وأخيرًا أبطأ السيد جوليا دكين من ركضه حتى يلتقط أنفاسه، ونظر حوله بحدة، فاكتشف أنه قد اجتاز رصيف نهر الفونتانكا بأكمله، وعبر جسر انيشكوف وجزءًا كبيرًا من شارع نيفسكي، حتى إنه بلغ ناصية شارع ليتينيانيا.

كان في حالة تشبه حالة الإنسان الذي على حافة الهاوية، والذي تنشق الأرض تحت قدميه وتهتز وتتحرك ثم تتمايل للمرة الأخيرة وتبتلعه في باطنها السحيق. وهو بلا حول ولا قوة. مسكين ضعيف لا يملك الجرأة، ولا القوة للنجاة والرجوع خطوتين للخلف، أو حتى أن يحول نظره عن الهوة السحيقة الفارغة، فهي تجذبه إليها فيثب فيها وكأنه يطلب بنفسه النهاية، ويتعجل بنفسه لحظة هلاكه. كان السيد جوليا دكين يشعر ويعرف، بل ويوقن أنه مُقبِلٌ على ابتلاء جديد، وأن مصيبة أخرى ستحل به، مثلًا أن يلتقي ذاك الشخص المجهول مرة أخرى. ولكن الغريب في الأمر أنه كان هذه المرة يتمنى أن يحدث ذلك، بل وأن يحدث بأقصى سرعة. وما زال يركض ويركض وكأن هناك قوة غريبة خفية تحركه. لم تكن سرعته في الركض تتناسب وضعف بدنه، والخدر الذي أصابه. لم يستطع التفكير في شيء، ومع ذلك كانت كل الأفكار في عقله غريبة.. الأشياء تتصارع في عقله. وهذا كلبٌ صغيرٌ تائهٌ عن أصحابه، مبتل ويرتجف من البرد يمشي خلف السيد جوليا دكين، وأخذ يركض بجواره جاعلاً ذيله بين قدميه، وأذنيه ملتصقتين برأسه وينظر إلى صاحبه من حين لآخر نظرة ملؤها الاستعفاف والتفهم في الوقت نفسه. ومن بين بحر الأفكار لاحت له فكرة بعيدة منسية من أطلال ذكريات حادث قديم وداهمته الآن كأنها مطرقة تدق رأسه وتزعجه وتعذبه ولا تبارح عقله، فيتألم. همس في نفسه «آه.. يا له من كلبٍ صغيرٍ مقرفٍ» ردّد السيد جوليا دكين ذلك دون أن يعي ما يقول. لم يستطع أن يفهم نفسه. وأخيرًا رأى الشخص المجهول عند تقاطع شارع ليتينيانيا مع الشارع الإيطالي. ولكن الأخير لم يكن مقبلًا نحوه، بل زاهب في نفس الاتجاه الذي يركض فيه ويسبقه ببضع خطوات. وأخيرًا

دخلا إلى شارع المحال الست، وهنا أخذ السيد جوليا دكين يلتقط أنفاسه. توقف الشخص الغريب عند المنزل الذي يسكن فيه السيد جوليا دكين.. وقتذاك سمع رنين الجرس، وتبعه صوت مزلاج الباب، فانفتح الباب ومال الرجل المجهول إلى الأمام، ثم تلاشى واختفى عن نظر صاحبنا. وفي تلك اللحظة نفسها وصل السيد جوليا دكين إلى الباب وانطلق كالسهم إلى الداخل.. أخذ يجري إلى الفناء الداخلي غير عابئ بتذمر الحارس، وها هو يرى رفيقه الرجل المجهول المثير للاهتمام بعد أن غاب عن نظره لدقيقة.

ظهر الرجل المجهول وهو يدخل المبنى، ثم يتوجه إلى السلم الذي يقود إلى شقة السيد جوليا دكين. ركض صاحبنا في إثره. كان السلم معتمًا ورطبًا وقذرًا تتراكم على بسطاته أكوام القمامة والخرق البالية. وأي شخص لا يسكن المبنى، أو لم يسبق أن زاره، كان ليقضي نصف ساعة تائها في أركانه في هذه العتمة، وربما تنكسر ساقه. وعادة ما يصب لعناته أثناء ذلك على من يسكن هذا المبنى. إلا أن رفيق السيد جوليا دكين صعد الدرج بكل سهولة وكأنه يعرف المبنى جيدًا وكأنه من سكانه. كان السيد جوليا دكين على وشك أن يلحق به، حتى إن طرف معطف الرجل المجهول قد لمس أنف صاحبنا مرتين أو ثلاثة فخفق قلبه بشدة. توقف الرجل السري أمام باب شقة السيد جوليا دكين وطرق الباب ففتح له بيتروشكا فورًا. والأمر الذي كان ليدهش بطلنا في ظروف أخرى أن بيتروشكا كان في الانتظار ولم يكن نائمًا كعادته. أغلق الخادم الباب خلفه ومضى خلف الرجل المجهول وهو يحمل الشمعة في يده. في تلك اللحظة اندفع بطلنا إلى الدهليز وهو لا يدري بنفسه، واجتاز الممر الداخلي لشقته دون أن يخلع معطفه أو قبعته، ووقف على عتبة غرفته. لقد تحققت كل نبوءاته وثبت صدق حدسه. وكل ما خاف منه وكل ما توقعه قد تحقق الآن في الواقع. لم يستطع التقاط أنفاسه وشعر بدوار قوي. كان الرجل المجهول جالسًا أمامه وعلى سريره، وكان كذلك يرتدي معطفه وقبعته مبتسمًا له ويغمز بعينييه ويومئ له برأسه بودًا. ودَّ السيد جوليا دكين لو يصرخ إلا أنه لم يستطع، ودَّ لو يحتج على ذلك بشكل أو بآخر، ولكن قواه لم تسعفه.

انتصب شعر رأسه من الخوف، وجلس خائفًا دون أن يعي ماذا يفعل. كان هناك ما يدعو للخوف بل وللذعر. تعرف السيد جوليا دكين يقينًا على رفيقه هذه الليلة. إن رفيقه لا يمكن أن يكون سوى هو نفسه. نعم إنه هو نفسه. هو السيد جوليا دكين بشخصه. هو سيد جوليا دكين آخر، ولكنه يشبهه تمامًا. هو باختصار، الذات الأخرى للسيد جوليا دكين بكل ما تحمل هذه الصفة من معانٍ.

## الفصل السادس

في اليوم التالي، وفي تمام الثامنة صباحًا، استيقظ السيد جوليادكين في سريره. وما إن فتح عينيه حتى تذكّر كل الأحداث غير الطبيعية التي مر بها بالأمس، وتلك الليلة المضطربة التي لا يصدقها عاقل، وما حفلت به من مغامرات يستحيل وقوعها. تذكّر كل هذا بالكامل، وبدأت أمام عينيه كل هذه الأحداث بكل دقائقها وتفصيلها. كانت المعاملة الشرسة والخبیثة من قِبَل أعدائه، وخاصة آخر مشهد منها، كافيةً لأن تصيب قلب السيد جوليادكين بالجمود والبرود. ومع ذلك، كان كل ما حدث في منتهى الوحشية والغرابة والغموض والاستحالة، لدرجة أنه لا يستطيع أن يصدقها. كان السيد جوليادكين على استعداد للاعتراف بأن كل ما حدث هو محض هراء أو هلوسة لا يمكن أن تتحقق في الواقع، أو أنها مجرد اضطراب مؤقت في الخيال قد أصابه، أو أن عقله قد أصابه بعض الجنون، غير أنه ولحسن الحظ صاحب خبرة وتجربة طويلة ومريرة في الحياة، ويعلم جيدًا إلى أي مدى يمكن للقسوة أن تودي بالبشر، وإلى أي مدى يمكن للشر أن يدفع الإنسان للثأر انتقامًا لكرامة أهدرت أو طموح خاب ولم يتحقق. ثم إن ما يشعر به السيد جوليادكين من ألم في أطرافه وفي رأسه وأسفل ظهره، والذكام في أنفه، ما هو إلا دليل قوي على أن كل المحن وأحداث ليلة أمس كانت حقيقة واقعة، سواء كانت تلك النزّه الليلية، أو الأحداث التي وقعت أثناءها.

و أخيرًا كان السيد جوليادكين يعلم منذ فترة طويلة أنهم يدبرون له أمرًا، وأن هناك شخصًا آخر قد تمت دعوته إلى هناك. ولكن ماذا عليه أن يفعل؟ وبعد أن فكّر جيدًا، قرر السيد جوليادكين أن يصمت ويذعن ولا يحتج على ما وقع له يوم أمس إلى حين. «ولكن أليس من المحتمل أن يكونوا قد فعلوا ذلك فقط بقصد إخافتي بعض الشيء؟ وما إن يروا مني عدم الغضب أو الاحتجاج أو الرد وأنني أتحمل ما قاموا به بكل تواضع وخضوع، سوف يتوقفون ويتراجعون من تلقاء أنفسهم عن فعل ذلك مرة أخرى؟»

تلك كانت الأفكار التي جالت في خاطر السيد جوليا دكين عندما كان ما زال ممداً في سريره يتمطأ ويحاول التخفيف من الألم الذي أصاب جسده، و ينتظر قدوم خادمه بيتروشكا، كما يحدث عادة في الصباح. ظل ينتظر ربع ساعة كاملة إلى أن سمع بيتروشكا الكسول خلف السور، يقوم بتجهيز السماور (\*\*\*)، ورغم ذلك، فقد قرر ألا يناديه الآن. بل إن السيد جوليا دكين، ولسبب ما، خاف أن ينفرد بخادمه في هذا الوقت. فكّر في نفسه: «الرب وحده يعلم ما الذي يدور في خلد هذا المخادع بعد كل ما رآه بالأمس. صحيح أنه صامت لا يتحدث بشيء، ولكنه بالتأكيد يفكر كثيراً في الأمر». دقّ صرير الباب أخيراً، وظهر بيتروشكا يحمل صينية في يده. نظر إليه السيد جوليا دكين بوجل وبطرف عينه وهو ينتظر بفارغ الصبر ما سوف يحدث، ويقول في نفسه: «هل سيذكّرني بما حدث بالأمس؟» إلا أنه وعلى العكس تماماً، بدا بيتروشكا صامتاً. كان أكثر صمتاً وأكثر عبوساً، وربما أكثر غضباً من المعتاد. كان يحدق في كل شيء من أسفل لأسفل بخبث. ولم يلقِ على سيده نظرة واحدة. وهو الأمر الذي أثار استياء السيد جوليا دكين بالمناسبة.

وضع بيتروشكا الصينية على المائدة، ثم استدار وانصرف عائداً إلى مكانه دون أن ينبس ببنت شفة. تتمم السيد جوليا دكين وهو يهم باحتساء الشاي: «إنه يعرف، يعرف، يعرف كل شيء. هذا العاطل يعرف كل شيء». ومع ذلك تجنّب السيد جوليا دكين سؤال بيتروشكا عن الأمر، رغم أن خادمه دخل الغرفة أكثر من مرة للقيام بمختلف الأعمال المنزلية. كان صاحبنا في غاية التوتر. ولم يكن يرغب بأي حالٍ من الأحوال في الذهاب إلى العمل. توجّس خيفة وتوقع أن الأمور هناك في غير صالحه. فكر في نفسه: «لو ذهبت اليوم إلى العمل ستعرض نفسك للمزيد من المتاعب. أليس من الأفضل أن تصبر قليلاً؟ ودعهم هناك يظنون كيفما شاءوا ويفعلون ما يحلو لهم. أما أنا، فكننت لأفضل الانتظار حتى أستجمع قواي وأستردّ عافيتي وأفكر بشكل كافٍ في كل ما حدث، ومن ثم أتخير اللحظة المناسبة، فأفاجئهم كما يفاجئ البرد الناس في الشتاء حين يضرب رؤوسهم بقوةٍ وعنفي، وهكذا أنتصر على الجميع».

وفي أثناء استرساله في هذه الأفكار أشعل السيد جوليا دكين غليونًا ثم آخر. ومرّ الوقت بسرعة وإذا بالساعة تدق الساعة والنصف. فكّر السيد جوليا دكين: «الساعة الآن التاسعة والنصف. ولا يمكنني الذهاب متأخرًا عن الموعد. كما أنني مريض. فمن الطبيعي أن أكون مريضًا. بالتأكيد أنا مريض. من يجرؤ أن يقول إنني لست مريضًا؟ ماذا عليّ أن أفعل؟ هل سيرسلون من يتأكد من ذلك؟ فليفعلوا. ليأت من يستطلع الأمر بنفسه. ماذا عليّ أن أفعل في واقع الأمر؟ فهذا ظهري يؤلمني، ولديّ سعال وزكام. ثم إنه ليس بمقدوري الخروج للشارع في هذا الطقس السيئ. مستحيل. مستحيل تمامًا.. لو فعلت ذلك سأصاب بمرض خطير، وقد أموت ربما. لم لا أموت؟ ما أكثر الموت في هذه الأيام!»

مثل هذه المبررات جعلت السيد جوليا دكين يهدأ ويطمئن كثيرًا، وبدت كمسوغ منطقي يواجه به اللوم الذي يمكن أن يوجّه له أندريه فيليبوفيتش على نقص همّته ونشاطه في العمل. وعمومًا، وفي ظروف كهذه، كان السيد جوليا دكين عادة ما يحاول أن يجد تبريرًا لأفعاله وأخطائه أمام نفسه أولاً، ويصيغ في سبيل ذلك حججًا وبراهين لا يمكن دحضها. وها هو في هذه المرة يجد المبررات الكاملة لموقفه؛ ولذا فقد أشعل سيجارة وأخذ ينفثها. ولكنه ما إن نفث منها عدة مرات، حتى قفز من الأريكة فجأة وألقى بالسيجارة عنه واغتسل وحلقّ ذقنه ومَشَّط شعره وارتنى ملابسه الرسمية وأخذ بعض الأوراق وطار سريعًا إلى عمله.

دخل السيد جوليا دكين إلى مكتبه وهو يشعر بحرج بالغ، وشعر بخفقان قلبه وهو يتوجس خيفة، ويتوقع أن يكون يومه على غير ما يريد. ورغم أن هذا التوجُّس كان رغبًا عنه وفي اللاوعي الخاص به، ولكنه كان شعورًا مزعجًا ومؤلمًا. جلس منكسرًا على كرسيه المعتاد بالقرب من سكرتير المكتب أنطون أنطونوفيتش سيتوتشكين وغرق في الأوراق التي أمامه دون أن ينظر إلى أحدٍ أو ينشغل بأي شيء سوى عمله. كان قد قرر مسبقًا وأقسم على نفسه أن يبتعد عن كل ما يسبب له المتاعب ويتحاشى أي محاولة لابتزازه أو الإساءة القوية إليه، أو الإجابة عن أي أسئلة وقحة، أو نكات أو غمز ولمز عن ليلة الأمس. حتى إنه

قد عزم على أن يتحاشى المجاملات المعتادة بينه وبين زملائه في العمل، واقتصد من السؤال عن الأحوال والصحة وغير ذلك.

ولكن كان من الواضح أيضًا أن السيد جوليا دكين لا يمكنه البقاء هكذا على هذا الوضع. فالقلق والتوتر والخوف كانوا دومًا أكثر إيلا مًا له من نتائج الأحداث نفسها؛ ولذا، وعلى الرغم من العهد الذي قطعه على نفسه ألا ينجر إلى أي حديث مهما كان، وأن يبتعد عن كل شيء مهما حدث، كان السيد جوليا دكين يتحين أي فرصة من حين إلى آخر ليسترق السمع أو النظر خلسة إلى زملائه، ويحاول من خلال نظراتهم إليه ووجوههم أن يستشف شيئًا، وما إذا كان هناك شيء جديد أو خطب يتعلق به ويخفونه عنه، أو مكيدة تحاك ضده لا يعرفها. وأخذ يربط بين أحداث الأمس وتصرفات زملائه والمحيطين به الآن. وظل هكذا.. حزينا يمئي النفس أن يعرف شيئًا وأن ينكشف الأمر سريعًا حتى لو انتهى بكارثة ما. فلم يعد يهتم أو يبالي بشيء. وها هو القدر يستجيب إلى السيد جوليا دكين، وما إن أعرب عن أمنيته الأخيرة حتى تبددت شكوكه بصورة لم تأخذ وقتًا في خله.

فجأة صدر صوت صرير باب غرفة مجاورة. كان الصرير خافتًا وكأنه يعلن عن دخول شخص عديم القيمة. ظهر رجل وجهه مألوف جدًا للسيد جوليا دكين، وقد وقف في تضرع أمام المكتب ذاته الذي يجلس عليه صاحبنا. لم يرفع صاحبنا نظره، واكتفى بأن يلقي عليه نظرة خاطفة، ولكنها كانت كافية لأن يعرف ويفهم كل شيء بأدق التفاصيل. كان في قمة الخجل والحرج، فغرق في الأوراق التي أمامه كما تفعل النعامة عندما تدس رأسها في الرمال الساخنة فرارًا من الصياد.

انحنى الوافد الجديد أمام أندريه فيليبوفيتش ثم سمع صوت الأخير وهو يتحدث بلهجة رسمية رقيقة كعادة رؤساء العمل في مخاطبتهم لموظف جديد في أول يوم عمل له. قال أندريه فيليبوفيتش وهو يشير إلى مكتب أنطون أنطونوفيتش «اجلس هنا أمام السيد جوليا دكين. سنجد حاليًا ما نكلفك به». واختتم أندريه فيليبوفيتش حديثه بإشارة سريعة مهذبة تشجيعًا للوافد الجديد، ثم غرق مرة أخرى في الأوراق المكدسة أمامه.

وأخيرًا رفع السيد جوليادكين عينيه، وكان من الممكن أن يغشى عليه فورًا، لولا أنه توقع هذا قبلاً، توقع الأمر برمته وبكل تفاصيله. كان يتوقع الغرض من قدوم هذا الوافد الجديد. وكان أول رد فعلٍ قام به هو أنه أخذ ينظر حوله ليرى ما إذا كان أحدهم يسخر أو يطلق النكات المعتادة في المكتب، أو أن أحدهم أصيب بالذهول والدهشة، أو حتى الخوف والذعر فلم يجد من ذلك شيئًا. دهش السيد جوليادكين كثيرًا وبدا له الأمر محيرًا ولا يتفق ومنطق الأشياء. وأصيب بفرع شديد من هذا الصمت المطبق على الجميع. فالأمر أصبح ظاهرًا للعيان جليًا. فلم هذا الصمت؟ أمر غريب ومُوحش وقبيح. أحسّ بقشعريرة تسري في جسده. تلك كانت الخواطر التي جالت في خاطر السيد جوليادكين سريعًا. كان السيد جوليادكين يتألم، كان كمن يتعدّب على نار هادئة، وكان لديه الأسباب الكثيرة لذلك بالمناسبة. لم يكن الوافد الجديد الذي يجلس أمامه سوى دُعر السيد جوليادكين. هو نفسه عار السيد جوليادكين، وهو نفسه كابوس السيد جوليادكين الذي داهمه في نومه بالأمس. باختصار كان هو السيد جوليادكين نفسه. ربما لم يكن هو السيد جوليادكين الجالس على كرسيه فاغراً فاه وممسكًا بقلمه، وربما أنه ليس السيد جوليادكين الذي يشغل وظيفة مساعد مدير المكتب، ذلك الذي يفضل أن يتوارى بين الناس وفي الزحام ويزدوب، والذي يعيش وفق مبدأ «لا تمسوني ولن أمسكم». لا. لقد كان سيد جوليادكين آخر، غير ذلك. مختلف تمامًا عنه. ولكنه مع ذلك مثل الأول. له القامة نفسها والجسم نفسه وصلعة الرأس نفسها ويرتدي الملابس نفسها. باختصار كان نسخة طبق الأصل منه، حتى إنك إذا وضعتهما جنبًا إلى جنب أمامك، لم تكن لتعرف أيًا منهما السيد جوليادكين الحقيقي والسيد جوليادكين المزيف، أو أيهما السيد جوليادكين القديم وأيهما الجديد، أو أيهما الأصل وأيهما الصورة.

وإذا جاز لنا المقارنة، كان صاحبنا في تلك اللحظة كرجلٍ وقع ضحية محتال أو شخص خبيث يسخر منه أمام الحضور فوضع أمامه مرآة بهدف إزعاجه وتكديره. فكّر في نفسه: «ما الذي يحدث؟ هل أنا أحلم أم أن هذا الذي أمامي واقع؟ هل ما يحدث حقيقي أم هو استكمال لكابوس الأمس؟ هل هذا ممكن؟ بأي حق تتصرفون هكذا؟ من الذي سمح لهذا

الموظف بفعل ذلك؟ ومن أعطى الأمر بذلك؟ هل ما زلت نائمًا؟ هل أحلم؟ ولكي يتأكد قرص جوليا دكين نفسه، حتى إنه كان ينوي أن يقوم بقرص أحد الحضور في المكتب أيضًا. لا. ليس حلمًا. لا شك في ذلك. شعر السيد جوليا دكين بالعرق يتصبب منه بغزارة.. وأدرك أن خطابًا كبيرًا يحدث له.. خطابًا لم يخطر بباله من قبل.. خطابًا خطيرًا ومصيبة المصائب.. وبدا السيد جوليا دكين يدرك تبعات هذا الموقف المفاجئ والوضع الذي هو عليه الآن. حتى إنه أصبح يتشكك في وجوده هو نفسه، وذلك رغم أنه كان قد أعد نفسه لهذا الموقف من الناحية النفسية، بل إنه كان يمّني نفسه بأن ينتهي الأمر مهما كانت النتيجة، وأن تتبدد شكوكه مهما كانت العواقب، غير أن الموقف الحالي كان يستحق ما هو عليه من ذهول. تملكه الحزن وآلمه، وما برحت حكمته وعقله يفارقانه للحظات حتى يعودا إليه. ولما أفاق من غيبته تلك، لاحظ أنه يخط بيده وبلا وعي، شيئًا ما على الورق. ويكاد لا يصدق نفسه وهو يحاول المراجعة والتحقق مما كتب. لم يستطع فهم شيء.

وأخيرًا نهض السيد جوليا دكين الآخر من مكانه، حيث كان يجلس هادئًا خاضعًا، واختفى عن الأنظار خلف أبواب القسم المجاور، ربما لقضاء أمرٍ ما في العمل. نظر السيد جوليا دكين حواليه فلم يرَ شيئًا. كان كل شيء هادئًا ولم يكن يسمع إلا صرير الأقلام في أيدي الموظفين وحفيف الأوراق وهم يقلبونها، وبعض الهمس في أركان الغرفة بعد مكتب أندريه فيليبوفيتش. نظر السيد جوليا دكين إلى أنطون أنطونوفيتش، ونظرًا لأن تعبيرات وجهه كانت تفصح عن باطنه وحالته النفسية والهم الذي تمكّن منه بسبب ما يحدث له الآن، فقد قام أنطون أنطونوفيتش - وهو رجل طيب - بوضع قلمه، واستفسر على غير العادة، وباهتمامٍ وحنوٍ عن صحة السيد جوليا دكين.

تلعثم السيد جوليا دكين وهو يقول:

- أنا يا أنطون أنطونوفيتش بخير والحمد لله. أنا يا أنطون أنطونوفيتش على خير ما يرام. صحتي الآن جيدة يا أنطون أنطونوفيتش.

قال هذه الكلمات مترددًا وبدا كأنه لا يثق تمامًا في شخص أنطون أنطونوفيتش الذي كرّر اسمه مع كل جملة يقولها.

- ها.. حسنًا. بدا لي فقط أنك تعاني من خطب ما. على العموم لا بأس على الإطلاق. فمن منا لا يمرض. خاصة في الآونة الأخيرة ومع انتشار الأمراض.. هل تعلم أن..

أردف السيد جوليا دكين وهو يرمق أنطون أنطونوفيتش بنظرة ثابتة:

- نعم يا أنطون أنطونوفيتش، أعرف أن المرض موجود ومنتشر. ولكن يا أنطون أنطونوفيتش ليس السبب في ذلك هو المرض. فأنا كما ترون يا أنطون أنطونوفيتش، لا أعرف حتى كيف أستطيع... أقصد أنني لا أعرف حتى من أين أبدأ يا أنطون أنطونوفيتش...

قال أنطون أنطونوفيتش مرتبًا بعض الشيء وهو يرى الدموع تكاد تنهمر من عين محدّته:

- لا أفهم ما تقول.. أعترف بأنني لا أفهمك جيدًا. عليك أن تفسر الأمر بوضوح أكثر.. قل لي ما هي مشكلتك..

- نعم سأقول الحقيقة.. يوجد هنا يا أنطون أنطونوفيتش.. يوجد هنا موظف يا أنطون أنطونوفيتش.. أنطونوفيتش..

- حسنًا. أكمل. ما زلت لا أفهمك.

- أريد أن أقول يا أنطون أنطونوفيتش، إن هناك موظفًا جديدًا هنا.

- نعم، صحيح، يحمل نفس لقبك.

صاح السيد جوليا دكين:

- كيف ذلك؟

- أقول إنه يحمل نفس لقبك، هو أيضًا جوليادكين. هل هو أخوك؟

- لا يا أنطون أنطونوفيتش.. أنا..

- همم.. شيء غريب. بدا لي أنه ربما قريب لك. أتعرف؟ إنه يشبهك وكأنكما من عائلة واحدة.

تجمد السيد جوليادكين في مكانه فاغراً فمه من الدهشة، حتى إنه عجز عن النطق للحظات، ومن السهل إيجاد تفسير منطقي لحالته تلك، في الواقع هو أمرٌ غريبٌ. فكيف يمكن لأنطون أنطونوفيتش ألا يهتم وألا يبالي بحدثٍ غريب كهذا، حدث نادر، فريد، ومفاجئ.. لا يمكن إلا أن يثير دهشة أي شخص، حتى ولو كان غير مبالٍ بما يحدث حوله؟ كيف يمكن لأنطون أنطونوفيتش أن يقول إنه مجرد تشابه في اللقب والاسم؟ أو أنهما ربما من عائلة واحدة؟ في حين أنهما متماثلان تمامًا وكأن شخصًا ينظر إلى نفسه في المرأة!

أردف أنطون أنطونوفيتش قائلاً:

- أتعلم يا ياكوف بيتروفيتش، أنصحك بزيارة الطبيب. فأنت لا تبدو على ما يرام على الإطلاق. عيناك على وجه الخصوص.. أتعلم، إن لك نظرات غريبة..

- لا يا أنطون أنطونوفيتش.. أنا بالطبع أشعر بأنني.. أقصد أنني أريد أن أسألك وأعرف كل شيء عن هذا الموظف.

- إذًا تفضل.

- ألم تلاحظ يا أنطون أنطونوفيتش شيئًا غير عادي فيه؟ أقصد شيئًا مميزًا على نحو خاص؟

- مثل ماذا؟

- مثلاً، أريد أن أقول يا أنطون أنطونوفيتش، مثل تشابهاً عجيباً مع شخص ما، على سبيل المثال، معي أنا مثلاً. لقد قلت للتو يا أنطون أنطونوفيتش إنني - أنا وهو - وكأنا من عائلة واحدة. كانت تلك ملاحظة عابرة منك دون طلب مني.. هل تعلم أن هناك الكثير من الحالات فيها يتشابه شخصان تماماً كقطرتي ماء؟ حتى إنه لا يمكن التمييز بينهما بأي حال؟ هذا ما وددت أن أقوله لك يا سيدي..

صمت أنطون أنطونوفيتش برهةً يفكر ثم قال، وكأنه لم يسبق أن واجه موقفًا بهذه الخطورة:

- نعم، نعم. صحيح. الشبه بينكما مذهل. ورأيك صادق تماماً. نعم، أحياناً يكون الشبه كبيراً، حتى ليصعب تمييز أحدكما عن الآخر.

أردف أنطون أنطونوفيتش، وهو يرمق محدّته بنظرة فاحصة:

- هل تعلم يا ياكوف بيتروفيتش أنه تشابه يصل إلى حدّ المعجزة؟ تشابه لا يُصدّق كما يقولون.. فهذا الشخص مثلك تماماً.. إنه حقاً مثلك تماماً. ألم تلاحظ ذلك يا ياكوف بيتروفيتش. حتى إنني كنت أنوي التحدث معك في الأمر من نفسي، ولكنني أعتزف أنني لم أولِ ذلك الاهتمام الذي يستحق في البداية. إنها معجزة. حقاً معجزة. هل تعلم يا ياكوف بيتروفيتش أين وُلِدت؟ أظنك لم تولد في هذه المدينة؟

- لا يا سيدي، لم أُولد هنا.

- هو أيضاً لم يُولد هنا. ربما كلاكما من منطقة واحدة؟ هل أجرؤ على سؤالك أين قضت والدتك أغلب سنوات عمرها؟

- هل تقول يا أنطون أنطونوفيتش إنه لم يولد هنا؟

- نعم. لم يولد هنا. يا لها من معجزة في الواقع.

واصل أنطون أنطونوفيتش حديثه وثرثرته، وهو المعروف بحبه لذلك. تابع يقول:

- حقًا إنه أمر مثير للفضول. نعم أعترف إنه كثيرًا ما نصادف أشياء كتلك، ونصطدم بها ولا نلاحظها. لا تقلق، فتلك أمورٌ تحدث في العادة. سأحكي لك حكاية مشابهة وقعت لخالتي. هي أيضًا رأت نفسها مثلين قبيل وفاتها..

- لا يا سيدي. عذرًا على مقاطعتي لك يا أنطون أنطونوفيتش. أنا يا أنطون أنطونوفيتش أودُّ أن أعرف كيف لهذا الموظف، أقصد على أي أساس هو هنا؟

- لقد استقدموه ليحل محل المرحوم سيميون إيفانوفيتش. لقد شغرت الوظيفة بوفاة سيميون إيفانوفيتش؛ ولذا فقد استقدموه مكانه. صحيح، بالمناسبة.. هذا الرجل الطيب سيميون إيفانوفيتش قد توفي وترك ثلاثة أطفال صغار. وجاءت أرملته عدة مرات تتوسل إلى صاحب السعادة وتطلبُ منه المساعدة. ومع ذلك، هناك من يقول إنها تخفي كنزًا..

- لا يا سيدي. أريد أن أعود إلى موضوعنا الأصلي يا أنطون أنطونوفيتش.

- أي موضوع؟ آه.. نعم.. ولكن لماذا أنت مهموم بهذه المسألة هكذا؟ قلت لك إن كل ذلك سيمر وستتجاوزته بعد حين. لا تُرهق نفسك. أنت بشرٌ في النهاية. الذنب ليس ذنبك. إنها مشيئة الله وإرادته. وليس لك أن تحتج على ذلك. فذلك إثمٌ كبيرٌ. حكمة الله واضحة في هذا الأمر يا ياكوف بيتروفيتش. وعلى حدِّ علمي، أنت ليس لك أي ذنب في ذلك. فكَم من المعجزات تحدث في عالمنا، والطبيعة تجود بالكثير، ولن تعاقب على ما حدث. لن تعاقب يومًا ما.. سأحكي لك قصة على سبيل المثال. أظنُّ أنك قد سمعت عن التوأم الذي يطلق عليه الـ «سيامي مُلتصقًا الظهر». إنهما يكبران هكذا سويًا، ويعيشان ويأكلان وينامان سويًا. يقولون إنهما يجنيان من الظهور سويًا الكثير من المال.

- اسمح لي يا أنطون أنطونوفيتش أن...

- أنا أفهمك. أفهمك. حسناً.. أقول في النهاية إنه أمر عادي، ولا داعي للقلق. أقول لك إنني وبعد تفكير طويل في الأمر، لا أرى ما يوجب أن تقلق وتضطرب من أجله أبداً. ماذا بك؟ إنه موظف كأى موظف. ويبدو أنه رجل نشيط. يقول إنه جوليا دكين، وليس من هذه النواحي، ويقول إنه يعمل كاتباً وقد التقى مع صاحب السعادة على انفراد.

- وكيف كان رد صاحب السعادة؟

- جرت الأمور على ما يرام. يقولون إنه جلس مع صاحب السعادة طويلاً يتحدث إليه، وقد قدّم ما يكفي من الأسباب والمبررات وقال له: «تلك هي الظروف وهذا هو وضعي الحقيقي يا صاحب السعادة. لا أملك شيئاً وأرغب في الخدمة، وخاصةً تحت قيادتكم المستنيرة» وهكذا قال ما يقال في مثل هذه المواقف.. إنه يجيدُ المديح، وهو شخص ذكي بارع وحنق. ولعلّه جاء بتوصية من شخصٍ مهمٍّ، فلا شيء يتم الآن دون وساطة.

- ومن الذي أوصى بتعيينه يا سيدي؟ أريد أن أقول.. من ذا الذي يورط نفسه ويلطخ يديه في أمرٍ كهذا؟

- يبدو أنها توصية من شخصٍ مهمٍّ جداً كما يقولون. كان صاحب السعادة يتبادل الضحكات مع أندريه فيليبوفيتش.

- يتبادل الضحكات مع أندريه فيليبوفيتش؟

- نعم، ابتسما، ثم قالاً إنهما لا يمانعان توظيفه على الإطلاق - من جهتهما - بشرط أن يخلص في عمله.

- ثم ماذا حدث بعد ذلك يا سيدي؟ لقد أثرت فضولي يا أنطون أنطونوفيتش. أرجوك أكمل من فضلك. ماذا حدث بعد ذلك؟

- سامحني، ولكنني مرة أخرى لا أستطيع أن أفهمك.. لقد قلت لك إن الأمر برمته عادي، وأن عليك ألا ترهق نفسك بالتفكير فيه، وأنه ليس هناك ما يهددك في هذا الموضوع.

- لا يا سيدي. لم أقصد ذلك، بل ودَدْتُ سؤالك يا أنطون أنطونوفيتش إذا كان صاحب السعادة قد أضاف شيئًا. ألم يقل شيئًا عني أنا مثلًا؟

- تقصد.. نعم.. بل لا.. لا شيء.. يمكنك أن تهذا تمامًا. بالطبع الموقف مثير للحيرة والاستغراب، وفي البداية لم أنتبه لما حدث على الإطلاق.. حتى إنني لا أدري كيف لم أنتبه إلى ذلك، ولم ألاحظ هذا الشبه بينكما، لولا أنك نبهتني إلى ذلك. ولكن على أي حال، يمكنك أن تنسى الأمر وتهذا تمامًا. لم ينطقا بأي شيء ذي أهمية أو يمثل خطرًا عليك.

قال أنطون أنطونوفيتش الطيب جملته الأخيرة وهو ينهض من مقعده.

- كنت أودُّ أيضًا يا أنطون أنطونوفيتش أن...

- سامحني. لقد أهدرت وقتًا طويلًا في الكلام، بينما لديّ عمل مهم وعاجل عليّ إنجازه.

وفي هذه اللحظة دوى صوت أندريه فيليبوفيتش الوقور مجلجلاً:

- أنطون أنطونوفيتش! صاحب السعادة يطلبك في مكتبه.

- حالًا، حالًا يا أندريه فيليبوفيتش.

أمسك أنطون أنطونوفيتش بحزمة من الأوراق، وهرع أولاً إلى أندريه فيليبوفيتش، ثم إلى مكتب صاحب السعادة.

فكّر السيد جوليا دكين في نفسه قائلاً: «ها... هكذا إذا. تلك هي اللعبة إذا.. هكذا تسير الأمور.. إذا فالأمور ليست سيئة بل هي على ما يرام. (قال ذلك في نفسه وهو يفرك يديه إحداها بالأخرى وقد بلغ منه الفرح مبلغه، حتى إنه لم يعد يشعر بما حوله) إذا الأمر جد

عادي كما يقولون، وأنه سيحل ولن تكون هناك أي عواقب تُذكر. رائع. حتى إنني لا أرى أحداً منهم يحتج، فكلهم غارقون في العمل. أحب الطيبين، أحبهم. أحبهم وعلى استعداد لاحترامهم دومًا.. ورغم ذلك، يبدو لي عند التفكير في الأمر، أن هذا السيد الذي يُدعى أنطون أنطونوفيتش ليس جديرًا بأن أثق به تمامًا، فقد بلغ من العمر عتياً، وبدا وكأنه يفتقد راحة العقل. وعلى كل حال، فالمهم أن صاحب السعادة لم يذكرني بشيء، وأنه بذلك قد سامحني. وهذا أمرٌ جيدٌ ويُسعدني. ولكن ما شأن أندريه فيليبوفيتش بالأمر، ولم يتدخل في الموضوع بلحيته العجوز تلك؟ لماذا يقف دومًا في طريقي؟ إنه يذكرني بالقطعة السوداء التي تعترض الطريق، وتجدها في كل مكان من خلفك أو أمامك..».

ثم نظر السيد جوليا دكين حوالبه مرة أخرى وشعر بالأمل يعاوده، غير أنّ شيئاً واحداً لا يبارح ذهنه يؤرقه ولا ينبئ بالخير. حتى إنه فكّر للحظاتٍ أن يبادر بالحديث إلى زملائه أثناء الخروج من الغرفة مثلاً، أو بحجة الاستفسار عن شيءٍ في العمل. كأن يلمح أو يقول مثلاً «شيءٌ عجيب حقًا. أيها السادة. هل لاحظتم هذا الشبه الغريب؟ يبدو الأمر خياليًا أو كوميديا هزلية». تظاهر صاحبنا أنه يمزح ليستكشف مدى الخطر الذي يهدده. وخلص إلى أنّه على المرء أن يأخذ الحيطة في كل الأحوال ويتدارك نفسه في الوقت المناسب ويتوقف. أدرك أنه سرخ كثيرًا بخياله، فقال لنفسه وهو يلطم خده: «هذا أنت دائماً. ما إن تبدأ اللعب حتى تأخذك الحماسة. نفسك تتوق إلى تحقيق العدالة. لا. فلنصبر أنا وأنت يا ياكوف بيتروفيتش. لننتظر ونتحلى بالصبر». ورغم ذلك، وكما ذكرنا آنفًا، فقد شعر بالأمل يملأ روحه، وكأنه بعث بعد موت. فكر في نفسه «لا بأس. أشعر أنني تحررت من عبء كبير وجملٍ ثقيلٍ كان على كاهلي. موقف غريب. مرّ كل شيء ببساطة ودون عناء. وكأنه صندوق مُغلقٌ فُتِحَ من تلقاء نفسه، كما يقول الأديب كريلوف.. كان كريلوف مُحِقًّا.. يا له من بارع في تأليف الأقاصيص.. أما الوافد الجديد فليعمل.. ليخدم في الوظيفة ما شاء أن يخدم، شريطة ألا يضايق أحداً، أو أن يمَسَّ أحداً بسوء.. وهو كذلك.. فليعمل. أنا أوافق على ذلك وأرحب بذلك.».

انقضى الوقت سريعاً، وفجأة دقَّت الساعة الرابعة، وحان وقت الانصراف. أمسك أندريه فيليبوفيتش بقبعته، وقلده جميع الموظفين كالعادة، فيما تأخر السيد جوليادكين عنهم قليلاً حتى يكون آخر من ينصرف.

تفرق الجميع كل إلى منزله، ولما خرج إلى الشارع، شعر السيد جوليادكين وكأنه في النعيم، حتى إنه ودَّ أن يقوم بالتسكع قليلاً وأن يتنزّه في شارع نيفسكي. قال صاحبنا: «هكذا هو القدر. ما أعجبه.. لقد تغيّر الوضع رأساً على عقب فجأة.. حتى إن الطقس أصبح جميلاً.. جليد وزلاجات.. الروس يحبون الجليد ويتعايشون معه، وأنا أحبُّ الإنسان الروسي. لو شاهد صياد هذا الطقس لهتفّ من فوره يقول: «أيا طلائع الثلج والبرد.. ليتني أصطاد أرنباً على هذا الجليد. إذًا ليس هناك ما يقلق. كل شيء يجري وفق ما أريد.»

هكذا عبّر السيد جوليادكين عن سعادته، ومع ذلك ظلّ هناك ما يُقلِّقه ويفزعه ويجعله عاجزاً عن أن ينعم بالسكينة. لعلّه قلق أو حزن أو خوف. ربما كل هذا. استمر قلبه في الخفقان بقوة، حتى إنه لم يستطع أن ينعم بالسكون. لم يدر كيف يتغلب على نفسه. فكّر في نفسه: «لا داعي للعجلة على كل حال. لنتنظر يوماً آخر ثم ننعم بالفرح أخيراً. ومع ذلك، فما معنى هذا كله؟ فلنفكر قليلاً ونحلّل الموضوع يا صديقي العزيز. هلا فكرنا قليلاً وناقشنا الأمر؟ أولاً: هو إنسان يُشبهك تمامًا كأنه أنت. حسناً وماذا في ذلك؟ هل معنى ذلك أن أبكي وأنوح؟ أيُّ ضير في ذلك؟ وما علاقتي بالأمر؟ أنا بعيدٌ عن الأمر تمامًا. سأنسى الأمر وكفى.. هذا هو قراري ولن أحيّد عنه مهما كان. قُضي الأمر. أما هو فليعمل ما يشاء. يقولون إنها معجزة وأمرٌ غريبٌ ويتحدثون عن التوأم السيامي.. ولكن ما علاقة التوأم السيامي بالأمر؟ إذا قبلنا بالأمر فهما توأمان. ولكن الحياة عامرة بالغرائب، حتى بالنسبة للعظماء من الناس. والتاريخ ينبؤنا مثلاً بأن سوفوروف كان يغني مثل الديك.. صحيح أنها السياسة في النهاية ولكن ماذا عن القادة العسكريين الكبار؟ سأسير في طريقي كما أنا وأظلّ في زاويتي في الحياة والركن الذي أستظل به. لا أريد أن أعرف شيئاً عن أحد. وسأقابل شر الأعداء بالبراءة والإحسان. لست أحفل بالمؤامرات والمكائد وأفخر بأنني كذلك. أنا شخص طاهر صريح دمت الخلق ولا أعرف للحقد سبيلاً..»

صمت السيد جوليا دكين وارتجف مثل ورقة شجر تعبت بها الرياح. حتى إنه أغلق عينيه لبرهة آملًا أن يكون الشيء الذي يخافه مجرد أوهام. ثم فتح عينيه أخيرًا وألقى نظرة على يمينه.. لا.. لم يكن ذلك وهماً ولا خيالاً.. كان ذلك الرجل الذي التقاه في الصباح واقفاً بالقرب منه، مبتسماً له ويتفرس وجهه. وبدا أنه كان يتحين الفرصة ليبدأ في الحديث معه. غير أن الحوار لم يبدأ رغم ذلك. وقطع الاثنان ما يقارب الخمسين خطوة سيرًا في صمت. بذل السيد جوليا دكين كل طاقته في الاختباء داخل معطفه قدر ما يستطيع، وأخفّض قبعته على رأسه حتى غطت عينيه. ولكن ما أثار حنقه أكثر حتى وصل إلى ذروته، أن معطف صاحبه وقبعته نسخة طبق الأصل من قبعته ومعطفه.

أخيرًا نطق صاحبنا محاولاً الحديث همسًا ودون النظر إلى رفيقه:

- السيد العزيز، يبدو وأعتقد أننا نسير في طريقين مختلفين.. بل إنني على ثقة من ذلك تمامًا.

صمت قليلاً ثم أردف يختتم كلامه بلهجة صارمة:

- ثم إنني متأكد أنك تعي تمامًا ما قلته لك.

ردّ رفيق السيد جوليا دكين أخيرًا :

- كنت أتمنى.. كنت أتمنى.. أرجو أن تسامحوني.. فأنا لا أعرف إلى من ألبأ هنا.. فوضعي.. أمل أن تسامحوني على وقاحتي. بدا لي أنكم اسقبلتموني اليوم بترحاب لتعاطفكم معي.. ولقد شعرت أنا أيضًا من ناحيتي ومن أول لحظة بانجذاب نحوكم.. إنني...

وهنا تمنى السيد جوليا دكين أن تنشق الأرض وتبتلع رفيقه الجديد إلى الأبد.

استأنف رفيقه يقول:

- ليتني أستطيع أن أمل يا ياكوف بيتروفيتش أن تصغي إليّ برحابة صدر.

ردّ السيد جوليا دكين بقوله:

- هنا؟ ونحن؟ هنا؟ من الأفضل أن نذهب إلى الشقة. أو لنعبر شارع نيفسكي إلى الناحية الأخرى. سنتحدث هناك على راحتنا. أو ربما نتحدث في الزقاق. من الأفضل أن نسلك الزقاق..

قال رفيقه بصوت خاضع خائف، وكأنه يلمح إلى أنه لا يهتمه المكان، وأنه يكفيه الحديث في الزقاق الصغير:

- حسنًا. لنمض إلى الزقاق الصغير.

أما السيد جوليا دكين، فلم يكن يعي ما يحدث له على الإطلاق. إنه لا يصدق نفسه، ولم يفق بعد من ذهوله.

## الفصل السابع

أفاق السيد جوليا دكين من غفلته، فوجد نفسه على سلم بيته عند مدخل شقته. قال لنفسه موبخًا إياها «ما أغباني! إلى أين أصطحبه؟ هل فقدت عقلي تمامًا؟ كيف أشنق نفسي بيدي؟ ماذا عساه بيتروشكا يظن بي عندما يراني بصحبته؟ ماذا سيظن بي هذا الملعون وهو الشكاك المرتاب دائمًا؟» ولكن كان أوان الندم قد ولى. دقَّ جوليا دكين الباب فانفتح، فشرع بيتروشكا يساعد صاحب المنزل ورفيقه في خلع معطفيهما. نظر السيد جوليا دكين خلصة إلى خادمه، يحاول أن يخترق عقله وينفذ إلى أفكاره وما يجول بخاطره. والآن، ولدهشته البالغة، رأى أن خادمه غير مندهش ولم يظهر أي دلالات على أن أمرًا ما غريبًا قد وقع. بل بدا وكأنه يتوقع شيئًا كهذا أن يحدث. بالطبع كان كذئبٍ جائعٍ كعادته، يختلس النظرات وكأنه يهيم بالتهام من هو أمامه. قال صاحبنا لنفسه «لا بُدَّ وأن الجميع قد سحروا اليوم، قد أصابهم جميعًا مس من الجن. لا شك أن خطبًا ما قد أصابهم جميعًا. اللعنة. يا للمصيبة!» كانت تلك خواطر وأفكار السيد جوليا دكين وهو يصطحب ضيفه إلى غرفته ويدعوه للجلوس في خضوع. كان الضيف في غاية الحرج والاضطراب على ما يبدو، وسار في خضوعٍ ووجلٍ خلف صاحب المنزل. بدا وكأنه يحاول تتبُّع كل حركاته ونظراته ويخمن أفكاره. كانت تصرفاته تنبئ بحيرته وخضوعه، وكان في تلك اللحظة يبدو - إذا جاز لنا المقارنة - كرجل ارتدى ثوبَ غيره لأنه لا يمتلك ثيابًا خاصة به. فالأكمام أقصر مما يجب. حتى إنها بالكاد تصل إلى كوعه، ومن وقتٍ لآخر يحاول جاهدًا تعديل صديرتة القصيرة جدًا. وفي لحظة تجده يدور في نفس المكان، وفي لحظة أخرى يتلاشى تمامًا. أحيانًا يسترق السمع والنظر، محاولًا أن يفهم ما يقال في الشقة، وما إذا كان أحدهم يتحدث عنه أو يسخر منه أو يخجل من أفعاله.. خلاصة القول إنه كان على نار يحمرُّ من الخجل وينسى كل شيء، ويشرد تمامًا، وتذل كرامته، ويهان كبرياؤه.

وضع السيد جوليا دكين قبعته على طرف النافذة، ولكونه وضعها بإهمال فقد سقطت وطارت على الأرض فهرع ضيفه يلتقطها، ونظفها من الغبار ثم أعادها إلى حيث كانت، تاركًا قبعته على الأرض كما هي بالقرب من الكرسي الذي يجلس عليه مستسلمًا. هذا الموقف الصغير فتح عيني السيد جوليا دكين على الحقيقة، فأدرك تمامًا أن الرجل خاضع له وفي حاجة إليه؛ ولذا فلا داعي لبذل الجهد والعناء في البحث عن موضوع للحديث وترك رفيقه يعاني وحده كلفة هذا الأمر.

وبدوره لم يكن الضيف ليجرؤ على فعل ذلك، فهو في انتظار أن يقوم سيد المنزل بالمبادرة. هل كان ذلك خجلًا منه أم شعورًا بالذنب قليلًا؟ أو أنه من قبيل الاحترام والأدب؟ لا توجد إجابة واضحة وقاطعة. كان من الصعب تفسير ما يحدث. ظهر بيتروشكا في تلك اللحظة وتوقف على باب الغرفة، وحدق ببصره في اتجاه مخالف للوجهة التي كان ينظر إليها سيده وضيفه، وقال بصوت أجش، وبلهجة يعوزها الاكتراث «هل أمر بعشاء لشخصين؟»

- أنا. لا أعرف.. نعم يا صديقي. لشخصين.

ابتعد بيتروشكا، فأخذ السيد جوليا دكين يحدق في ضيفه. احمر وجه الأخير خجلًا. كان السيد جوليا دكين رجلًا صالحًا؛ ولذا بفضل روحه الطيبة فقد توصل إلى النظرية التالية «هذا الرجل مسكين. لقد تسلّم عمله للتو هذا الصباح، وكان قبل ذلك يعاني قسوة الحياة، ولعله لا يملك إلا معطفه الذي يرتديه، ولا يملك ثمن ما يقيم أوده. مسكين هذا الضيف. يا له من مسكين. ولكن لا بأس فلربما كان هذا أفضل من..».

بدأ السيد جوليا دكين حديثه:

- عذرًا إنني.. لكن اسمح لي أن أعرف اسمك.

أجاب الضيف هامسًا، مضطربًا وخجلًا وكأنه يعتذر عن كونه يحمل الاسم نفسه:

- يا...يا... ياكوف بيتروفيتش.

ردد صاحبنا يقول وقد عجز عن إخفاء اضطرابه:

- ياكوف بيتروفيتش؟

أجابه الضيف المسالم:

- نعم يا سيدي. بالضبط. اسمي هو اسمك يا سيدي ولقبي هو لقبك.

وكاد الضيف أن يبتسم، وربما يمزح قليلاً، إلا أنه جلس في النهاية ورسم على وجنتيه ملامح الجدية والخجل بعض الشيء، وهو يرمق صاحب المنزل بعينيه، وقد فهم أنه لن يتقبل المزاح.

قال السيد جوليا دكين:

- هل لي أن أسألك عن سبب تشريفك لي؟

- عاجله الضيف بصوت خجول وهو ينهض من مقعده:

- قد علمت بعظيم كرمك واتساع صدرك، فسمحت لنفسي أن آتي إليك، وأن أرجو صداقتك ورعايتك..

هكذا اختتم الضيف حديثه، وهو يعاني في سبيل العثور على العبارات والكلمات المناسبة، والتي لا تبدو مسرفة في النفاق والرياء؛ حتى لا يذل نفسه أو يهين كرامته. وفي الوقت نفسه، كان حريصاً على ألا تكون العبارات مفرطة في الجرأة، وتتم عن وقاحة، أو السعي لإظهار تكافؤ في الرتبة والمنزلة. بدا الضيف في هذا الموقف كعابر سبيل فقير ونبيل في الوقت نفسه، يرتدي سترة قديمة، ويحمل في جيبه وثيقه إثبات شخصية تنم عن أصله الرفيع. بدا وكأنه لم يتقن حرفة الشحاذة كما يجب.

أجاب السيد جوليا دكين وهو يجول ببصره بين ضيفه وجدران الغرفة:

- إنك تخرجني بكلامك هذا... فكيف لي أن... أنا أعني، أقصد ما نوع الخدمة التي يمكن أن أقدمها لك؟

- لقد أحسست يا ياكوف بيتروفيتش بانجذابٍ نحوك منذ الوهلة الأولى، سامحني من فضلك واغفر لي ما أقول فقد عوّلتُ عليك، تجرأت أن أفعل ذلك يا ياكوف بيتروفيتش. أنا... أنا إنسان تائه يا ياكوف بيتروفيتش. أنا تائه وفقير وعانيت الكثير في حياتي يا ياكوف بيتروفيتش. وأنا شخص جديد على هذه المدينة. وعندما علمت بأنك، وفضلاً عن صفاء نفسك وكرم خصالك، أنك تحمل نفس الاسم واللقب الذي أحمل...

قطب السيد جوليا دكين حاجبيه.

- تحمل نفس اللقب الذي أحمل وتنحدر من نفس المدينة التي قدمت منها؛ لذا فقد قررت أن ألجأ إليك أنت وأشرح لك وضعي المعقد.

- أجب السيد جوليا دكين بصوتٍ خَجَلٍ:

- حسناً. حسناً يا سيدي. حقيقةً لا أدري ماذا أقول لك. لتتحدث بعد الغداء.

انحنى الضيف موافقاً. كان الغداء جاهزاً، فقد وضعه بيتروشكا على المائدة. وجلس الضيف مع صاحب المنزل لتناول الطعام. جلسا هكذا لفترة قصيرة، فقد كانا كلاهما على عجلة من أمرهما. صاحب الدار لأنه لم يكن يأكل في طبقه المعتاد، كما أنه كان خجلاً من فقر المائدة، وكان يرغب في إطعام ضيفه كما يجب، كما أنه يحب أن يظهر أمامه كرجل ميسور وليس فقيراً.

وكان رفيقه أيضاً في عجل، وغير مرتاح لأنه كان خجلاً ومرتبكاً. فبعد أن تناول قطعة من الخبز لم يجرؤ على تناول الثانية، ناهيك عن إحراجه لأنه تناول قطعة كبيرة. وأخذ يكرر

مرارًا أنه ليس جائعًا وأن الطعام كان شهيقًا، وأنه راضٍ كل الرضا وسيظل ممتنًا ما دام حيًا. وعندما انتهيا من الطعام قام السيد جوليا دكين بتدخين غليونه واقترح على ضيفه غليونًا آخر مخصصًا للأصدقاء أو الضيوف. جلس الاثنان وجهًا لوجه، وبدأ الضيف يقص حكايته.

ظلَّ جوليا دكين الأصغر يحكي حكايته طيلة ثلاث أو أربع ساعات كاملة. ورغم ذلك، كان معظم ما قاله عديم الأهمية، ولم تكن سوى سلسلة من تفاصيل فارغة حول ظروف عمله في الإدارة الحكومية بأحد الأقاليم وعن المدعين العامين ورؤساء المحاكم والمكائد المتعارف عليها في الدوائر الحكومية، والفساد وانتشار الرشوة بين الموظفين، وحول وصول أحد المفتشين فجأة، وعن التعيين المفاجئ لمدير جديد، وكيف عانى السيد جوليا دكين الثاني، وظلمَ دون ذنبٍ اقترفه. كما حكى عن عمته العجوز بيلاجيا سيميونوفنا، ثم عن ضياع وظيفته بسبب المكائد وقدمته إلى سان بطرسبورج سيرًا على قدميه، وكيف عانى صنوف الشقاء، وقضى أوقاتًا طوالًا في الحزن والهم، وكيف بحث عن عمل لفترة طويلة في بطرسبورج حتى أنفق كل ما لديه من مال، وكيف هام على وجهه بلا مأوى تقريبًا، ينام على الأرصفة، ويأكل الخبز اليابس المبلل بدموعه. حتى قبض الله له رجلًا كريمًا يعتني به، ويهتم لأمره ويوصي بتعيينه في وظيفة جديدة. كان الضيف يحكي حكايته ودموعه تنهمر، ويمسحها بمنديل أزرق اللون منقوش ويشبه المشمع. وفي نهاية حديثه قرر الضيف الكشف تمامًا عن كل شيء، والاعتراف للسيد جوليا دكين بأنه لا يملك المال الكافي، ليس فقط لكي يوفر لنفسه سكنًا، بل لكي يكسي نفسه. حتى إنه لم يستطع جمع المال اللازم لشراء حذاء، أما الزي الرسمي فقد استأجره من أحد الأشخاص لبعض الوقت وسيعيده له.

تأثر السيد جوليا دكين أيما تأثر، ورقَّ قلبه كثيرًا للضيف. وعلى الرغم من كون الحكاية مألوفة للغاية، غير أن كل كلمة فيها كان لها وقع قوي في نفسه، وكأنها كلام سماوي، أو نص مقدس. نسي السيد جوليا دكين الشكوك الأخيرة التي عانى منها وفتح قلبه، وأطلق له العنان والحرية، ومنحه الحق في السعادة، حتى إنه لام نفسه على غبائه، فكل شيء يبدو طبيعيًا، ولم يكن الأمر يستحق أن يعذب نفسه وأن يعاني الخوف دون طائل. ولكن يبقى

في الأمر نقطة واحدة تستدعي القلق، ألا وهي هذا التشابه العجيب.. ولكنه ليس كارثة على العموم. فالإنسان غير مسؤول عن صنائع الطبيعة، ولا يجب أن يودي هذا التشابه بمصير إنسان أو يؤدي إلى تلطيخ سمعته، أو تشويه سيرته. فضلًا عن ذلك، فإن ضيفه طلب الحماية والرعاية باكيًا شاكياً قدره، وهو شخص متواضع لا يعرف الخبث ولا المكر. ورأى أنه هو أيضًا يعاني من هذا التشابه، ربما لديه أسباب مختلفة في ذلك. وقد تصرف بمنتهى الجدارة وهو لا يطلب لنفسه سوى أن ينال رضا صاحب المنزل، وطوال الوقت كان ينظر كإنسان نادم ذي ضمير حي يشعر بذنبه أمام إنسان آخر. فما إن يتطرق الحديث إلى نقطة تثير الشك أو الخلاف كان يسارع إلى موافقة السيد جوليا دكين على رأيه. وإذا تصادف أن غفل وخالفه في الرأي، سرعان ما يتدارك الموقف، ويصوب خطابه، ويبرر فعلته، ويبلغه على الفور بأن رأيه يتفق ورأيه تمام الاتفاق. وأن نظرته إلى الأمور هي نفسها نظرة السيد جوليا دكين. كان يفعل كل ما بوسعه حتى يستجدي رضاء السيد جوليا دكين، حتى خلص السيد جوليا دكين إلى أن هذا الضيف شخص لطيف محبب إلى قلبه من جميع النواحي. وفي هذه الأثناء، أحضر الخادم الشاي، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة مساءً.

شعر السيد جوليا دكين بالسعادة والارتياح الشديد، وطابت نفسه، وأصبح مزاجه في وضع ممتاز. هو الآن منتعش يفيض قلبه من فرط الحماسة، فاندفع يتبادل مع رفيقه حديثًا دافئًا متدفقًا. كان من عادة السيد جوليا دكين حين يكون سعيدًا، أن يقص حكاية أو موقفًا شيقًا. هكذا كان هو ذلك المساء. تحدّث كثيرًا عن العاصمة وجمالها وأماكن اللهو فيها، وعن المسارح والنوادي، وعن آخر لوحات الفنان بريولوف، وعن الرجلين القادمين من لندن إلى سان بطرسبورج خصيصًا لزيارة سور الحديقة الصيفية، ومن ثم عادا على الفور إلى بلديهما. كما تحدّث عن عمله بالدائرة وعن السيد ألسوفي إيفانوفيتش، وعن أندريه فيليبوفيتش، وعن روسيا التي تتقدم وتتطور سريعًا من ساعة إلى أخرى، واقتبس بيت الشعر القائل: «يومًا بعد آخر تزدهر علوم البلاغة».

كما قصّ عليه حكاية قرأها في صحيفة «نحلة الشمال» مؤخرًا، وأن هناك ثعبانًا في الهند يمتلك قوة هائلة خارقة، وتحدّث أيضًا عن البارون برايبئوس.. إلخ. وباختصار، كان السيد جوليا دكين في قمة الرضا في ذلك المساء لعدة أسباب، أولها لأنه كان ينعم بالسكينة، وثانيًا لأنه أصبح يواجه أعداءه ولا يخشاهم، حتى إنه على استعداد لمواجهةهم بشراسة، وأخيرًا لأنه كان في تلك الليلة في موقف الراعي والحامي والإنسان الخير.

ورغم ذلك، فقد كان يعي في قرارة نفسه أن سعادته ليست مكتملة في تلك اللحظة، وأن هناك شيئًا ما زال يؤرقه وكأن دودة تعبت بروحه. دودة صغيرة، صغيرة جدًّا، ولكنها كانت تلتهم خلايا قلبه في تلك اللحظة. كان يتألم كلما تذكر ليلة الأمس التي قضاها في بيت ألسوفي ايفانوفيتش. كان على استعداد للتضحية بأي شيء لو أن بعضًا مما حدث بالأمس لم يحدث. وأخيرًا أنهى السيد جوليا دكين حديثه بالقول «ليس الأمر بهذا القدر من الأهمية». وقرّر، بتصميم واضح، أن يسلك سلوكًا قويًا مستقبلًا، وألا يعرّض نفسه لمثل هذه العثرات. ونظرًا لأن السيد جوليا دكين كان قد تحرّر تمامًا، وأصبح فجأة شخصًا سعيدًا فريحًا، فقد فكّر في الاستمتاع بالحياة بعض الشيء. كان بيتروشكا قد أحضر خمرًا فصنع منها شرابًا، وأخذ الرجلان يملآن كأسيهما ويشربان كأسًا ثم كأسين؛ فازداد الضيف رحابة وسعة صدرٍ ولطفًا، وأخذ يقاسم السيد جوليا دكين ابتسامته ومرحه، وبدأ أنه في قمة الفرح بسعادة وفرح جوليا دكين، وكان ينظر إليه بحُبّ كبيرٍ، ويرى فيه صديقه الحقيقي الوحيد. أمسك بورقة وقلم وطلب من السيد جوليا دكين ألا ينظر إلى ما يكتبه، وما إن انتهى من الكتابة، حتى مدّ الورقة إلى سيده. كانت رباعية شعرية قد كتبها بإحساسٍ شديدٍ، وهي بديعة من حيث السجع والخط. وواضح أنها من تأليف الضيف المرفه. كتب يقول:

لست أنساك

وإن نسيّني

هذا زمني قد نسيّني

وكال لي البلايا

فلا تنسني أنت أيضًا

عانق السيد جوليا دكين ضيفه والدموع تملأ عينيه، ولما أحسَّ بالراحة التامة تجاهه، قرَّر أن يفضي إليه بعض الأسرار الخفية، وكان حديثه منصبًا على أندريه فيليبوفيتش وكلارا ألسوفيفنا أكثر من غيرهما. قال صاحبنا إلى ضيفه: «إذًا.. حسنًا.. من المؤكد أننا سنتفاهم أنا وأنت يا ياكوف بيتروفيتش، أنا وأنت يا ياكوف بيتروفيتش سنتعايش سويًا مثل السمك في الماء، ومثل الإخوة الأشقاء. نحن يا صديقي الحبيب سندبر سويًا المكائد، سنكيد لهم. نعم سندبر المكائد بطريقتنا. سنقوم أنا وأنت بالدسائس، وسنصل بها إلى الذروة.. إلى الذروة. وأنت لا تثق بأحدٍ مهما كان. فأنا أعرفك حقَّ المعرفة يا ياكوف بيتروفيتش، وأفهم طباعك جيدًا.. سنتدفع تحكي كل شيء فنواياك طيبة وروحك صادقة! اجعل مسافةً بينك وبين الآخرين يا أخي». وافق الضيف السيد جوليا دكين تمامًا على ما يقوله، وقدَّم له الشكر الجزيل، حتى إن دموعه ذرفت قليلًا من فرط انفعاله. واصل السيد جوليا دكين حديثه بصوتٍ مرتجف: «اسمع يا ياكوف، أو تراني أدلك باسم ياشا. أتعرف؟ تعال واسكن معي هنا إلى حين، أو حتى إلى الأبد. سنتفق معًا يا صديقي. ما رأيك يا أخي؟ لا تقلق من هذا الشبه المذهل بيننا. لا تحفل بذلك. إنها مجرد مصادفه غريبة. لا يجب أن تقلق من ذلك، أو تعذب نفسك يا أخي. إنه قانون الطبيعة. والطبيعة سخية تجود بالكثير. تلك هي الحقيقة يا أخي ياشا. إنني أقول لك هذا من فرط حبي لك. من فرط حبي الأخوي لك. أما أنا وأنت يا ياشا، فسوف نتفق ونكيد للجميع ونوقعم في حفرة تلو الأخرى، وفخَّ تلو الآخر، وسنكسر أنوفهم».

احتسى الرجلان كأسًا ثالثة ثم رابعة، وكان هناك شعوران مسيطران على السيد جوليا دكين: الأول أنه في منتهى السعادة، والثاني أنه عاجز عن الوقوف على قدميه. كان الضيف بالطبع مدعواً للمبيت. وكان السرير مقسومًا إلى نصفين متلاصقين. قال السيد جوليا دكين الأصغر إنه ليسره أن ينام على الأرض ما دام ينعم بهذا الحب والعطف والود.

وأنه سينعس من فورهِ في أي ركن أو زاوية يرقد فيها بكل تواضع وكل تقدير وامتنان.  
وقال أيضًا إنه يشعر أنه في الجنة بعدما عانى مختلف الصعاب والآلام، وربما يخبئ  
المستقبل له المزيد منها. فعارضه السيد جوليا دكين الأكبر، وبدأ يقدم له الأسانيد والبراهين  
على ضرورة الإيمان بعدالة السماء. اتفق الضيف معه تمامًا وقال أن الله ليس كمثله شيء،  
وأن عدالته لا نظير لها. وهنا عاد السيد جوليا دكين مرة أخرى وذكر الأثر الكائن قائلاً إنهم على  
حق عندما يصلون لله حتى في آناء الليل. وخالف العلماء الذين يتنكرون للنبي محمد،  
وذكر أنه رجل عظيم في رأيه. ثم انتقل من الحديث عن الترك إلى الحديث عن صالون  
حلاقة جزائري، وأخذ يصفه ببراعة. وكان قد قرأ عنه في أحد الكتب. وضحك الرجلان  
كثيرًا وسخرا من سذاجة التُّرك، غير أنهما مدحا في الوقت نفسه حماستهم التي تضاعف  
تناول الأفيون من قوتها. وشرع الضيف يخلع ملابسه، فانسحب السيد جوليا دكين إلى ما  
وراء فاصل خشبي، معتقدًا أن ضيفه ربما يرتدي ملابس ضيقة أو ما شابه، فأراد ألا يضعه  
في موقف حرج أو مهين، وهو المسكين الذي اكتفى من المصائب والبلايا. كما أنه كان  
يرغب في التأكيد على بيتروشكا أن يحسن التصرف، وأن يختبره، وربما يلاطفه ويمارحه  
قليلاً حتى يصبح كلٌّ من في المنزل في هذه الليلة سعداء فرحين. وتجدر الإشارة هنا إلى  
أن بيتروشكا كان ما يزال يتسبب في حرج واضطراب السيد جوليا دكين.

قال السيد جوليا دكين بصوت مفعم بالركة واللف وهو يدلف إلى غرفة خادمه:

- وأنت يا بيتروشكا، نم الآن. ارقد الآن. وغداً في الثامنة أيقظني. هل فهمت يا بيتروشكا؟

كان السيد جوليا دكين يتحدث على غير العادة بقوة ولطف مع خادمه. إلا أن بيتروشكا لم  
ينطق بكلمة. كان حينها يتخبط حول سريرهِ من التعب، ولم يلتفت إلى سيده كما ينبغي  
عليه أن يفعل احترامًا وتوقيرًا له.

واصل السيد جوليا دكين:

- هل تسمعي يا بيتروشكا؟ قلت لك أن تذهب إلى فراشك الآن وأن توقظني في الثامنة صباحًا غدًا. هل فهمت؟

تمتم بيتروشكا في نفسه:

- نعم. فهمت. ما الصعب في ذلك؟

- حسنًا حسنًا يا بيتروشكا. أنا فقط أقول ذلك كي تهدي نفسك وتهنأ. نحن الآن جميعًا سعداء وأنت أيضًا أريدك أن تهنأ وتفرح وتهدي. والآن تصبح على خير. ثم يا بيتروشكا فأمامنا عمل غدًا يجب القيام به.. أنت يا أخي تعرفني جيدًا، فلا تفكر في شيء ما ولا تتخيل أوهامًا لا أساس لها.

بعد أن قال السيد جوليادكين هذه العبارة، توقف في منتصف الغرفة وتساءل في نفسه ما إذا كان قد أسرف في الحديث مع خادمه. «هكذا أنا دومًا.. أبالغ في كل شيء وأتجاوز كل الحدود». خرج صاحبنا من غرفة بيتروشكا وهو غير راض عن نفسه. وزاد من انزعاجه تلك المعاملة الفظة من قبل خادمه. قال في نفسه: «هكذا هي العادة عندما تكرم لئيمًا. فهذا سيد يتلطف مع خادمه، فإذا بالأخير لا يشعر بذلك ولا يقدر ذلك. هؤلاء الخدم كلهم من صنف واحد». وعاد السيد جوليادكين إلى غرفته وهو يجاهد للوقوف على قدميه ثابتًا، وعندما رأى أن ضيفه قد تمدد تمامًا في السرير، جلس بقربه لحظة وقال بصوت خافت وهو يهز رأسه: «يجب أن تعترف يا ياشا. لا بدّ وأنت مذنب في حقي أيها الماكر الحقير. أليس كذلك؟ إنك تحمل اسمي ولقبني. وتعرف أن... أنت تعرف كل شيء.».

قال السيد جوليادكين ذلك بلهجة مازحة وبدون تكلف. وبعد أن ودّعه بودّ، ذهب إلى فراشه وكان ضيفه يغط في نوم عميق. تمدد السيد جوليادكين هو أيضًا، وأخذ يخاطب نفسه مبتسمًا: «لا بدّ وأنت سكران يا عزيزي ياكوف بيتروفيتش. يا لك من وغد. ما أنت إلا مجرد جوليادكين وهذا هو الاسم الذي يليق بك.. ولكن ما الذي يُفركك هكذا؟ ستدفع الثمن غالبًا غدًا. لقد أرهقتني معك ويئست منك تمامًا. لا أمل فيك مطلقًا».

وهنا أحسّ السيد جوليا دكين بشعور غريب سيطر على كيانه كله، وكأنه مزيج بين الريبة والندم. فكّر في نفسه

«أتراني كعادتي بالفت في الأمر؟ أنا الآن مخمور ورأسي يدور.. ما أنا إلا أبله أحمق، ومن المؤكد أنني نطقت بالكثير من التفاهات والهراء.. يا لي من شخص فارغ تافه.. نعم. أوافقك في أن الغفران وتناسي الإساءة هو أمر محمود وفضيلة من الفضائل، ولكن هذا لا ينفي أنني ارتكبت خطأ، وهذا واضح جلي كوضوح الشمس». قال السيد جوليا دكين ذلك، ثم نهض وأمسك بالشمعة وتسلسل على أطراف أصابعه إلى حيث يرقد الضيف، ووقف طويلاً بالقرب منه يفكر ويتأمل «بدا المشهد غير سار.. بدا مدعاة للسخرية.. مدعاة للسخرية لا أكثر».

وأخيراً أوى السيد جوليا دكين إلى فراشه، كانت الأفكار تعصف برأسه محدثةً فوضى وصخباً هائلاً فيها. وبدأ يفقد الإحساس بما حوله شيئاً فشيئاً.. جاهداً أن يسترد وعيه ويفيق، وحاول أن يمسك بفكرة معينة ويركز فيها أو يتذكر أمراً بعينه ذا أهمية، أو مسألة خطيرة ودقيقة تمسه عن قُرب، إلا أن محاولاته كلها باءت بالفشل. غلبه النوم واستولى على رأسه الصاخبة، فنام كما ينام من لم يعتدّ الشراب بعد أن يمضي سهرة وردية ويحتسي فيها خمس كؤوس من الخمر.

## الفصل الثامن

وكعادته استيقظ السيد جوليا دكين في تمام الثامنة من صباح اليوم التالي، واستعاد من فوره ذكريات الليلة السابقة. وما إن تذكّر حتى عبس وجهه وقال لنفسه وهو يهم من سريره وينظر إلى حيث يرقد ضيفه: «آه كم كنت أحرق ليلة أمس». ولكن ما أثار دهشته هو أنه لم يكن هناك أثر، ليس فقط للضيف، بل حتى للسريير الذي كان يرقد عليه في الغرفة. صرخ قائلاً: «ما هذا؟ ماذا عساه يكون؟ ما هذا الذي حدث؟ وما الذي استجد اليوم؟ فغر فاه وأخذ يفكر ويتساءل في نفسه ولا يستطيع الإجابة عن أي من هذه الأسئلة، وظلّ طوال الوقت ينظر إلى المكان الخالي. رنّ صرير الباب ودخل بيتروشكا يحمل صينية الشاي. سأل السيد جوليا دكين بصوتٍ خافتٍ، وهو يشير إلى المكان الذي كان يحتله الضيف بالأمس: «أين هو؟ أين عساه يكون؟» لم يرد بيتروشكا بشيء، ولم ينظر إلى سيده، بل حوّل بصره إلى اليمين، حتى إن السيد جوليا دكين وجد نفسه مضطراً إلى النظر لنفس الزاوية. وبعد فترة من الصمت أجاب بيتروشكا بصوت أجش وفظ: «السيد ليس بالمنزل».

تمتم السيد جوليا دكين بصوت متقطع وهو يحدق في وجه خادمه:

- أنت غبي. سيدك هو أنا يا غبي.

لم يجب بيتروشكا بشيء، بل ظلّ ينظر إلى السيد جوليا دكين، حتى إن الأخير احمرّ خجلاً. كانت نظرتة إلى سيده تفوح بالغضب والاستياء، وكأنه يوبّخ سيده بأدب. استسلم السيد جوليا دكين كما يقال. قال بيتروشكا إن جوليا دكين الثاني قد غادر منذ ساعة ونصف تقريباً، ولم يشأ الانتظار. كانت إجابة الخادم منطقية، وكان واضحاً أنه لا يكذب، وأن نظرتة المتسائلة واستخدامه كلمة «جوليا دكين الثاني» ما هو إلا مصادفة بحتة، ونتيجة لهذا الشبه العجيب بين الرجلين.

أدرك السيد جوليا دكين، وبشكل مبهم، أن الأمور في طريقها إلى مزيد من التصاعد والتوتر، وأن قدره ما زال يخبئ له المزيد من المفاجآت غير السارة. فكَرَّ في أعماق نفسه: «حسنًا سنرى. سنرى كل شيء في حينه وسنكتشف كل شيء في الوقت المناسب.. آه يا إلهي؟ لماذا قمت بدعوته إلى منزلي؟ لماذا أقوم بتصرفات غير محسوبة هكذا؟ ماذا كنت أريد من وراء ذلك؟ لا سبب إلا أنني أود توريث نفسي في المكيدة التي دبَّرها لي هؤلاء اللصوص. أنا المذنب، وأنا مَنْ أشنق نفسي بيدي. يا لي من أحق غيبي، آه من عقلي. عقل مجنون. لا أهدأ أبدًا ودائمًا أتصرف مثل صبي أو كاتب صغير أو امرأة رخيصة. أحب القيل والقال كالنساء. هذا أنا.. آه يارب ارحمني. لقد سمعت هذا الوغد طويلًا. حتى إنه قرأ لي أشعارًا. وأفاض في التعبير عن حبه لي. كيف لي أن أردته عني إذا عاد؟ بالطبع هناك العديد من السبل والوسائل. كأن أقول له مثلًا: «يا صاحبي. إن راتبي صغير.. أو أن أخيفه بالقول، أنه لا بُدَّ إذا أراد الإقامة معي أن يشاركني بدفع نصف نفقات السكن والطعام، وأن عليه أن يدفع مقدمًا.. لا. إنها فكرة سخيفة.. لا. لا. يا للجنة. لا. هذا شيء سيء إليّ. فهو غير لائق على الإطلاق. لعلني أستطيع أن أجد طريقة أخرى... مثلًا أن أطلب من بيتروشكا أن يعامله بفضاظة، وألا يظهر له الاحترام اللائق، وأن يعبس في وجهه، وبهذه الطريقة نصرفه عنا. نعم. هذه هي الطريقة. هكذا يجب أن نفعل.. ولكن هل أتركهما يتصارعان سويًا... لا. اللعنة.. لا. هذا أمر خطير، وهو تصرف غير لائق من ناحية أخرى. وماذا إذا لم يعد؟ هل سيكون ذلك بالأمر السيئ؟ لقد أسرفت في الحديث معه بالأمس وأنا من بادرت إليه. هذا أمر سيئ. سيئ تمامًا. موقفنا سيئ للغاية. آه يا رأسي. رأسي مصابة باللعنات. لا يمكنني أن أفكر على نحو سليم، وأرتب أفكارى جيدًا. أنا عاجز عن السيطرة على عقلي. عقلي المسكين الضعيف.. ماذا إذا عادَ ورفض عرضي هذا؟ لينته يعود.. أدعو الرب أن يعود. سأكون سعيدًا للغاية.. لو عاد.» هكذا كان يفكر السيد جوليا دكين وهو يحتسي الشاي ويراقب الوقت من خلال ساعة الحائط.

«ها قد حانت الساعة التاسعة إلا الربع. عليَّ أن أذهب الآن. ماذا سيحدث لي؟ هل سيحدث لي مكروه؟ ليتني أعرف ما دبَّرت لي بالليل. ماذا يُضمرون لي في الخفاء؟ ما هو هدفهم وما

خطتهم وماذا عن نواياهم؟ ليتني أعرف على وجه الدقة ما يرمي إليه هؤلاء السادة وما هي خطوتهم الأولى لتحقيق ذلك؟»

لم يستطع السيد جوليا دكين الصبر أكثر من ذلك فألقى بغليونه وهو بعد ممتلئ، وسارع إلى ارتداء ملابسه وهُرع إلى مكتبه أملاً منه في تجنب أيّ خطرٍ والتأكد بنفسه مما سيجري. فالبلاء قادمٌ لا محالة، وهو يعرف ذلك جيداً. كان يوقن بذلك. ردّد السيد جوليا دكين وهو يخلع معطفه وغطاء حذائه عند مدخل المكتب: «ها أنا ذا. فلنكشف السر ونستوضح الأمر كله». وبعد أن عزم على ذلك أصلح من نفسه ومن هندامه، ورسم على وجهه مظهرًا جادًا وقورًا ورسميًا، وما إن همّ بالدخول إلى الغرفة المجاورة، حتى اصطدم على الباب بضيف الأمس، صديقه ورفيقه المجهول. بدا أن السيد جوليا دكين الأصغر لم يلحظ السيد جوليا دكين الأكبر، رغم أنهما كانا يقفان وجهًا لوجه. كان السيد جوليا دكين الأصغر مشغولاً على ما يبدو، وفي عجلة من أمره، ويتنهد في ضيق، ومظهره رسمي للغاية، ومن السهل لمن يراه أن يفهم أنه مكلف بتنفيذ أمرٍ ما مهمٍّ من رئيسه.

قال صاحبنا وهو يمسك بيد ضيف الأمس:

- ها.. هذا أنت يا ياكوف بيتروفيتش!

صاح جوليا دكين الأصغر وهو يمضي قدماً خطوتين للأمام:

- فيما بعد، فيما بعد، سأستمع لك فيما بعد، المعذرة..

- لكن يا ياكوف بيتروفيتش اسمح لي. يبدو لي أنك كنت ترغب في...

- ماذا تقول؟ اختصر. تحدّث بسرعة...

توقف ضيف السيد جوليا دكين، وقد بدا على وجهه أنه يفعل ذلك رغماً عنه، وقرّب أذنه إلى أنف السيد جوليا دكين.

- سأقول لك شيئًا يا ياكوف بيتروفيتش. أنا مستغرب من استقبالك لي على هذا النحو...  
أعتقد أنه من حقي أن أتوقع شيئًا آخر..

- يجب اتباع الأصول عند كل تصرف، لا بدّ من احترامها. اذهب إلى السكرتير الخاص  
بصاحب السعادة وقدم طلبًا مستوفيًا الشروط إلى مدير المكتب. هل لديك طلب ما؟

- أنت، أنا لا أفهم شيئًا يا ياكوف بتروفيتش. أنت تدهشني بتصرفاتك تلك. يا ياكوف  
بيتروفيتش. هل تقصد فعلاً ما تقول؟ هل أنت فعلاً لا تعرفني؟ أم أنك تمزح كما هي  
عادتك؟

أجاب السيد جوليادين الأصغر وكأنه لم يتعرف على السيد جوليادين الأكبر إلا في تلك  
اللحظة:

- آه.. هذا أنت؟ هذا أنت؟... هل نمت جيدًا؟

وابتسم قليلاً وكانت ابتسامته رسمية ووقورة لا تتناسب واللحظة الراهنة (في كل  
الأحوال كان السيد جوليادين الأصغر مديئًا بالفضل والشكر للسيد جوليادين الأكبر).

وهكذا، وبعد أن ابتسم على نحوٍ رسميٍّ مُصطنعٍ أردف قائلاً إنه من ناحيته سعيدٌ أيما  
سعادة أن السيد جوليادين قد تنعم بنوم عميق، ثم انحنى قليلاً وأخذ يتململ في مكانه  
وينظر يمينًا ويسارًا، ثم خفض عينيه وهدق إلى أقرب باب وتمتم وهو يقول إن عليه  
الذهاب لإنهاء أمر عاجل قد كُلف به وهرع مثل البرق إلى الغرفة المجاورة.

همس صاحبنا وقد تصلّب في مكانه للحظات: «شيء غريب.. شيء غريب حقًا.. هكذا هو  
الأمر إذًا».

وهنا شعر السيد جوليادين بجسده يرتعد. واصلَ يحدث نفسه وهو يلج إلى مكتبه: «ومع  
ذلك فقد توقعت كل شيء منذ زمن، لقد توجست خيفةً من هذا كله، وأن هذا الرجل جاء

في مهمة خاصة كلفه بها أحدهم».

سأل أنطون أنطونوفيتش السيد جوليا دكين عندما جلس الأخير بالقرب منه:

- هل انتهيت بالأمس من نسخ الأوراق يا ياكوف بيتروفيتش؟ هل هي معك الآن؟

أجابه السيد جوليا دكين متممًا وهي يرمق رئيسه بنظرة تائهة:

- هنا.. معي.

- حسنًا. لقد سألتك عن ذلك لأن أندريه فيليبوفيتش قد طلبها مرتين حتى الآن.. ولذا توقع أن يطلبها بعد قليل..

- لا يا سيدي. لقد انتهيت منها. وهي جاهزة.

- حسنًا. حسنًا. ممتاز.

- لقد كنت يا أنطون أنطونوفيتش دومًا خير مثال للموظف الذي يقوم بواجباته الوظيفية كما يجب، وكنت دومًا أسعد عندما يكلفني رئيسي بأي عمل وأقوم بإنجازه بكل جدية.

- نعم. بالتأكيد. لكن ماذا ترمي من وراء ذلك؟

- لا شيء يا أنطون أنطونوفيتش. أنا فقط أردت أن أقول لك يا أنطون أنطونوفيتش.. أقصد... أردت أن ألفت نظرك إلى أن الحسد والنوايا الشريرة لا يستثنيان أحدًا، وأحسبهما مثل وحش كاسر لا يكفل من السعي لانتهاك طعامه اليومي البغيض.

- سامحني، ولكنني أعجز عن فهمك. إلى من تلمح بهذا الكلام؟

- وددت أن أقول لك فقط يا أنطون أنطونوفيتش إنني أسير قديمًا في طريقي، وأبغض الطرق والأساليب الملتوية، وإنني لست من محبي المكر والمكيدة، وأستطيع أن أفخر بذلك

إذا سنحت لي الفرصة يومًا ما.

- نعم يا سيدي. هذا هو الواقع. ورأيي وقناعاتي تتفق تمامًا مع ما قلته، ولكن اسمح لي يا ياكوف بيتروفيتش أن ألفت انتباهك إلى حقيقة أن الأمور الشخصية غير مسموح بتناولها في المجتمعات الراقية، وأنا من جهتي أستطيع أن أسامح شخصًا أساء لي في غيابتي، ولكن لن أسمح أبدًا أن يوجّه أحدهم لي إهانة في وجهي. لقد هرمت يا صديقي وأنا أخدم هذا البلد، ولن أسمح بعد كل هذا العمر أن تهان كرامتي وأنا في هذا العمر.

- لا يا سيدي. لست هذا ما قصدته يا أنطون أنطونوفيتش.. ليس هذا ما أقصده... يبدو لي يا أنطون أنطونوفيتش أنك لم تفهمني تمامًا... من ناحيتي يا أنطون أنطونوفيتش لا يمكن أن أتصور أن من الشرف أن أقبل...

- أرجو أن تعذرني أنت أيضًا. لقد تربى جيلي على التقاليد القديمة، وفات الأوان الآن لأن نتعلم أسلوبكم الجديد في الحياة أو نتبناه. يبدو لي من ناحية أخرى أننا قد أظهرنا القدر الكافي من التفاني والحكمة في خدمة الوطن. وأنت تعرف بالتأكيد أنني أحمل وسامًا رفيعًا تقديرًا لخدماتي لهذا الوطن طيلة عشرين عامًا.

- طبعًا يا أنطون أنطونوفيتش، أقدر كل ذلك من جهتي. ولكني كنت أتحدث عن شيء آخر.. كنت أتحدث عن القناع يا أنطون أنطونوفيتش.. القناع الذي يرتديه البعض على وجوههم.

- القناع؟

- مرة أخرى.. أخاف أن تسيء فهمي مرة أخرى. أقصد أن مغزى كلامي يتفق تمامًا مع ما تقوله يا أنطون أنطونوفيتش. كل ما أفعله هو أنني أطوّر النقاش في الموضوع والفكرة الرئيسية يا أنطون أنطونوفيتش، وأقول إن الناس الذين يرتدون الأقنعة كثير في هذا الزمان حتى إنه أصبح من الصعب على الإنسان أن يتعرف على الوجوه الحقيقية للبشر..

- لا يا سيدي. ليس صعبًا على الإطلاق. بل إنه أحيانًا شيء في غاية السهولة، وأحيانًا لا يتكبد المرء أيَّ عناء ليكتشف ذلك..

- لا يا سيدي.. هل تعلم يا أنطون أنطونوفيتش، أنا أتحدّث هنا عن نفسي. على سبيل المثال. أحيانًا أنا أيضًا أرتمي قناعًا، ولكن ذلك يحدث عند الضرورة فقط. مثلًا عندما أَدعى إلى مهرجان أو حفل تنكري أو أمسيات للمرح واللّهو. أتحدّث عن المعنى الحقيقي لا المجازي بالطبع. ولكنني لا أرتمي القناع كل يوم كما يفعل البعض حين أتعامل مع الناس من حولي. أقصد هنا المعنى المجازي والرمزي للكلمة. هذا ما قصدته يا أنطون أنطونوفيتش.

أجاب أنطون أنطونوفيتش وهو ينهض من كرسيه ويجمع أوراقه ويتجه لمكتب صاحب السعادة:

- حسنًا. نعم. دعنا من كل هذا الآن. ليس لديّ وقت للنقاش.. أما عن حالتك فأنا متأكد أنك سرعان ما ستفهم ما أقول، وستعلم حينها من الذي يقع عليه اللوم ومن الذي يجب أن تُوجّه إليه التهم، وعندها سأرجو منك أن تعفيني من تقديم الشروح والمبررات مستقبلاً وإضاعة الوقت فيما لا يفيد، بل ويضر بالعمل.

شحبَ وجه السيد جوليا دكين قليلاً وهو يتتبع أنطون أنطونوفيتش بنظراته وتمتم يقول:

- لا يا أنطون أنطونوفيتش.. لم أكن أقصد يا أنطون أنطونوفيتش. أنا يا سيدي. لم أكن أبداً أعتقد يا أنطون أنطونوفيتش...

ثم أكمل في سرّه يقول: «ما هذا الذي يحدث؟ ما هذه العاصفة التي تحرق بي؟ ما مغزى هذا التصرف؟»

وفي اللحظة التي كان فيها صاحبنا المحطم والمهزوم والتائه يحاول الإجابة عن هذا السؤال الجديد سمع جلبة شديدة في الغرفة المجاورة، وسرعان ما فهم أنها مرتبطة بالعمل، وفجأة فتح باب الغرفة ودخل أندريه فيليبوفيتش وعلى وجهه علامات الغضب.

كان قد ذهبَ قبل قليلٍ إلى مكتبِ صاحبِ السعادة لإنهاء بعض الأعمال. صاح في السيد جوليا دكين. ولما كان الأخير يعلم مسبقًا بما سيحدث، ولم يشأ أن يرغم أندريه فيليبوفيتش على الانتظار طويلاً فهبَّ من فورهِ من كرسيهِ وتحركَ مسرعًا وتناولَ ملفًا ونفضَ عنه الغبار وتأهبَ للسير خلفَ أندريه فيليبوفيتش محتميًا بملفِ الورق الذي كان في يده متجهين إلى مكتبِ صاحبِ السعادة. وفجأة ظهر السيد جوليا دكين الأصغر كمن انسل من بين يدي أندريه فيليبوفيتش الواقف على عتبة الباب وبدأ متعبًا وغازقًا في العمل، وأقبل على السيد جوليا دكين الأكبر وهو يصطنع مظهرًا رسميًا جادًا ووقورًا، والذي تفاجأ بدوره بهذا الهجوم المباغت منه.

همسَ رفيقُ السيد جوليا دكين الأكبر بصوتٍ خافتٍ وسريعٍ قائلاً:

- الأوراق يا ياكوف بيتروفيتش. أندريه فيليبوفيتش ينتظرك. صاحب السعادة يسأل هل هي جاهزة؟

دمدم السيد جوليا دكين الأكبر بصوت هامس وسريع هو أيضًا:

- لست في حاجة إلى أن تخبرني أنه ينتظرني. فأنا أعرف ذلك.

- لا. يا ياكوف بيتروفيتش. ليس هذا ما قصدت أن أقوله. ليس هذا على الإطلاق. أنا أتعاطف معك يا ياكوف بيتروفيتش بكل جوارحي.

- أرجو أن تعفيني من ذلك... من تعاطفك هذا... لو سمحت يا سيدي... لو سمحت..

- بطبيعة الحال ستضع الأوراق في ملف يا ياكوف بيتروفيتش، وضَع فاصلًا عند الورقة الثالثة ودوّن عليها ملاحظتك.. اسمح لي يا ياكوف بيتروفيتش..

- بل اسمح لي أنت... دعني وشأني

- انظر إلى بقعة الحبر هذه يا ياكوف بيتروفيتش. هل لاحظت بقعة الحبر هذه؟

صاح أندريه فيليبوفيتش مرة ثانية يطلب السيد جوليا دكين.

- حالاً يا أندريه فيليبوفيتش. أنا فقط. أنا هنا... ماذا دهاك يا سيدي الكريم؟ هل تفهم الروسية؟

- أفضل طريقة هي أن تزيل هذه البقعة بسكينٍ صغيرٍ يا ياكوف بيتروفيتش.. صدقني هذا هو الحل الأفضل. من الأفضل لك أن تعتمد عليّ في ذلك. لا تقم بذلك. اترك هذا العمل لي يا ياكوف بيتروفيتش. سأحكّ الحبر بسكينٍ صغير.

دوّى صوت أندريه فيليبوفيتش للمرة الثالثة.

- ولكن سامحني، أين هي بقعة الحبر تلك. يبدو لي أنه لا وجود لبقعة حبر على الإطلاق.

- بل هي موجودة.. بقعة ضخمة. ها هي. اسمح لي لقد رأيتها هنا.. اسمح لي.. هل تسمح لي يا ياكوف بيتروفيتش؟ سأقوم بإنهاء الأمر باستخدام سكينٍ صغيرٍ. أقوم بذلك محبة فيك يا ياكوف بيتروفيتش، وأفعل ذلك بكل نية طيبة.. سأقوم بذلك وينتهي الأمر.

وهنا وعلى غير المتوقع وبدون أسباب وبعد أن انتصر في هذا النقاش الصغير، قام السيد جوليا دكين الأصغر بخطف الأوراق التي كان يطلبها صاحب السعادة من يد السيد جوليا دكين الأكبر، على الرغم من مقاومة الأخير. وبدلاً من أن يزيل بقعة الحبر المزعومة كما كان يدعي كذباً ورياء للسيد جوليا دكين الأكبر، فقد طوى الملف ووضع تحت إبطه وهرعَ إلى أندريه فيليبوفيتش، الذي لم يلحظ كلَّ ما قام به من حيلٍ ماهرة، واتجه الاثنان إلى مكتب المدير.

ووقف صاحبنا في مكانه ممسكاً بالسكين الصغير، حيث كان يستعد لكشط بقعة الحبر على ما يبدو.. بدا عاجزاً عن فهم ما يحدث.. وبقي هكذا حائراً تائهاً. لقد شعر بالضربة بقوة، وتأثر أليماً تأثر، ولكنه اعتقد أن الأمر لا يعدو كونه أمراً بسيطاً. ظلَّ هكذا حائراً مضطرباً

قلقًا، وفي أثناء ذلك تحرَّك من مكانه بصعوبة وتوجَّه بسرعة إلى مكتب المدير، وهو يمتُّي نفسه ويدعو ربه أن يجد له مخرجًا من هذه المشكلة.

وفي القاعة الأخيرة قبل الدخول إلى مكتب المدير، التقى صاحبنا بأندريه فيليبوفيتش وجهاً لوجه وبرفقته الرجل الذي يحمل نفس لقبه واسمه. كانا عائدين من مكتب صاحب السعادة. تنحَّى السيد جولياديكين جانبًا. كان أندريه فيليبوفيتش يتحدث مع السيد جولياديكين الأصغر وهو يبتسم. فيما كان الأخير يبتسم أيضًا وهو يتزلف ويسير خلفه على بُعد خطوة احترامًا له وتوقيرًا. وكان يهمس إليه من حينٍ لآخر فيجيبه أندريه فيليبوفيتش بلطفٍ وهو يهز رأسه.

وهكذا وفي لحظةٍ واحدةٍ أدرك صاحبنا كلَّ ما في الأمر. الحقيقة أنه كان يؤدي عمله بشكلٍ يفوق توقعات صاحب السعادة، ودائمًا ما كان يُنهي التكاليفات في الموعد أو حتى قبل الموعد المقرَّر. ويبدو أن صاحب السعادة مرتاح كل الارتياح وراضٍ تمام الرضا عنه. وربما أيضًا كان صاحب السعادة قد وجَّه إلى السيد جولياديكين الأصغر عبارات الشكر والثناء ووعده بمكافأته على عمله في المستقبل، وأنه لن ينسى ذلك أبدًا.

وكان من الطبيعي أن أول شيء، أو أول ردِّ فعل يمكن أن يصدر من السيد جولياديكين الأكبر هو الاحتجاج.. الاحتجاج بكل ما أوتي من قوة.. ولذا فقد اندفع وهو لا يشعر بما يفعل وقد شحبَ وجهه واصفرَّ كمن على شفي الموت، وهَرع في اتجاه أندريه فيليبوفيتش. غير أن هذا الأخير رفض أن ينصت إليه معتبرًا أنها مسألة شخصية، حتى إنه لفت نظره بقسوة إلى أنه ليس لديه رفاهية الوقت للاستماع لمشاكل شخصية لموظفيه.

بُهِتَ السيد جولياديكين من درجة الجفاء والخشونة في رفض مطلبه. وبدا أنه قد تأثر كثيرًا. قال في نفسه: «ربما من الأفضل أن أحدثه في ذلك بشكل غير مباشر.. ربما أطلب من أنطون أنطونوفويتش أن يساعدني..». ولكن ولسوء حظه، كان أنطون أنطونوفويتش غائبًا في تلك اللحظة، حيث استدعي هو أيضًا لعمل مهم.

فكّر ثانية: «أنا على يقين أن هناك سببًا ما جعله يرفض الاستماع إلى مبرراتي وتفسيرتي لما حدث. هذا اللعين المسنّ. حسنًا.. لم يبقَ أمامي في هذه الحالة إلا أن أذهب إلى صاحب السعادة وأتوسل إليه أن يسامحني.»

خرّ السيد جوليادكين على أحد الكراسي وهو ما زال يعاني من الحيرة ووجهه شاحب مصفر وعقله مضطرب، تتنازعه الشكوك وتمزقه الريبة وعاجز عن التصرف.. كان يردّد في نفسه طوال الوقت «سيكون من الأفضل بالتأكيد أن يكون كلُّ ما حدث هو محض صدفة، وأنه لا يحمل أيّ دلالة. فالحق أنه أمرٌ لا يُصدّق وغامض.. إنها مجرد تفاهات، كما أنه من المستحيل وقوع كلِّ هذا. لا شكّ في أنّ كل ما يحدث ما هو إلا حلم ولا علاقة له بالواقع... لا شكّ أن من ذهب إلى المدير هو أنا.. ولكنني أحسبني شخصًا آخر.. باختصار كلُّ هذا مستحيل.. مستحيل تمامًا.

وما إن وصل إلى هذه النتيجة، وأن كل ما يحدث حوله هو شيء غير معقول وغير ممكن، حتى طرّق الباب ودخل السيد جوليادكين الأصغر إلى الغرفة يحمل أوراقًا في يديه وتحت إبطه. وفيما كان يسير همس بكلمتين عابرتين إلى أندريه فيليبوفيتش لعلها كلمات مهمّة، كما تبادل بعض العبارات مع أحد الموظفين، وداعب شخصًا ثالثًا ومازح دون تكليف شخصًا رابعًا وبدا أن السيد جوليادكين الأصغر غير مستعدّ لإضاعة وقته في أمورٍ تافهة.. وأثناء خروجه من الغرفة استوقفه اثنان أو ثلاثة من الموظفين - ربما لحسن حظ السيد جوليادكين الأكبر- عند باب الغرفة. أسرع السيد جوليادكين الأكبر إليه. وما إن لمحّه الأخير حتى فهم ما يريد، وأخذ يبحث عن مخرجٍ للتملص منه وعلى وجهه علامات الحيرة والارتباك. أمسك صاحبنا بكمّ فابتعد الموظفون الذين كانوا بصحبته وأخذوا يرقبون ما يحدث. كان السيد جوليادكين - الموظف القديم - يعرف أن تعاطف هؤلاء ليس معه بل مع جوليادكين الثاني، وأن هناك من يكيّد له المكائد؛ ولذا كان عليه الآن أن يؤكد حقيقة موقفه ويثبت حقه. كانت تلك لحظة حاسمة.

قال السيد جوليادكين الأصغر وهو يحدّق إلى السيد جوليادكين الأكبر بوقاحة:

- نعم.. ماذا تريد؟

كان السيد جوليا دكين الأكبر بالكاد يستطيع التنفس. قال:

- لا أعرف أيها السيد الكريم. لا أفهم سلوكك الغريب معي.

أجابه السيد جوليا دكين الأصغر وهو ينظر حوالبه ويغمز بعينه إلى الموظفين والمحيطين بهما ولسان حاله يقول أن يتأهبوا لمشاهدة كوميديا هزلية بعد قليل:

- حسنا يا سيدي. أكمل ما تريد.

- إن الأساليب الوقحة والفضة التي تستخدمها أيها السيد الكريم في تعاملك معي في الفترة الأخيرة تفضحك وتدينك أكثر من أية كلمات أقولها لك. لا تعول كثيرا على هذه الألاعيب. لن يرجى منها أي خير.. يجب أن تعلم ذلك.

قال السيد جوليا دكين الأصغر محققا في عينيه:

- دعك من ذلك يا ياكوف بيتروفيتش. قل لي هل نمت جيدا ليلة أمس؟

رد صاحبنا وهو يبدو تائها غائبا، وبالكاد يسمع ما يدور حوله وبالكاد قدماه تحملانه:

- أنت تنسى نفسك أيها السيد الكريم. أمل أن تغيّر من لهجتك في الحديث معي..

أجابه السيد جوليا دكين الأصغر وقد كشر عن وجهه، ونظر بحنق مستفز إلى السيد جوليا دكين الأكبر:

- نعم.. يا روجي!

وفجأة وعلى غير المتوقع مطلقا قام وكأنه يداعبه ومسك خده الأيمن بإصبعيه بقوة. فاغتاظ صاحبنا كثيرا حتى إنه عجز عن النطق واحمرّ وجهه وارتعدت فرائصه. ولما أدرك

رفيقه أن صاحبنا قد أوشك على أن يفقد صبره، وأنه على وشك أن يضربه، فقد سارع إلى القيام بذلك أولاً، وبطريقه وقحة، فأخذ يربت على كتفيه ويقرصه في خديه حتى يمتع الحضور الذين يشاهدون ما يحدث، ثم إذا به يقوم بالشيء الأكثر غطرسة في المشهد، فضرب كرش صاحبنا الضخم وهو يبتسم ساخرًا ويغمز لمن حوله ويقول: «يا لك من خبيث يا عزيزي ياكوف بيتروفيتش.. أتتذكر؟.. سندبر لهم المكائد.. سنكيد لهم يا ياكوف بيتروفيتش...ها». ولم يعط لصاحبنا أي فرصة للتعافي من هذا الهجوم، فاصطنع مظهرًا جادًا رسميًا وهيئة رجل مشغول للغاية، فأطرق بنظره وعقد حاجبيه ودمدم مسرعًا «لدي أمور عاجله يحب عليّ القيام بها». ثم أطلق ساقيه القصيرتين وخرج إلى الغرفة المجاورة. وكان قد نجح في توجيه ابتسامة خفية للحضور الذين وقفوا يشاهدون ما يحدث.

ظلّ صاحبنا هكذا لحظات في حيرته وذهوله، ولما أفاق أدرك أنه قد انتهى، وأنه أصبح مادة للسخرية، وأن سمعته قد تلطخت وكرامته قد أهينت أمام الغرباء، وأنه تلقى إساءات من رجلٍ كان يعتبره صديقًا له حتى الأمس، صديقه الأقرب والذي يعول عليه. لقد فقد سمعته إلى الأبد.

اندفع السيد جولياديكين يلحق بعدوه وهو غير مهتم على الإطلاق بمن يشاهد، ولا يكثر بأحد. تتمم في نفسه «كلهم خونة، تأمروا عليّ ويتحالفون معًا في الشر ولا هدف لكل منهم إلا في الإضرار بغيره». وما إن قطع مسافة عشرة أمتار حتى رأى بوضوح أن ملاحقته تلك لا أمل ولا جدوى منها، فعاد مرة أخرى. فكّر في نفسه: «لن تفلت مني. ستقع في يدي يومًا ما.. عاجلاً أم آجلاً.. وعندها سيعاقب الذئب على دموع الحمل». وصل السيد جولياديكين إلى كرسيه فجلس عليه وقسمات وجهه تفوح ببرودٍ شديدٍ وتصميم بالغ. قال مرة أخرى: «لن تفلت!». لم يعد الدفاع عن النفس هو ما يشغله بل كان وجهه يعكس عزمًا قويًا على الهجوم على عدوه وكل من رأى السيد جولياديكين في تلك اللحظة، ولاحظ كيف احمرّ وجهه غضبًا، وراح يمسك بقلمه ويكتب بتوتر شديد وغضب واضح لأنه يتوقع بالتأكيد أن الأمر لن يتوقف عند هذا الحد، وأن صاحبنا لن يكتفى بردة الفعل المبتذلة تلك، وأنه قد اتخذ قرارًا ما جازمًا في نفسه، وأنه قد أقسم أن ينفذه في أقرب فرصة.. والحق أقول إنه

لم يكن يعرف تمام المعرفة كيف عليه أن يتصرف، والأحرى أنه لم يكن لديه أي تصور عن ذلك ولكن لا بأس.

«إن الادعاء والوقاحة لا يجديان نفعًا في هذا الزمان أيها السيد الكريم. الادعاء والوقاحة لن يصلا بك إلى السعادة أيها السيد الكريم. ربما يمنحناك القوة ولكن ليس السعادة. جريشا أوتريبييف(\*\*\*\*) وحده استطاع الوصول إلى أهدافه عن طريق اغتصاب اسم ولقب رجلٍ آخر، ونجح بذلك في خداع شعبٍ أعمى، ولكن ذلك لم يستمر طويلًا على كلِّ حالٍ». ورغم ذلك قرَّر السيد جولياديكين الانتظار حتى تسقط الأقنعة من تلقاء نفسها، فتفضح وجوه الناس وتعريها وتكشف عن حقيقتها؛ ولهذا كان عليه الانتظار حتى تنتهي ساعات الدوام في أقرب وقتٍ، ويخرج من المبنى، وعندها ستتجلى أمامه خطة واضحة لتحطيم هذا الوغد المتعالي وسحق هذه الأفعى التي لا تستحي أن تأكل لحم المَيْتَةِ، وتهزأ ممن هم أضعف منها. لم يكن في مقدور السيد جولياديكين أن يقبل أن يُعامل بازدراء مثل قطعة قديمة من قماش تمسح فيها الأحذية القذرة. لا يمكنه القبول بذلك. ولا سيما في الظرف الراهن. ولولا هذه الإساءة الأخيرة كان ليكبح جماح نفسه ويلتزم الصمت والخضوع وعدم الاحتجاج، وأن يقبل بالمصالحة دون إصرارٍ على رأيه بعنادٍ.. كان من الممكن أن يتظاهر قليلاً ليؤكد على حقِّه الذي لا تنازل عنه وربما يقبل بعض التنازلات في أول الأمر ثم يقبل بأخرى ثم ربما يقبل بالتنازل تمامًا والتصالح مع عدوه خاصة إن اعترف الطرف الآخر بذنبه أمام الحضور وعندها سيقبل بمصالحة تامة وربما يرق قلبه حتى إنه من الممكن أن يستحيل الخصام إلى صداقة جديدة قوية ومنتينة، ربما أقوى من علاقة الأمس.. من يدري. وربما استطاعت هذه الصداقة أن تمحو كل الرواسب والتبعات السيئة الناتجة عن هذا التشابه العجيب والذي لم يجلب إلا المشكلات حتى الآن، وحينها ينعم الموظفان الصديقان بالسعادة والحياة في سلام وسكينة أبدية.. ولننهِ الأمر تمامًا، بدا السيد جولياديكين يعاتب نفسه بعض الشيء على إقدامه على الدفاع عن نفسه ومهاجمة خصمه دون أن يحسب حسابًا للعواقب.

فكّر السيد جوليادكين قائلاً: «يكفيني أن يتراجع، ويعترف أنه كان يمزح فأعفو عنه وأسامحه على الفور.. وسوف أسامحه أكثر إذا قام بذلك في العلن وأمام الزملاء. إلا أنني لن أهين نفسي، ولن أصبح خرقة بالية مهما كان. لن أسمح لهؤلاء الناس بإهانتني أبداً، بل ولن أسمح لشخص منحرف بالتعدي على كرامتي فأنا لست خرقة بالية أيها السيد، لست خرقة بالية».

خلاصة القول إن صاحبنا قرّر أن السيد صاحب اللقب الشبيه هو المذنب. وقرّر أن يحتج بقوة وبكل السبل، وأن يدافع عن نفسه قدر استطاعته. هكذا كان طبعه. فهو لا يستطيع الخضوع والاستسلام للإهانة، ولا يقبل أن يدوسه الناس كما تداس الخرقة البالية. هو لا يقبل بذلك، ولا سيّما من شخص منحرف حقير كهذا الرجل. لا جدال في الأمر. لا جدال. قد يقبل ذلك من شخص مصمم على معاملته كخرقة بالية من قماش، ويقوم بذلك مراراً دون مقاومة تُذكر من صاحبنا ودون أي عواقب تُذكر من جهته. كان ليقتل صاحبنا ذلك في ظروف أخرى ربما وكان ليبدو خرقة بالية تماماً وليس السيد جوليادكين الذي نعرفه. كان ليبدو خرقة بالية متسخة ويرثى لها حقيقة ولكنه في الوقت نفسه خرقة ليست عادية وليست سهلة. خرقة لديها بعض الكرامة وبعض الطموح وبعض العاطفة وبعض الحماسة. ربما كانت عواطفها ضحلة قليلة، وربما كانت كرامتها ضعيفة ولكنها تبقى على أي حال عواطف وأحاسيس ومشاعر.

كان الوقت يمر ببطءٍ شديدٍ. دقت الساعة الرابعة. وبعد دقائق قليلة نهض الجميع تاركين مكاتبهم يتبعون رئيسهم إلى خارج المكتب عائدين إلى منازلهم. اندس السيد جوليادكين بين المغادرين وعيناه يقظتان تبحثان عن الرجل الذي لا يريد أن يفلته بأي حالٍ من الأحوال. وأخيراً رآه صاحبنا وهو يركض في اتجاه الفراشين القائمين على حراسة المعاطف. كان السيد جوليادكين الأصغر يتحدّث ويثرثر كعادته مع الفراش بانتظار الحصول على معطفه. كانت تلك لحظة فاصلة. شقّ السيد جوليادكين طريقه بين الصفوف وهو يدفع الناس عنه، حيث لم يرغب في أن يغيب الرجل عن عينيه للحظة. طلب معطفه هو أيضاً. ولكن صديق ليلة أمس تسلّم معطفه قبله. من الواضح أنه وصل قبله إلى

الفراش واستطاع بطريقته المتزلفة، وما عرف عنه من خسة وقدرة على الادعاء، أن يحصل على معطفه أولاً.

ارتدى السيد جوليا دكين الأصغر معطفه ونظر بسخرية إلى السيد جوليا دكين الأكبر. كان ذلك بمثابة استفزاز وتحذّر سافر وعلنيّ أمام النَّاس. ثم نظر بوقاحة شديدة وغطرسة ظاهرة حواليه، وأراد أن يبقى على ما تحقق له من نصرٍ على خصمه، فحاول أن يتبادل الحديث مع الزملاء فما هو يقول كلمة هامسة لهذا وأخرى للثاني ويلاطف الثالث ويبتسم لشخص رابع ويصافح أحدهم ثم يهبط الدرج وهو يكاد يرقص مرحاً فيسرع صاحبنا في أثره ليلحق به. وقد اندهش وسرّ كثيراً عندما أدركه عند أول درجة من السلم... أمسك به من ياقة معطفه.. وبدا على السيد جوليا دكين الأصغر الارتباك والحيرة ونظر بخوف حواليه، وبدا تائهاً بعض الشيء فهمس بصوت ضعيف لا يكاد يُسمَع:

- ما معنى ما يحدث؟

ردّ صاحبنا:

- أيها السيد الكريم. إذا كنت تتحلى بالتُّبَلِّ والوقار عليك أن تتذكر ما كان بيننا بالأمس من علاقة ملؤها المودة والصدقة.

- نعم.. نعم. حسناً إذاً. هل نمت جيداً بالأمس؟

جُنَّ جنون السيد جوليا دكين لدرجة أنه عجز عن النطق للحظات.

- نعم. لقد نمت نومًا عميقًا.. ولكن اسمح لي أن ألفتَ نظرك أيها السيد الكريم إلى أن لعبتك مكشوفة ولن تفلح مطلقًا..

- من يجرؤ على قول ذلك؟ لا بُدَّ أنهم أعدائي من يقول ذلك.

أجاب الرجل الذي يدعي أنه السيد جوليا دكين، وفي لمح البصر استطاع أن يفلت من بين يدي السيد جوليا دكين الضعيفة، وقفز من على الدرج بسرعة، ونظر حوالبه فرأى عربة فجرى نحوها مسرعاً وتلاشى بعيداً عن أعين السيد جوليا دكين الأكبر. بقي صاحبنا وحده يائساً ووحيداً ومنبوذاً من الجميع، ينظر حوله في الشارع فلم يجد عربة أخرى. حاول أن يركض فلم تسعفه قدماه. فاستند على أحد أعمدة الإنارة وقد خارت قواه وهو مطرق الرأس وفاغر الفم وظهره محني. مكث هكذا وقتاً طويلاً في منتصف الرصيف. وبدا للسيد جوليا دكين أن كل شيء قد ضاع، وأن حياته قد انتهت.

## الفصل التاسع

كان جميع الناس بل وجميع الأشياء بما فيها الطبيعة يتآمرون على السيد جوليا دكين، ولكنه لا زال صامدًا ولم ينكسر بعد. كان على استعداد لمواصلة القتال والمقاومة. أخذ يفرك يديه بقوة وحماسة بعدما أفاق من زهوله وصدمة الأولى تلك حتى إن كل من كان يراه في تلك اللحظة يعتقد أنه لن يرضخ لأحد أبدًا أيًا كان ومهما كانت الظروف.

كان الخطر رغم ذلك ما زال محددًا وجليًا، وكان السيد جوليا دكين نفسه يشعر بذلك. ولكن كيف السبيل إلى تجنبه، وإلى تفادي هذا الخطر؟ تلك هي المشكلة. راودته فكرة فجأة وللحظات: «أليس من الأفضل أن أنسى كل شيء، وأن أستسلم للأقدار، وأن أتراجع بكل بساطة؟ حسنًا إذا. حسنًا. لا بأس. سأبتعد عن كل شيء كأن الأمر لا يعنيني. وسأمضي قدمًا في طريقي. لن أتدخل. الأمر لا يعنيني وكفى. هو أيضًا له شخصيته المستقلة. لعله يذعن هو أيضًا ذلك الوغد. سيصطنع جلبة هنا وهناك ولكنه في النهاية سيعود ويتراجع.. نعم. سيفعل ذلك. وهكذا سأتمكن منه بفضل رضوخي واستسلامي ومهادنتي له. أين يكمن الخطر إذا؟ ليت أحدهم يشير إلى الخطر! إنه أمر تافه ومبتذل وعادي.

وهنا توقّف السيد جوليا دكين وعجز عن مواصلة التفكير للحظات، ثم أخذ يلوم نفسه بشدة على هذه الفكرة حتى إنه وصف نفسه بأنه شخصٌ حقيّرٌ دنيءٌ وجبان. غير أن ذلك لم يساعده في حلّ المشكلة. وشعر أن حياته كلها تتوقف الآن على إيجاد حلّ لقضيته تلك حتى إنه كان على استعداد لينفق كل ما يملك لمن يساعده في إيجاد الحل. كيف له أن يعثر على الحل؟ لم يكن هناك متسعٌ من الوقت لذلك.

وتحسبًا لأي ظرفٍ وحتى لا يضيع وقته استأجر عربة وطار إلى منزله. سأل السيد جوليا دكين نفسه: «ماذا؟ كيف هو شعورك الآن؟ كيف هو شعورك في هذه اللحظة يا ياكوف بيتروفيتش؟ ما الذي تنوي فعله؟ هل سيكون لك أي رد فعل الآن أيها الوغد؟ يا لك

من جبان! يا لك من لعين! الذنب يقع عليك وحدك فيما وصلت إليه. ثم ها أنت تتباكي وتشتكي».

هكذا أخذ السيد جوليا دكين يلوم نفسه ويعذبها، بينما كان كل جسمه يهتز بفعل سرعة العربة على الطريق. كانت سخريته من نفسه بمثابة الدواء المر لمرضه وكان كمن يكوي جراحه بالنار؛ ولذا فقد كان في قمة الاستمتاع وهو يفعل ذلك.

فكّر في نفسه: «آه لو حضر الآن ساحر أو أي إنسان يمتلك قدرات خارقة وقال لي أعطني إصبعًا من يدك اليمنى أبتريه يا جوليا دكين. وسأريك شيئًا يدهشك. سأخفي ذاك الرجل ولن يكون هناك جوليا دكين الآخر بعد اليوم، ولكن اعلم أنك ستعيش بدون إصبعك هذا.. لكنت أعطيته أصبعي بدون نقاش.. بكل تأكيد.. لسوف أعطيه الأصبع دون أي تردد».

صاح أخيرًا بيأس قائلاً: «تبًا لهذا كله.. لماذا تتكالب عليّ كل المصائب هكذا دفعة واحدة؟ لماذا يجب أن أعاني من كل هذا؟ ولماذا تقع لي هذه المصائب تحديدًا دون غيرها؟ ولماذا تقع لي أنا فقط دون غيري؟ لماذا.. رغم أنه في الماضي كان كل شيء يسير وفقما أحب وحسبما أُرغب. وكان الكل راضيًا وسعيدًا. على أي حالٍ لن يجدي هذا الكلام نفعًا. حان وقت الفعل».

وبينما كاد يتخذ قراره وصلت العربة إلى المنزل ودخل إلى شقته وأسرع إلى تناول غليونه، وأخذ يستنشق الدخان بشراهة، نافثًا إياه في كل مكانٍ بالغرفة وهو يقطعها جيئةً وذهابًا. بدا شديد الانفعال. وفي تلك الأثناء كان بيتروشكا يعد المائدة للعشاء.

وأخيرًا قرّر السيد جوليا دكين شيئًا فترك الغليون وارتدى معطفه وخرج من المنزل وهو يقول لخادمه إنه لن يتناول طعامه اليوم بالمنزل. وأثناء هبوطه على السلم ناداه بيتروشكا وناولته قبعته التي كان قد نسيها. أخذ السيد جوليا دكين القبعة وبدأ وكأنه يود أن يقول شيئًا لخادمه حتى يبرّر نسيانه لقبعته وحتى لا يظنّ به الأخير ظنًا سيئًا أو أن اضطرابًا شديدًا أصابه. ولكن بيتروشكا لم يهتم حتى بإلقاء نظرة واحدة عليه بل عاد إلى الشقة

فوراً؛ ولذا لم يكن السيد جوليا دكين في حاجة إلى تقديم أي مبرر. ارتدى القبعة وهبط السلم على عجل وهو يدمدم قائلاً: «إن كل شيء سيكون على ما يرام، وأن الأمور ستنضبط بشكلٍ أو بآخر». شعر بجسمه يرتعد والقشعريرة تسري في كل جزء منه. استوقف العربة وأمر السائق أن يتوجه إلى منزل أندريه فيليبوفيتش.

فكّر السيد جوليا دكين في نفسه وهو يمسك بحبل جرس باب شقة أندريه فيليبوفيتش، ويهم أن يشده: «ولكن. أليس من الأفضل أن أُجل هذه الزيارة إلى الغد؟ ثم ماذا عساني أقول له؟ ليس لدي ما أقوله. الأمر تافه للغاية. ولا يستحق الاهتمام. في الحقيقة، المسألة عادية ولا قيمة لها على الإطلاق. هكذا هو الوضع الذي أنا فيه».

وفجأة سحب السيد جوليا دكين الحبل فدقّ جرس الباب وسمع خطوات في الداخل تقترب.. شعر بالحرج حتى إنه لعن نفسه على هذا التصرف المتعجل والوقح الذي بدر منه للتو. وتذكّر من فوره مشكلاته في العمل في الفترة الأخيرة وخلافاته مع أندريه فيليبوفيتش. ولكن كان أوان التراجع قد فات. فقد انفتح الباب ولحسن حظه أخبروه أن أندريه فيليبوفيتش لم يعد بعد إلى المنزل، كما أنه لن يتناول طعامه بالمنزل اليوم.

قال صاحبنا في نفسه وهو يهذي فرحاً: «أنا أعرف أين يتناول غداءه اليوم. لا بُدَّ أنه يتناول طعامه بالقرب من جسر ازمايلوفسكي». وفي رده على سؤال الخادم ما إذا كانت هناك رسالة يود إبلاغها إليه قال: «أنا يا صديقي، حسناً، أنا يا صديقي، ربما فيما بعد. لا شيء». قال ذلك وهو يركض على السلم هابطاً. ولما خرج إلى الشارع قرّر أن يخلي سبيل السائق فدفع له أجره وطلب منه أن ينصرف. ولكن الأخير طلب أن يزيده مبرراً ذلك بقوله: «أيها السيد. لقد انتظرتك طويلاً وقسوت على حصاني من أجلك». فزاده السيد جوليا دكين قطعة بخمسة كوبيكات بكل رضا ومضى يسير على قدميه.

أخذ السيد جوليا دكين يفكر: «المسألة فعلاً حرجة ودقيقة. لا يمكن تجاهل الأمر. ولكن في الوقت نفسه إذا ما فكرنا بحكمة وبعقل راجح سيتضح أنه من غير المنطقي إثارة الكثير من اللغط حول الموضوع أو أن أقلق نفسي أكثر من اللازم. ما فائدة أن أعيد وأزيد في

الموضوع؟ وما النفع الذي سيعود عليّ من عذاب نفسي واضطرابها. أتسبب في الألم نفسي دون داعٍ، وأمزق قلبي دون طائل. ما كان قد كان ولا يمكن إعادة عقارب الساعة للوراء بأي حالٍ.. فلنفكر بالمنطق قليلاً: ظهر رجل.. رجل يحمل توصية هامة وهو موظف موهوب وشخص حسن السير والسلوك.. هو فقط فقير وعانى الأمرين في حياته وواجه متاعب كثيرة، ولكن الفقر ليس عيباً، وما شأني أنا بذلك؟

«ولكن. ما هذا الهراء في الواقع؟ لقد جاء إلى هنا واستقر في وظيفة وشاءت الأقدار أن يكون الشبه بينه وبينني مذهلاً كأنه نسخة منّي. فهل يرفضون توظيفه لسبب كهذا؟ إنه يشبهني؟ إذا كان القدر، القدر الأعمى وحده هو المسؤول عن هذا الوضع، فهل يعني لك أن يداس الرجل كخرقة بالية ويمنع من حقه في الوظيفة؟.. كيف لي أن أتحدث عن العدالة بعد ذلك؟ إنه رجل مسكين خائف تائه يثير في القلب الشفقة ويجبرك على التعاطف معه وتدفعك نفسك إلى حمايته ورعايته. نعم. هذه هي المسألة برمتها. ليت رؤساءنا يفكرون في الأمر على هذا النحو. لقد فقدت راحة عقلي، بل إن مقدار الغباء لدي يعادل غباء عشر حيوانات دفعة واحدة.. من حُسن الحظ أن رؤسائي في العمل قد أحسنوا صنعاً فقبلوا به في الوظيفة ورفقوا بهذا المسكين..»

ولكن.. نعم.. وحتى لو افترضنا أننا توأمان، على سبيل المثال. هل يعني ذلك أننا أصبحنا شخصين بشعيين لمجرد أننا توأمان أو أخوان. هل في ذلك شيء غريب أو خارق للعادة؟ لا.. على العكس تماماً.. سيعتاد الموظفون الآخرون ذلك مع الوقت.. أنا واثق أنه إذا دخل أيُّ شخصٍ غريبٍ إلى المكتب فإنه لن يعير ذلك أيَّ انتباهٍ، ولن يرى في هذا الشبه أي نقيصة.. بل على العكس من ذلك ربما يكون ذلك أمراً يثير مشاعر الحب والود والتعاطف أكثر انطلاقاً من فكرة إن هذا هو صنَع الله ومشيئته؛ حيث خلق شخصين متشابهين تماماً وتفهم الرؤساء المحسنون هذا الأمر وأدركوا حكمة الله في ذلك فأكرموا الشخصين التوأمين وأسبغوا عليهما عطفهم ورعايتهم..

التقط السيد جوليا دكين أنفاسه وتمتم بصوت خافت قائلاً: «صحيح أنه كان من الأفضل ألا يقع شيء من ذلك.. سواء المصادفة الغريبة التي يمكن أن تثير تعاطف الآخرين.. أو قصة التوأمين تلك... ليت كل هذا لم يحدث. لم أكن في حاجة إلى كل هذا.. لم تكن هناك ضرورة لكل هذه الأحداث أصلاً. يا إلهي ساعدني. إن هؤلاء الشياطين قد أقحموني في هذه المشكلة. فرغم كل ما قيل إلا أنه يبدو كوغد محتال منافق يتقن الألاعيب. إنه فعلاً ماكر لا يعرف الأساليب القويمة في التعامل وهو حقير متزلف هذا السيد المدعو جوليا دكين. ربما يلبخ سمعتي بتصرفاته السيئة. هذا الوغد.. يجب ألا يغيب عن عيني كثيراً. يجب أن أضعه تحت مراقبتي طوال الوقت. يا له من عملٍ مضمّن. كأنها عقوبة فرضت عليّ. ومع ذلك. هل هناك جدوى من ذلك؟ إنه حتماً أمرٌ غير مجدٍ... فليظل كما هو ندلاً حقيراً.. أما الثاني الحقيقي فهو رجل شريف. ليظلّ هو النذل ولأبقى أنا الرجل الشريف وسيقولون إن «هذا السيد جوليا دكين النذل. تجاهلوه ولا تخلطوا بينه وبين الآخر. أما هذا فهو الشريف الطيب الرقيق والمسالمة والموثوق به في العمل والذي يستحق الترقى في منصبه. هكذا. هذا ما سيكون. حسناً إذاً. ولكن ماذا إن فشلوا في التفرقة بيننا... إذا وقع ذلك.. إذا خلطوا بيني وبينه؟ إن كل شيء متوقع من هذا الوغد. آه يا إلهي القدير إنه لا يتورع عن شيء، لا يتورع عن انتحال شخصية رجل آخر.. سيفعلها. إنه لا يخجل من شيء.. سيحوّلني حينها إلى خرقة بالية... آه يا إلهي.. يا إلهي... ما هذه المصيبة التي حاقت بي!»

كان السيد جوليا دكين يركض بينما تجول في باله هذه الخواطر والأفكار، لم يكن يميز الطريق حتى إنه لم يكن يدري وجهته. ولما أفاق من شروده وجد نفسه في شارع نيفسكي. وكان السبب في إفاقته أنه اصطدم بأحد المارة بقوة حتى خيّل له أن شرراً سيتصاعد بفعل الاصطدام القوي. تتمم ببعض الكلمات اعتذاراً دون أن يرفع رأسه وكان الرجل الآخر قد أصبح بعيداً بعد أن كآل له السباب. رفع السيد جوليا دكين رأسه ونظر حوله فوجد نفسه بالقرب من المطعم الذي استراح فيه قبل ذهابه إلى العشاء في منزل السيد ألسوفي إيفانوفيتش. أحسّ صاحبنا بمغص في معدته على الفور، وتذكّر أنه لم

يتناول غداءه بعد، كما أنه غير مدعوٍ على الغداء في أي مكان؛ ولذا وحتى لا يضيع وقته الثمين صعد درج المطعم لتناول شيء خفيف وعلى عجل.

لاحظ صاحبنا أن الأسعار مرتفعة في المطعم إلا أنه الارتفاع الذي لم يمنع السيد جوليا دكين من الدخول، كما أن وقته لم يكن يسمح للتوقف عند هذه التفاصيل التافهة. كان هناك جمع غفير في قاعة المطعم الذي تتلأأ فيها الأنوار. كان الجميع يقفون عند بوفيه حافل بكل ما لذَّ وطاب من الأطعمة التي تلبى أذواق أصحاب المستوى الراقى والرفيع من الناس. كان الخادم على البوفيه منشغلاً بتلبية طلبات الزبائن فتجده يسكب الخمر لهذا ويقدم الطبق لآخر ويتقاضى النقود من ثالث ويرد الباقي لرابع وهكذا. وقف السيد جوليا دكين في الصف وانتظر حتى يحين دوره. وما إن حان دوره حتى مدَّ يده إلى كعكة صغيرة فالتهمها بنهم شديد وهو يدير ظهره للحضور. ولما فرغ من الأكل عاد إلى الخادم وردَّ الطبق إليه. ولما كان يعرف السعر مسبقاً فقد أخرج من جيبه قطعة نقد فئة عشرة كوبيكات ووضعها على المنضدة وهو يبحث بنظره عن البائع ليبلغه بقوله:

- ها هي النقود. عشرة كوبيكات. ثمن قطعة الكعك الصغيرة.

تمتم البائع من تحت ضرسه كما يقولون:

- الحساب روبل وعشرة كوبيكات.

ذهل السيد جوليا دكين تماماً وقال:

- هل تخاطبني أنا؟ يبدو لي أنني لم آخذ سوى قطعة واحدة.

ردَّ البائع بثقة:

- بل أخذت إحدى عشرة قطعة.

- ماذا تقول؟ على ما يبدو أنت مخطئ.. حقيقة، يبدو لي أنني أخذت قطعة واحدة.

- لقد كنت أعد الكعك الذي أخذته. إحدى عشرة قطعة بالتمام. عليك أن تدفع ثمنها. نحن لا نقدّم الطعم مجانًا في مطعمنا.

صدم السيد جوليادكين وتساءل في نفسه حائرًا: «هل أصابني سحرٌ ما؟ ماذا دهاني؟» وفي هذه الأثناء كان البائع في انتظار قرار السيد جوليادكين. تحلّق الناس حول السيد جوليادكين. فدرس الأخير يده في جيبه وأخرج قطعة فضية من فئة الروبل لكي يسدّد الثمن فورًا ويتطهر من هذه الخطيئة ويبتعد عن هذا المكان. فكّر في نفسه وقد احمرّ خجلًا حتى صار وجهه بلون سرطان البحر: «حسنًا. ما دام يصر على أنهم إحدى عشرة قطعة فليكن كما يقول. ليس غريبًا أن يأكل المرء إحدى عشرة قطعة من الكعك. شخص جائع؛ ولذا التهم إحدى عشرة كعكة. ما الغريب في ذلك؟ بالهناء والشفاء.. ومهما يكن فالأمر لا يثير دهشة ولا استغرابًا ولا هو بالأمر المضحك».

وفجأة بدا وكأن شيئًا ما يراود السيد جوليادكين فرفع عينيه، وعندها أدرك مكنن الغموض ومفتاح السر.. تبددت كل الشبهات في لحظة.. حيث رأى على عتبة الباب الذي يفتح على الغرفة المجاورة والذي يقع مباشرة خلف ظهر البائع وفي مواجهة السيد جوليادكين والذي كان صاحبنا حتى هذه اللحظة يعتقد أنها امرأة - رأى نفسه، السيد جوليادكين، ليس السيد جوليادكين القديم، بطل قصتنا بل الآخر، السيد جوليادكين الجديد. بدا واضحًا أنه سعيدٌ للغاية بل في أسعد حالاته. كان يبتسم للسيد جوليادكين الأول ويشير إليه برأسه ويغمز بعينه ويحرك قدميه في مكانه وكأنه يتأهب للركض في أول فرصة مناسبة والفرار إلى الغرفة المجاورة ومنها عبر السلم الخلفي إلى الشارع، وهكذا يصعب بل يستحيل اللحاق به.. كان يحمل في يده آخر قطعة كعك وها هو ذا يلقي بها في فمه ويلعقها بلسانه في تلذذ أمام عيني صاحبنا. فكّر السيد جوليادكين وقد اشتاط غضبًا: «هذا الوغد لا يخجل مما يفعل أمام الناس، لقد استغلّ الشبه بيننا. هل يروونه بالفعل؟ يبدو لي أنه ما من أحدٍ قد لاحظ ما يفعل.. ألقى السيد جوليادكين بالروبل الفضي وكأنه قطعة جمر كادت تحرق

أصابه ثم تسلل بين الحشد وخرج دون أن يلحظ الابتسامة الوقحة والتي لا تخلو من مغزى، التي رمقه بها البائع والتي تعبر عن انتصاره وسيطرته بهدوء على الأمور.

فكر السيد جوليا دكين القديم في نفسه: «شكرًا لأنك لم تسحقني وتذلي تمامًا. شكرًا أيها اللص، شكرًا لك وللقدر أن المشكلة قد تم تسويتها بشكلٍ أو بآخر، صحيح أن البائع كان وقحًا، ولكن يجب أن أعترف بأنه كان محقًا. كان عليّ أن أدفع له رويلاً وعشرة كوبيكات؛ ولذا فقد كان محقًا هذا البائع. كان محقًا عندما قال إنه لا شيء مجاني في هذا المطعم. كان في وسعه فقط أن يكون أكثر احترامًا. هذا العاطل!».

هكذا كان السيد جوليا دكين يحدث نفسه وهو يهبط درجات السلم في اتجاه الباب الرئيسي للمبنى. ومع ذلك وعند الدرج الأخير توقف فجأة وتجمد في مكانه واحمرّ وجهه لدرجة أن دمعت عيناه بسبب نوبة شديدة من الإحباط المفاجئ. وقف نصف دقيقة هكذا ثم ضرب الأرض بقدميه بقوة ثم قفز بعدها مرة واحدة من أعلى المدخل إلى الشارع دون أن ينظر خلفه، ثم أطلق لساقيه العنان لا ينظر خلفه ولا يلوي على شيء، يلهث بشدة دون أن يشعر بالتعب. انطلق إلى منزله الواقع في شارع المحال الستة وعلى غير عاداته جلس فورًا على الأريكة دون أن يخلع معطفه أو يتناول غليونه. قرّب المحبرة منه وأمسك بقلم وورقة وكتب الرسالة التالية ويده ترتعد من شدة انفعاله:

«السيد الفاضل ياكوف بيتروفيتش!

لم أكن لأمسك بالقلم وأخط هذه الرسالة لولا أن وضعي الخاص، فضلًا عن سلوكك الغريب سيدي الفاضل هما ما أجبراني على ذلك. صدقني. الضرورة وحدها هي ما أرغمتني على الدخول معك في نقاش كهذا. وبالتالي أرجو منك بداية ألا تعتبر ذلك إهانة مني أو تصرفًا يشوبه سوء نية بأي شكل من الأشكال تجاه شخصك سيدي الفاضل، بل هو في الواقع نتيجة حتمية للظروف التي تجمع بيننا.»

فكر السيد جوليا دكين وهو يعيد قراءة ما كتب: «يبدو لي جيدًا. صياغة مهذبة ووقورة وفي الوقت نفسه لا تخلو من صرامة وقوة.. ليس فيها ما يهينه أو يغضبه فيما أتصور. كما أن هذا من حقي».

«إن ظهورك المفاجئ والغريب يا سيدي الفاضل في تلك الليلة العاصفة، وبعد أن تعرّضت إلى تصرف وقح وغير لائق من قبل أعداء لي أترفع عن ذكرهم، وإهانة كانت بمثابة السبب في كل هذه المشكلات وفي سوء الفهم الذي وقع بعد ذلك فيما بيننا.. كما أن إصرارك يا سيدي الفاضل على موقفك وعلى التدخل في شؤوني عنوة وفي كل علاقاتي مع الآخرين لهو أمرٌ يتجاوز كل حد ويتعارض وأبسط مبادئ الاحترام واللياقة والتعامل بين الناس. وأعتقد أنني لست في حاجة لأن أذكر بأنك قمت يا سيدي الفاضل باختطاف أوراقي وانتحلت اسمي كي تحصل على رضا المدير وتنال مكافأة منه. وهي مكافأة لا تستحقها. كما أنني لست في حاجة أيضًا لأن أذكرك بأسلوبك الذي تتعمد فيه الإهانة وأنت تتهرب من مناقشتي في هذا الأمر وتفسيره لي.

ولكي أقول كل ما لديّ أذكرك أخيرًا بالتصرف الغريب أو قُل غير المفهوم والذي بدر منك في المطعم، والذي لا أجد له تبريرًا. وأنا هنا بالطبع لا أشكو من خسارة الروبل وهو مبلغ تافه ولا قيمة لذلك عندي ولكن لا أستطيع إلا أن أعبر عن استيائي الشديد عندما أتذكّر إهانتك الواضحة لي يا سيدي، وهي الشيء الذي مسّ شرفي وكرامتي ولا سيما في حضور حشد كبيرٍ من الناس المنتمين إلى المجتمع الراقى حتى ولو لم أكن أعرفهم.».

فكر جوليا دكين في نفسه: «أتراني بالغت قليلًا؟ أتراني أفرطت في الحديث؟ ألا يبدو ذلك شديد القسوة خاصة عند الحديث إلى شخص ينتمي إلى طبقة راقية مثله؟.. حسنًا. لا بأس. يجب أن أريه بأسى وصلابتي. وعلى أي حال فسوف أخفف من لهجتي في نهاية الرسالة، وأكتب له بعض عبارات الملاطفة لأسترضيه. سأرى ماذا أكتب.».

« لكنني يا سيدي الفاضل لم أكن لأرهلك بقراءة هذه الرسالة لولا أنني على ثقة تامة من نبل مشاعرك وطيبة قلبك، وهي الخصال التي ستملي عليك ما تفعل مستقبلاً في سبيل

إصلاح كل هذه الهفوات وإعادة الأمور إلى نصابها»

وسوف أظلّ دومًا على ثقة، وكلي أمل أنك لن تعتبر هذه الرسالة مسيئة لك، وأنتك لن تبخل عليّ بالوقت اللازم لكتابة رسالة تفسر لي فيها كل ما حدث، وأن ترسلها مع خادمي.

شرف لي أن أنتظر ردك على هذا الخطاب.. سيدي الفاضل.

خادمك المخلص

ياكوف جوليادين».

« حسنًا. تم إنجاز الأمر على خيرٍ. وصلنا إلى مرحلة المراسلة. على من يقع اللوم في ذلك؟ عليه هو بالطبع. هو من اضطرني إلى مراسلته كتابة. لديّ كامل الحق في ذلك.».

أعاد السيد جوليادين قراءة الرسالة مرة أخيرة ثم أغلق الظرف ونادى بيتروشكا. دخل الأخير كعادته بعينين ناعستين منتفختين وقد بدا عليه الانزعاج الشديد.

- ستحمل هذه الرسالة يا عزيزي.. هل تفهم؟

وقف بيتروشكا صامتًا.

- ستحمل هذه الرسالة إلى القسم حيث أعمل، وتسلمها إلى المناوب وهو سيكون اليوم السيد فاخراميف.. هل فهمت؟

- فهمت.

- فهمت.. ألا تستطيع القول «فهمت يا سيدي؟» حسنًا. ستسأل عن الموظف المناوب فاخراميف وتبلغه بما يلي: أن سيدي يبلغك التحية، ويرجو منك أن تبحث في دفتر عناوين الموظفين الموجود في القسم وإبلاغه بعنوان إقامة الموظف جوليادين.

بقي بيتروشكا صامتًا لا ينبس ببنت شفة، وبدا للسيد جوليا دكين أنه يبتسم.

- إذاً ستسأله عن العنوان، وستعرف أين يقيم الموظف الجديد جوليا دكين؟

- حاضر.

- ستسأله عن العنوان وما إن تحصل عليه حتى تحمل هذه الرسالة إلى هناك. مفهوم؟

- فهمت.

- ومتى وصلت إلى المكان.. أقصد العنوان الذي حملت إليه الرسالة.. وقابلت السيد الذي عليك أن تسلمه الرسالة.. أقصد هذا الذي يدعى جوليا دكين... ماذا يضحك أيها الأبله؟

- ولم أضحك؟ لا شيء يضحكني. لا شيء يا سيدي. لا شيء يثير الضحك في نظري..

- حسنًا.. هكذا كما أخبرتك. إذا سألك هذا السيد كيف حال سيدك وكيف صحته... إلخ.. أقصد إذا طرح عليك أسئلة من هذا القبيل لا تُجبه واصلت. بل قل له جملةً واحدةً فقط: «سيدي بخير وهو يرجوك أن ترسل الرد إليه مكتوبًا». أفهمت؟

- فهمت يا سيدي.

- كل شيء واضح إذاً. ستقول له: «سيدي على خير ما يرام وهو بصحةً طيبة، ويستعد الآن للخروج لزيارة أحد الأصدقاء ومنتظر منكم ردًا مكتوبًا». هل فهمت؟

- نعم. فهمت.

- اذهب إذاً.

«يا لهذا المعتوه كم أعاني بسببه. إنه يسخر طوال الوقت من هذا وذاك. لا أجد سببًا لضحكه المتواصل. هكذا عشت حتى أرى هذا اليوم وأعاني تلك الصعاب. أنا في وضعٍ

شديد الصعوبة. أنا حقًا في وضعٍ صعبٍ. ربما تكون الخواتيم طيبة.. والعبرة بالخواتيم. هذا النصاب سيضيع ساعتين كاملتين في الطريق يتسكع هنا وهناك. لا بُدَّ أنه سيغطس في مكانٍ ما ولا أعرف مكانه.. من الخطأ تكليفه بأي مهمة. آه.. يا لها من مصيبة. يا لها من مصيبة حلت بي..».

وفي ظلِّ إدراكه لمصيبته ومعاناته من جراء ذلك قرَّر صاحبنا أن يقوم بتهدئة روحه عن طريق القيام بأي نشاط سلبي خلال ساعتَي الانتظار إلى أن يعود بيتروشكا. قضى ساعة مضطربًا يسير في الغرفة ثم يدخل غليونه قليلًا، ثم يلقي به بعيدًا، يحاول أن يقرأ ولم ينجح فاتكأ على أريكته وأمسك بالغليون مرة أخرى ثم عاد يقطع الغرفة جيئةً وذهابًا منفعلًا. ودَّ لو يمعن التفكير في الأمر قليلًا ولكنه عجز تمامًا عن التركيز، كان كمن يحتضر فقرر أن يفكر في حل آخر.

فكَّر في نفسه: «سيعود بيتروشكا بعد ساعة. ربما يجب أن أعطي المفتاح للحارس وأقضي هذا الوقت في محاولة الكشف عن أسرار الموضوع. يجب أن أقوم بالتحقيق في الأمر من جانبي.».

رغبة منه في القيام بهذه التحقيقات بأقصى سرعة ممكنة، أمسك بقبعته وهرع إلى الخارج بعد أن أغلق شقته. ذهب إلى الحارس وأعطاه المفتاح ومعه عشر كوبيكات.

أصبح السيد جوليادين كريمًا فجأة وعلى غير العادة. ثم أطلق لساقيه العنان لينفَّذ ما أراد ويحقق في الأمر. اتجه في البداية إلى جسر ازمايلوفسكي وبلغه خلال نصف ساعة. ولما وصل إلى هدفه دخل مباشرة إلى فناء المبنى الذي يعرفه جيدًا ونظر إلى نوافذ شقة مستشار الدولة بيريندييف.. كانت كل نوافذ الشقة معتمة باستثناء ثلاثة عليها ستائر حمراء اللون. قال صاحبنا لنفسه: «اليوم لا يوجد ضيوف في منزل ألسوفي إيفانوفيتش. يبدو أن العائلة كلها بالمنزل.».

ظَلَّ السيد جوليا دكين واقفًا هكذا بعض الوقت في الفناء. كانت لديه رغبة واضحة وقوية في اتخاذ قرارٍ ما. إلا أنه لم يقدر له القيام بذلك على ما يبدو. غير السيد جوليا دكين رأيه في اللحظة الأخيرة وأشاح بيده ثم خرج من الفناء إلى الشارع مرة أخرى. «لا. ليس هذا هو المكان الذي يجب أن أذهب إليه. ماذا عساي أفعل هنا؟ الأفضل الآن هو أن أذهب... ثم أقوم بتحري الأمر بنفسى».

وما إن اتخذ السيد جوليا دكين هذا القرار حتى انطلق إلى المكتب. كانت المسافة طويلة إلى هناك ناهيك عن الوحل والجليد المتساقط كطبقات سميكة تشبه القطن. إلا أن كل ذلك قد هان أمام رغبة صاحبنا في معرفة الحقيقة. ابتلَّ جسمه حتى عظامه واتسخت ملابسه بالوحل إلا أنه لم يعبأ بكل هذا بل كان يردد في نفسه: «المهم أن أصل إلى هدفي. كل هذا لا يساوي شيئًا أمام الوصول إلى الهدف».

كان يقترب من هدفه بالفعل. لاحت من بعيدٍ أمام ناظره كتلة ضخمة معتممة ما هي إلا المبنى الذي تقع فيه الإدارة التي يعمل بها. فكَّر في نفسه: «توقف. إلى أين أذهب وماذا عساي أفعل هنا؟ لو افترضنا أنني عرفت أين يقيم.. ما قيمة ذلك؟ من المؤكد أن بيتروشكا قد عرف بالفعل وهو في طريقه الآن إلى البيت حاملاً معه الجواب.. كل ما أفعله أنني أضيع وقتًا ثمينًا.. لقد أهدرت الوقت سدى. على كل حال، لا بأس. ما زال من الممكن إصلاح كل شيء. ولكن أليس من الأفضل أن أذهب إلى فاخرامايف لأسأله؟ لا. ليس الآن. ربما فيما بعد. آه... لم تكن هناك ضرورة لخروجه من المنزل.. هكذا أنا دائمًا. وهي خصلة أصيلة فيّ. إنني دائمٌ التعجل، أرعن وأستبق الأحداث. كم الساعة الآن؟ إنها التاسعة على الأقل. ربما يعود بيتروشكا للمنزل فلا يجدني. ما ارتكبته عند خروجه هو حماقة كبيرة.. يا لي من غبي»

بعد هذا الاعتراف الصادق بأنه قد ارتكب حماقة كبيرة ركض صاحبنا عائدًا إلى منزله الواقع في شارع المحال الستة. ووصل إلى هناك وهو يلهث من التعب ولا يكاد يستطيع التقاط أنفاسه. وأخبره الحارس أن بيتروشكا لم يظهر مطلقًا. قال في نفسه: «هكذا إذا. كما

توقعت.. إن الساعة بالفعل قد تجاوزت التاسعة.. هذا الوغد الدنيء ما زال يتسكع في الطرقات. يا إلهي. يا إلهي.. ما هذا الذي يحدث لي. لم يبدو يومي على هذا النحو؟»

صعد السيد جوليا دكين الدرج وهو غارق في أفكاره يشكي حاله لنفسه. فتح الباب وأشعل الشمعة ونزع عنه كل ملابسه وجلس على الأريكة متعبًا جائعًا وحزينًا. جلس هكذا ينتظر خادمه والشمعة تحترق رويدًا رويدًا وببطء؛ فتشع ضوءًا شاحبًا يسبح على الجدران. لبث هكذا طويلًا يفكر وينظر حواليه إلى أن استسلم للنوم العميق مثل رجل ميت.

واستيقظ من نومه في وقت متأخر. كانت الشمعة قد ذابت بالكامل، وتصاعد منها الدخان وكانت على وشك أن تنطفئ تمامًا. قفز السيد جوليا دكين من مكانه، وبدا وكأنه قد تذكر شيئًا، بل تذكر كل شيء. سمع خلف الحاجز صوت شخير بيتروشكا فهرع نحو النافذة فوجد السماء قد أظلمت تمامًا، وليس ثمة ضوء في أي مكان. فتح الكوة الصغيرة التي في النافذة فإذا بكل شيء ساكن وكأنها مدينة الموتى.

لا ريب أن الساعة قد تجاوزت الثانية أو ربما الثالثة صباحًا.. وهنا دقت ساعة الحائط دقتين.. هرع السيد جوليا دكين إلى حجرة بيتروشكا.

وبعد جهدٍ جهيد استطاع أن يوقظ الخادم ويجلسه على السرير ويجعله يفيق بعض الشيء ثم سحبه خلفه إلى غرفته. وهنا لاحظ السيد جوليا دكين أن بيتروشكا كان ثملًا للغاية، ولا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه.

صاح السيد جوليا دكين في خادمه:

- يا لك من وغدٍ عاطلٍ ولصٍّ. هل تعرف كيف طعننتني في مقتل. هل تدرك أنك قد قضيت عليّ؟ آه يا إلهي. ماذا فعل هذا الوغد برسالتني؟ ولماذا كتبت هذه الرسالة من الأساس؟ ماذا كانت حاجتي إلى ذلك؟ آه. يا إلهي. مرة أخرى أتصرف برعونة. مرة أخرى يخدعني

طموحي. هذه هي ثمرة أطماعك. هل ترى إلى أين وصلت؟ ولكن.. ماذا صنعت بالرسالة أيها اللص؟ تكلم. لمن أعطيتها؟

- لم أعطِ أي رسالة لأي أحدٍ... لم يكن معي أي رسالة.. هذا ما حدث..

- عَضَّ السيد جوليا دكين على يديه من الغضب واليأس.

- اسمع.. أنت يا بيتتر. اسمعني. اسمعني..

- أنا أسمعك.

- إلى أين ذهبت؟ أجبني..

- إلى أين.. ذهبت إلى أناس طيبين.. هل هذا عيب؟

- يا إلهي. يا ويلي منك. قُلْ لي أين ذهبت قبلها؟ هل ذهبت إلى الإدارة؟.. اسمعني يا بيتتر. ربما أنت ثمل؟

- أنا؟ أنا ثمل؟ ليتني أموت إن كنت أكذب. لست ثملاً.

- لا ضير أن تشرب.. لا مانع مطلقاً.. لقد سألتك عن ذلك بشكلٍ عارضٍ. ربما من الجيد أن تكون ثملاً. ليس عيباً مطلقاً أن تشرب يا بيتروشكا.. ليس عيباً على الإطلاق.. لا ريبَ أنك نسيت ما حدثَ ولكن لبعض الوقت.. ستتذكر بعد حينٍ.. قُلْ لي: هل تتذكر أنك قابلت الموظف فاخراماييف؟ هل قابلته أم لا؟

- لم أذهب إلى هناك ولا يوجد موظف بهذا الاسم. هذا الموظف لا وجود له من الأساس.. أنا على استعداد أن...

- لا لا يا بيترا! لا يا بيتروشكا. فأنا لست غاضبًا منك. أنت ترى أنني لست غاضبًا منك... ماذا حدث؟ لا شك أن الطقس بارد والرطوبة مرتفعة في الخارج ولذلك فقد شربت قليلاً.. لا مانع من ذلك.. لستُ ناقمًا عليك. أنا أيضًا يا صديقي شربت اليوم قليلاً.. اعترف فقط، وتذكّر يا صديقي هل التقيت اليوم بالسيد فاخرامايف؟

- حسناً.. طالما الأمر هكذا.. فأنا أقسم بشرفي أنني ذهبت إليه وأنا حتى على استعداد أن ...

- حسناً يا بيتروشكا. حسناً. شيء طيب أنك ذهبت إليه. هل ترى. أنا لست غاضبًا منك. هيّا.. أكمل.. أخبرني ..

واصل صاحبنا حديثه محاولاً تحفيز محدّثه على الكلام وهو يربت على كتفيه ويبتسم له.

- هيّا.. أخبرني.. تحدث.. شربت قليلاً يا إبليس.. شربت القليل..؟ آه منك يا عفريت.. حسناً.. لا بأس... أنا غير غاضب منك كما ترى.. لستُ غاضبًا منك يا صديقي.. لستُ غاضبًا..

- لا.. أنا لست إبليس.. ولكن كما تريد يا سيدي.. أنا ذهبت لزيارة أناس طيبين.. أنا لست إبليس.. ولم أكن هكذا يوماً ما...

- لا، لا، لا يا بيتروشكا.. اسمعني جيداً.. بيتر. هذا لا يعنيني.. أنا لم أسيء إليك قط وعندما أصفك بأنك إبليس فهذه ليست سبة. بل على العكس، أنا أقول لك هذا كي أخفف عنك. ليست سبّة أن يوصف المرء بكونه إبليس أو شيطاناً. فأنا أقول لك ذلك بنية طيبة. إن هذا يا بيتروشكا مديح وليس ذمًا عندما يقول أحدهم للآخر إنه شيطان أو ماهر أو لئيم... المقصود هنا أنك ذكي وأنت لا تسمح لأحدٍ مهما كان بخداعك. هناك من يحب أن يوصف بهذه الأوصاف.. هيّا أخبرني.. دعك من كل هذا.. قل لي يا بيتروشكا كما يقول الصديق لصديقه، بصدق وأمانة.. لقد كنت عند الموظف فاخرامايف وأعطاك العنوان المطلوب. أليس كذلك؟

- وأعطاني العنوان.. وأعطاني العنوان أيضًا.. موظف طيب.. قال لي: «سيدك رجل طيب.  
رجل طيب جدا.. أبلغ سيدك سلامي وامتناني وأبلغه أنني أحبه وأحترمه.. آه كم أحترمه..  
لأنه إنسان طيب وصالح.. يا بيتروشكا». هذا ما كان..

أجاب السيد جوليا دكين بصوتٍ خافتٍ:

- يا إلهي القدير... والعنوان؟ العنوان يا يهوذا.

- نعم العنوان... أعطاني العنوان أيضًا.

- أعطاك العنوان؟ أين يقيم إدا؟ أين يقيم جوليا دكين، الموظف جوليا دكين، السكرتير الأول  
جوليا دكين؟

- يقول لك إنه يقيم في شارع المحال الستة. عندما تسير إلى شارع المحال الستة إلى  
اليمين تمامًا ثم تصعد الدرج إلى الطابق الرابع وهناك ستجد جوليا دكين...

صرخ صاحبنا بأعلى صوته أخيرًا في خادمه قائلاً:

- يا لك من مخادع. يا لك من لص. أنت تتحدث عني. في حين هناك جوليا دكين آخر. أنا  
أقصد هذا الآخر. أيها المخادع.

- حسناً.. كما تشاء.. الأمر لا يفرق معي.. كما تريد..

- وماذا عن الخطاب؟ الخطاب؟

- أي خطاب؟ لم يكن هناك أي خطاب ولم أرَ أيَّ خطاب..

- الخطاب.. أين أضعته يا ملعون؟

- أعطيته.. أعطيته الخطاب.. وقال لي: «أبلغ سيّدك سلامي وامتناني. فهو رجلٌ صالحٌ وطيبٌ. أبلغ سيّدك امتناني».

- ولكن مَنْ قال لك هذا الكلام؟ هل هو جوليا دكين؟

صمتَ بيتروشكا قليلاً ثم ابتسم فاغراً فاه وهو يحدق في عيني سيده.

بلغ الحنق والغضب مداه.

صرخ جوليا دكين قائلاً:

- اسمع أيها اللص. ماذا فعلت بي؟ أخبرني ماذا فعلت بي؟ لقد قتلتني. يا لك من شريراً! أصبتني في مقتل يا يهوذا...

أجابه بيتروشكا بلهجة صارمة وهو يحاول الاحتماء بالحاجز:

- كما تشاء.. ماذا عليّ أن أفعل؟... الأمر لا يعنيني..

- تعال هنا. تعال.. عد أيها اللص..

- لن آتي إليك الآن.. لن أعود مطلقاً.. لا يعنيني كل هذا. سأذهب للعمل عند أناس طيبين صالحين.. يعيشون بشرف دون زيف ولم يحدث أن أصبح أحدهم اثنين..

وهنا شعر السيد جوليا دكين أن قدميه ويديه قد تجمدوا، وأصبح بالكاد يتنفس.

أردف بيتروشكا يقول:

- نعم أيها السيد.. لم يحدث أن أصبح أحدهم اثنين.. ولم يحدث أن أساء أحدهم للربّ أو للشرفاء من الناس.

ردّ السيد جوليا دكين بصوتٍ بالكاد يمكن سماعه:

- أنت عاطلٌ وسيكبيرٌ. نم الآن أيها اللص وغداً انتظر عقابك.

تمتم بيتروشكا بكلماتٍ غير مفهومة.

سمع السيد جوليا دكين خادمه وهو يتمدد على سريره حتى كاد السرير يتحطم. أخذ بيتروشكا يتشاءب ثم تمطأ ثم غطّ في نومٍ عميقٍ، وسرعان ما سمع شخيره المرتفع، شخير البراءة كما يقولون. كان السيد جوليا دكين لا هو بالحي ولا بالميت. كانت تصرفات بيتروشكا وإيماءاته تبدو غريبة تماماً، إلا أنها لم تكن أبداً مبرراً كافياً كي يغضب لا سيّما وأن الرجل كان ثملاً. كل ذلك قلب مزاجه رأساً على عقب.

قال صاحبنا وهو يرتعد بفعل إحساس غريب ومزعج: «ماذا أصاب عقلي عندما قررت أن أوقظ الرجل في عز نومه وفي منتصف الليل؟ ماذا أصابه عندما تورطت في شجار مع رجلٍ ثملٍ؟ ما المنتظر من رجلٍ ثملٍ؟ لن يقول إلا كذباً. ولكن ما مغزى تلميحاته تلك؟ يا له من لصّ!

«آه.. يا إلهي. ولكن أخبرني يا جوليا دكين.. لماذا كتبت هذه الرسالة؟ سأتسبب في دمار نفسي. أنا المذنب. أنا المنتحر. ألم يكن بوسعي أن أصمت؟ هل كنت في حاجة إلى هذا التصرف المتهور؟ ماذا دهاني؟ سأهلك نفسي. هذه الرعونة والاندفاع سيقتلاني، سأصير خرقة بالية ومع ذلك أستمر في غروري وأكرّر الخطأ تلو الآخر. أساءوا إلى كرامتك.. فما بالك لا تسترد شرفك وتنتقم لكرامتك؟ تلك هي معضلتي وبسببها سأدمر نفسي أنا.. المنتحر».

هكذا كان السيد جوليا دكين يحادث نفسه وهو جالس على أريكته ولا يجرؤ على التحرك من مكانه من فرط الرعب. وفجأة تسمرت عيناه على شيء بعينه وقد أثار اهتمامه بشدة. ومدّ يده يتحسس هذا الشيء وهو في قمة الخوف والهلع والحيرة. هل هو شيء حقيقي

أم سراب؟ ألم يكن مجرد وهم يصعب وصفه؟... لا لم يكن خيالاً ولا سراباً.. لم يكن وهماً..  
إنها رسالة.. فعلاً رسالة.. بالتأكيد رسالة.. وهو المرسل إليه..

أمسك السيد جوليا دكين بالرسالة من على الطاولة. كان قلبه يخفق بشدة من الخوف. فكّر في نفسه: «لا بُدَّ أن هذا اللص هو من أحضرها.. ومن ثم وضعها على الطاولة ثم نسي. لا بُدَّ أن هذا ما حدث. بالتأكيد هذا ما حدث.»

كانت الرسالة من الموظف فاخرامايف زميله الشاب في العمل وصديقه القديم في فترة ما من حياته. فكّر صاحبنا في نفسه قائلاً: «رغم كل شيء. كان هذا ما توقعته. كما أنني أتوقع كل ما هو مكتوب بالرسالة.» كان نص الرسالة كما يلي:

«السيد الفاضل ياكوف بيتروفيتش!

إن خادمك قد أتاني وهو ثملٌ للغاية، ويصعب أن نعول عليه في شيء، ولذا فسوف أخط لك رسالة مكتوبة ردًا على استفسارك. أؤكد لك بداية أن المهمة التي أوكلتني بها، وأقصد هنا توصيل الرسالة إلى الشخص المرسل إليه عن طريقي ستُنجز على النحو المطلوب وبكل دقة وأمانة. هذا الشخص الذي تعرفه جيدًا أصبح صديقًا لي أيضًا. وإن كنت أحبذ عدم ذكر اسمه لأنني لا أحب تلوّث سمعة إنسان بريء تمامًا. يسكن هذا الشخص معنا في نزل السيدة كارولينا إيفانوفنا في نفس المنزل وفي نفس الغرفة التي كان يقيم بها ذاك الضابط القادم من مدينة تمبوف، وقتما كنت تقيم أنت معنا. وعلى أي حال، فأنت تستطيع أن ترى هذه الشخصية المعروفة كثيرًا، فهو ينتمي إلى أصحاب القلوب الطيبة المخلصة وهي الخصال التي يفتقدها الآخرون. وقد عزمت على قَطْعِ علاقتي بك منذ اللحظة لأنه يستحيل أن نحفظ بعد اليوم بما كان بيننا من صداقة وودٍّ ووفاقٍ؛ ولهذا السبب أرجو منك أيها السيد الفاضل - بمجرد اطلاعك على فحوى هذه الرسالة الصريحة - أن تردّ الدّين المستحق لي وهو مبلغ روبلين ثمن موسي الحلاقة المستوردين والذين ابتعتهم لك لو كنت تذكر ذلك. كان ذلك منذ سبعة أشهر عندما كنا نقيم سويًا في نزل كارولينا إيفانوفنا والتي أكنُّ لها كل الاحترام والتقدير. إن السبب الذي يجعلني أتصرف هكذا هو أنك وفقا لما

يرويه أناس عقلاء قد فقدت معنى الكرامة والشرف والسمعة الطيبة وأن سلوكك يمثل خطرًا على الأبرياء والأسوياء من الناس. فبعض الناس من أمثالك يعيشون حياة الكذب ولا ينطقون إلا بالزيف ونواياهم سيئة. أما دفع الإهانة عن كارولينا إيفانوفنا، فسيتولاه أصحاب السلوك القويم والذين يمكن وصفهم بأنهم أناس حقيقيون. لقد طلب مني الكثيرون أن أذكرك بذلك في خطابي وها أنا ذا أفعل وأتحمل كامل المسؤولية عما أكتب إليك.

ومهما يكن من أمر سيأتي اليوم الذي تدرك فيه ما أقول إذا لم تكن لم تدركه بعد. أقول ذلك على الرغم مما سمعته عنك، وأن صيتك في المدينة قد بلغ عنان السماء والجميع من العقلاء يروون عنك الحكايات؛ ولذا أعتقد أنك أصبحت تعرف انطباع الناس عنك ورأيهم فيك يا سيدي الفاضل.

وختامًا أعلمك يا سيدي الفاضل أن الشخص الذي تعرفه جيدًا والذي لم أذكر اسمه تقديرًا له هو شخص يحظى بسُمعة طيبة بين الناس وهو رجلٌ يحترم كلمته ووعوده ناهيك عن شخصيته البشوشة المرححة الدمثة وتفوقه في عمله وفي علاقاته بالمحيطين من خيار الناس. إنه رجل يخلص القول ويحترم الصداقة ولا يقدم أبدًا على الإساءة لأي شخص في غيبته.

وعلى أي حالٍ. أظلُّ خادمك الأمين.

ن. فاخرامايف»

ملحوظة:

من فضلك، اطردها هذا الخادم فهو سكير، وغالبًا لن يجلب لك إلا المتاعب. يمكنك أن تستعين بدلًا منه بخادمنا القديم يوستاثيوس. فهو يبحث عن عملٍ الآن. خادمك ليس سكيرًا فحسب بل هو لص أيضًا؛ ففي الأسبوع الماضي عرض على كارولينا إيفانوفنا رطلًا

من قطع السكر بأقل من ثمنه بكثيرٍ، ولعلّه قد سرق هذا السكر من منزلك على عدة مرات على نحوٍ يجعلك لا تلحظ ذلك. أكتب لك كل هذا متمنيًا لك كل الخير، فأنا أختلف عن غيري من الناس الذين لا يعرفون سوى إهانة وخداع الآخرين من الشرفاء والصالحين وأكثر من ذلك يغتابون الناس بالباطل، ويتحدثون عنهم بما ليس فيهم بدافع حقدهم الأعمى ولعجزهم عن أن يصبحوا مثلهم.

فاخرامايف.»

بعد انتهائه من قراءة الرسالة ظلّ صاحبنا صامتًا وساكنًا على أريكته لوقتٍ طويلٍ. ولاح له ضوءٌ جديدٌ يخترق الضباب الكثيف الغامض الذي يكسو أيامه وحياته كلها منذ أول أمس. ورويدًا رويدًا بدأ يدرك بوضوح ما يحدث حوله.. أراد أن ينهض من مكانه ويتمشى في الغرفة كي ينتعش قليلًا ويصلح من نفسه ويستجمع أفكاره وتركيزه حول لب الموضوع، ومن ثم يتخذ قرارًا هادئًا صائبًا..

ولكنه ما إن ينهض من مجلسه حتى يخبر ثانية على مكانه عاجزًا منهكًا.

« لقد توقعت كل هذا مسبقًا.. بالطبع.. ومع ذلك انظر كيف يكتب وماذا يريد أن يقول من وراء ذلك كله؟ ما المعنى المباشر لعباراته تلك؟ أعتقد أنني أفهم نواياه ومقصده ولكن إلى ماذا سيؤدي بنا كل هذا؟ ليته قال مباشرة ماذا عليّ أن أفعل وما هو المطلوب مني. ليته فعل ذلك. عندها كنت نَفَذت كل ما يطلب.. ولكن الموضوع أخذ منحى يدعو للقلق وعدم الارتياح.

آه.. ليت الغد يأتي سريعًا.. ليتني أصل إلى حل لهذه المشكلة في أسرع وقت.. إنني أدرك الآن ماذا عليّ أن أفعل.. سأخبرهم أنني أوافقهم الرأي، ولكنني لن أتنازل عن كرامتي وشرفي.. أما ذاك الآخر.. فسوف نرى ما سيحدث. ربما هو فعلاً شخصٌ يعرفه الجميع ولكن وجهه ليس طيبًا على الإطلاق ولا أدري كيف يمكن أن تجتمع الصفتان في شخصٍ واحدٍ. وما السبب أن يحدث ذلك هنا؟ آه.. ليت الغد يأتي سريعًا.. إنهم الآن يخوضون في سيرتي

وسمعتي ويكيدون لي من أجل تدميري تمامًا. المهم ألا أضيع الوقت، والآن عليّ أن أكتب له رسالة أبدي فيها قدرًا من التنازل وأوافقه الرأي في بعض ما قال. وغدًا، ومع أول ضوء نهار سأقوم بإرسالها إليه، ومن جهة أخرى يجب أن آخذ الحيطه وأقوم بما عليّ فعله وأتحضر للدفاع عن نفسي وردّ هذا الهجوم بل وإنذار هؤلاء الصغار وإعطائهم درسًا قاسيًا وإلا سيلطخون اسمي وسمعتي وليتهم يكتفون بذلك».

أمسك السيد جوليا دكين بورقة وقلم وكتب رسالة ثانية ردًا على رسالة سكرتير الإدارة  
فاخراماييف:

«السيد الفاضل نيستور أغناتيفيتش!

بقلبي ينفطر، وبدهشة قوية، طالعت رسالتك المهينة في حقي، فقد فهمت منها أنك قصدتني أنا بينما كنت تلمح إلى أشخاص أشرار منافقين وأصحاب سوء نية. لقد شعرت بالمرارة الحقيقية عندما أدركت أن النميمة والغيبة قد وصلت إلى هذا الحد، وأنهما تجذرا وتآصلا في مجتمعنا الأمر الذي أساء إلى اسمي وسمعتي وشرفي. ومما يدعو إلى مزيد من الأسف والأسى أن أناسا شرفاء من أصحاب الحكمة والعقل الراجح والطبع الفضيل يمكنهم أن يتخلوا عن كل هذا ويتقاعسوا عن الدفاع عن الشرفاء والصالحين الحقيقيين، ويتحالفوا وهم بهذه الصفات الحميدة مع الأشرار لا سيما في زمن انعدمت فيه الأخلاق كزمننا، وانتشرت فيه الخيانة والغدر والقسوة وسوء النية.

وختامًا، أقول لكم إن الدين الذي ذكرته في خطابك فإني أوافقك أنه من واجبي أن أرد لك الروبلين وهما مقدار الدين المستحق لك عندي.

وأما عن إيماءاتك يا سيدي الفاضل عن السيدة إياها وعن نواياها وأفكارها وحساباتها، أقول لك يا سيدي الفاضل إنني لم أستطع فهم ما تلمح إليه؛ حيث بدا لي كلامك مبهمًا وغير واضح. واسمح لي سيدي الفاضل أن أدافع عن اسمي وسمعتي، وأن أنأى بهما عن كل ما يلوثهما ويلطخهما. وعلى كل حال أنا مستعد تمام الاستعداد أن نلتقي وجهًا لوجه

ونتصارح، فهذا أفضل من الرسائل. كما أنني على استعدادٍ لقبول أي شيء يقود إلى المصالحة والسلام بشرط أن تتوفر النية الخالصة والرغبة المتبادلة في ذلك.

ولتحقيق ذلك يا سيدي الفاضل، أرجو أن تنقل إلى ذاك الشخص المعروف استعدادي للصلح، وأن يتم ذلك بشكل شخصي بيني وبينه، وأن تطلب منه تحديد الزمان والمكان المناسب للقاء.

كان أمرًا مريبًا أن أقرأ كلماتك يا سيدي الفاضل، وألحظ تلميحاتك إلى أنني قد أسأت إليك يومًا ما، وشعرت أنك تلومني وتتهمني بخيانة صداقتنا القديمة، وأني أسأت إليك في غيابك. وأنا أرجع ذلك كله إلى سوء الفهم والنميمة والحسد والكراهية البغيضة عند هؤلاء الذين يمكن أن أصفهم بأعدائي اللدودين، وأنا هنا لا أبالغ على الإطلاق. ولكنهم على ما يبدو لا يدركون أن قوة البراءة تكمن في ذاتها، وأن أصحاب الوضاعة والوقاحة والاعتياد على إيذاء الآخرين لا بُدَّ وأن يلقوا عقابهم في يومٍ من الأيام، طالَّ الزمن أم قصر. هؤلاء سيهلكون يومًا ما وينالون جزاء ما اقترفت أيديهم بمقدار الشر والحقد الذي في قلوبهم.

ختامًا يا سيدي الفاضل، أرجو أن تنقل إلى هؤلاء أن ادعاءاتهم الغريبة ومطامعهم الشاذة والديئة وسعيهم لسحق غيرهم واغتصاب ما ليس لهم، لا يمكن إلا أن يثير الاستغراب والاحتقار والأسف بل ووضعهم في مستشفى الأمراض العقلية.

وأزيدك من الشعر بيتًا، أن مثل هذه المساعي تمثّل خرقًا واضحًا للقانون، وهو أمرٌ منطقي في رأيي لأن كل إنسان يجب أن يقنع ويرضى بقدره وبما قسم له وبمكانته في المجتمع، فلكل شيء حدود، وإذا اتخذ أحدهم هذه المقولة كمزحةٍ فهي مزحة غير مستساغة وسخيفة، بل وتعبّر عن سوء خلق. وأؤكد لك بكل شجاعة يا سيدي الفاضل أن أفكارك تلك والتي ذكرتها آنفًا، عن نصيب كل إنسان في الحياة، هي أفكار أخلاقية نبيلة.

ومهما حدثَ بيننا يشرفني أن أبقى خادمًا مطيعًا لك.

ياكوف جولياڊكين»

## الفصل العاشر

إجمالاً يمكن القول أن أحداث يوم أمس قد هزت كيان السيد جوليا دكين بشدة. نام تلك الليلة نومًا متقطعًا حتى إنه لم يستطع النوم لخمس دقائق متواصلة. وكان أحد الأشرار قد سكب على سريره شوغًا. لقد قضى طيلة الليلة بين اليقظة والنوم، يتقلب في فراشه من جانب إلى آخر، وما إن يغفو حتى يصدر شخيرًا قويًا ويتأوه أحيانًا وما يكاد يغفو حتى يستيقظ ثانية. أضحى صاحبنا مهمومًا محزونًا أسير الذكريات الغامضة والرؤى الغريبة وكل ما يبعث على الضيق والاضطراب..

وفي تلك الليلة عانى من كوابيس كثيرة: فتارة يظهر له وجه أندريه فيليبوفيتش وسط عتمة غريبة غامضة ويبدو متجهماً غاضبًا ينظر إليه بجفاء وعنف وقسوة، ويحرك شفثيه كأنه يكيل لصاحبنا اللعنات.. فيتجه السيد جوليا دكين إليه ويقترّب منه محاولاً تبرئة نفسه بأي طريقة، وأن يبرهن له أنه ليس كما صوّره الأعداء له، وأنه شخص كسائر البشر، بل إن لديه العديد من المزايا التي جبل عليها..

وبينما هو كذلك حتى ظهر له وجه رجل آخر معروف بقبح نواياه وقدرته على الإساءة للآخرين ووقاحته، وإذا بهذا الشخص يفسد في لحظة واحدة خطط صاحبنا في الدفاع عن نفسه، حيث أخذ يلوث سمعته على مرأى ومسمع منه، وأخذ يمس شرفه ويلطخ سمعته في الوحل ثم ها هو يغتصب وظيفته وينتحل اسمه بين الناس..

وأحيانًا يشعر صاحبنا برغبة شديدة في فرك رأسه التي تعرضت للتو لضربة من يد أحدهم أمام الجميع، بل وربما في العمل أيضًا، وهو عاجز عن رد الإهانة بمثله.. وفيما يبحث صاحبنا عن سبب ضعفه وعدم قدرته على الرد ولو بضربة أو صفة مماثلة، تحوّلت ذكرى الصفة تلك إلى شكلٍ جديدٍ، وأصبح ينظر إليها من منظور مختلف.. أصبحت كل الذكريات تبدو في عينيه فعلاً تافهًا وجبانًا له دلالة. والفعل هنا هو صمته على الإهانة. ولعلّ رد الفعل

هذا قد صدرَ عنه كثيرًا في السابق، وأصبح معتادًا على ذلك مرة بعد الأخرى ويومًا بعد يومٍ.. وأهدافه من وراء ذلك مخجلة وحقيرة، وربما كان رد فعله محض مصادفة عن خجل أو عن ضعف.. لماذا يتصرف هكذا؟ ما السبب؟.. كان السيد جوليادين يعرف الإجابة على هذا السؤال حق المعرفة..

وهنا احمرَّ وجه السيد جوليادين خجلًا، وهو غارق في النوم ويبدو وكأنه يصارع من أجل إخفاء خجله هذا وكبح جماحه فيتمتم قائلاً: «عليَّ أن أكون أكثر صلابة، وأن أتحدى بالإرادة أكثر.. نعم.. ولكن ما المقصود بقوة الإرادة؟»

كان الشيء الذي يثير غضب السيد جوليادين أن ذاك الشخص الكريه يعاود للظهور في تلك اللحظة. من الذي دعاه إلى هنا؟ أو تراه جاء من تلقاء نفسه؟ أم أن الأمر قد دُبّر في المساء؟ ها هو ذا يظهر مرة أخرى بفمه الذي لا ينطق إلا بالسوء.. وبيتمسم بوقاحة كعادته وهو يدمدم: «ما قيمة قوة الإرادة هنا؟ وما أهميتها؟ هل نملك أنا أو أنت قوة إرادة؟ أنا أو أنت يا ياكوف بيتروفيتش؟»

ثم رأى نفسه وكأنه بصحبة أناس معروفين بذكائهم وكرم أخلاقهم وذوقهم الرفيع. ورأى نفسه هو أيضًا رجلًا لامعًا مهذبًا راقبًا حاضر الذهن، يحظى بحب الجميع حتى من قبل بعض أعدائه السابقين، ففرح كثيرًا عندما منحه الناس المكانة التي يستحق، وكان نجم السهرة بلا منازع، وفي النهاية أخذ ينصت باستمتاع إلى المديح الذي كاله صاحب البيت إليه أمام أحد المدعويين، فكاد يطير فرحًا لولا أن ظهر ذاك الشخص الكريه مرة أخرى فجأة، ذلك الوجه المعروف لديه، وجه السيد جوليادين الأصغر الذي دائمًا ما يقلب الفرحة إلى كآبة وغم، ويفسد كل محاولات الإشادة بالسيد جوليادين الأكبر ويلطخ سمعته ويلوث شرفه. زد على ذلك أنه جعل السيد جوليادين الأكبر والحقيقي غير حقيقي على الإطلاق أو شخصًا مزيّفًا وأكّد في المقابل أنه هو الحقيقي. كما يقول إن السيد جوليادين الأكبر ليس كما يبدو أمام الناس بل إن فيه العبر والمثالب؛ ولذا ينبغي إبعاده عن المجتمع الراقى.

مرَّ كل هذا بسرعة لدرجة أن السيد جوليا دكين الأكبر لم ينجح في الإتيان بأي ردِّ فعلٍ ولو بفتح فمه وهو يرى الحضور وقد سلموا أرواحهم وآذانهم لهذا السيد جوليا دكين المزيف والحقير، وتحوّلت نظراتهم لصاحبنا البائس إلى نظرات ازدراء واحتقار شديدين. لم يكن في مقدور أيِّ من الحضور مقاومة سحر هذا الحقير السيد جوليا دكين الأصغر وقد بدّل رأيه تمامًا في صاحبنا. ولم يبقَ أحدٌ من الحضور حتى من أصحاب المكانة غير الرفيعة لم يتقرب إليه ولم يتزلف إلى هذا السيد جوليا دكين الكاذب عديم الجدوى. وهو في ذلك يستخدم كلَّ السبل ويتقن فن التملق حتى يصل إلى غايته.

والأهم في الأمر أن كلَّ شيءٍ قد تم بسرعة البرق. فهذا السيد جوليا دكين عديم النفع والمشبوه يتصرف بسرعة مذهلة حقًا. فما إن ينتهي من التملق إلى أحدهم حتى ينتقل إلى التالي وفي لمح البصر. وما هي إلا بضع كلمات ثم ابتسامة لإظهار حُسن النية ثم يركل ساقيه القصيرتين متجهًا إلى الثالث وهكذا المزيد والمزيد من التزلف ومظاهر الود الكاذبة. ولا تكاد تغمض عينيك إلا وهو يقف مع شخص رابع وهكذا دواليك وكأنه سحر.. شيء مخيف. والجميع سعداء به ويحبونه ويرفعونه إلى عنان السماء، ويجمعون على أنه مثال للأدب الرفيع والروح المرحة والعقل الراجح، وأنه في ذلك يتفوق على جوليا دكين الحقيقي بمراحل بل ويرفضون السيد جوليا دكين الصادق وينبذونه من مجلسهم ويدفعون به إلى الاضطراب والإذلال. إنهم يوجّهون اللطمات واحدةً تلو الأخرى لهذا الإنسان الرحيم الودود.

ركض السيد جوليا دكين المسكين غارقًا في عذاباته وخوفه إلى الشارع، وأخذ يبحث عن عربةٍ ليطير من فوره إلى صاحب السعادة فإن لم يجده سيتوجه على الأقل إلى أندريه فيليبوفيتش. ولكنه وللأسف لم يجد سائقًا يوافق على نقله.. كان ردهم جميعًا: «لا يا سيدي. لا يمكن نقل شخصين متشابهين تمامًا.. ما ينبغي لرجل شريف أن يتخذ لنفسه شبيهًا.»

نظر السيد جوليادكين حواليه وأخذ يهذي من الحنق والغیظ. فأدرك أن السائقين جميعاً ومن بينهم بيتروشكا الذي أبدى اتفاقه معهم، كانوا على حق فيما يقولون. ذلك أن شبیهه الحقیقیر كان بالفعل یقف على بُعد خطوتين وهو یستعد للقیام بتصرف وقح جدید كعادته. بدا له أن هذا الرجل المقیم لا یترك فرصة إلا ویتفاخر متظاهراً بالأدب والرحمة والنبیل. وها هو یهم الآن بارتكاب تصرف حقیقیر جدید یتنافى تماماً مع الأدب الجم والذوق الرفیع.

شعرَ صاحبنا المسکین جوليادكين الحقیقی بالخجل والیأس فركض لا یلوي على شیء، وكأنه قد طعنَ بسکین، ولا یدري أين یذهب.. ومع كل خطوة وكل ركلة بقدمه للأرض یلحظ عدواً جدیداً یركض إلى جانبه، ملامحه ووجهه هم تماماً نفس ملامح ووجه ذلك الدجال الحقیقیر. وأخذ هؤلاء جميعاً یركضون معاً واحداً تلو الآخر في سلسلة طويلة تُشبه أسراب الأوز، یركضون خلف صاحبنا ویطاردون حتى إنه لم یجد مكاناً یذهب إليه هرباً منهم، ولم یدر ماذا یفعل للنجاة بنفسه من هؤلاء الأشخاص الذین یشبهونه تمام الشبه، وكان العاصمة كلها قد تحولت إلى أشخاص متشابهین وها هم یجتاحون شوارعها. حتى إن أحد ضباط الشرطة قد اضطرَّ بعد أن رأى هذا الخرق السافر للقانون إلى اتخاذ إجراءات حازمة، وقرَّر أن یقبض على الجميع، ومن ثم یضعهم خلف القضبان في مركز مجاور لقسم الشرطة...

استیقظ صاحبنا وقد تجمَّد من الخوف والفرع وشعر بالخدر في كل جسده. وشعر وهو في هذه الحالة أن الواقع ربما أفضل حالاً من المنام ولو قليلاً.. یکاد یختنق ولا یستطیع أن یلتقط أنفاسه فقد خیَّل إليه أن أحدهم قد استخرج قلبه من جسده والتهمه..

وفي النهاية لم یعد بمقدوره الاحتمال أكثر فصرخ: «لا.. هذا لن یحدث!». ثم نهض من سريره بإصرار وكان قد أفاق تماماً.

كان النهار قد بدأ منذ ساعات، وكان الضوء ینیر الغرفة بقوة على غیر العادة، وكانت أشعة الشمس الكثیفة تخترق الزجاج المتجمد بفعل الصقیع، وانتشرت في أرجاء الغرفة. الأمر الذی فاجأ السيد جوليادكين. فهو لم یألف أن یرى الشمس قبل حلول الظهيرة، ولا یذكر أن

ذلك قد حدث من قبل يومًا. هذا إذا كانت ذاكرته لا تخونه. لم يحظ صاحبنا برفاهية الاندهاش طويلًا حتى انفلت نابض ساعة الحائط ليعلن بأنها ستدق الآن.

«آه. ها هي ذي». فكّر السيد جوليا دكين وهو يتحضر لسماع دقائق الساعة. وما كان أشد استغرابه أن دقت الساعة الواحدة. صرخ صاحبنا وهو ينتفض عن سريره: «ما هذا؟». هرع إلى الغرفة الثانية ليتأكد، دون حتى أن يرتدي شيئًا، وكانت الساعة هي الواحدة بالفعل. نظر إلى سرير بيتروشكا فلم يجد له أثرًا. لم يشتم رائحته المعتادة ولاحظ أن سريره يبدو مرتبًا منذ وقتٍ طويلٍ كما لم يجد حذائيه؛ وهو ما يعني أنه قد خرج. أسرع باتجاه الباب فوجده موصدًا.

واصل يحدث نفسه: «ولكن أين عساه يكون بيتروشكا؟». وقف صامتًا خائفًا يشعر برعشه قوية في أرجاء جسده.. وفجأة ومضت فكرة في رأسه.. هرع السيد جوليا دكين إلى الطاولة وفتشها جيدًا ثم بحث في كل درج من أدراجها وبالفعل لم يجد أثرًا للرسالة التي خطها بالأمس للسيد فاخرامايف. كما لم يجد أثرًا لبيتروشكا في المنزل، وكانت عقارب الساعة تشير إلى الواحدة، كما أن رسالة الأمس التي تلقاها من فاخرامايف بها بعض الإضافات التي وإن بدت من الوهلة الأولى غامضة وغير مفهومة إلا أنها تتضح رويدًا رويدًا الآن.. وأخيرًا يبدو أن بيتروشكا قد تمت رشوته وشراء ذمته... نعم.. نعم.. هذا ما حدث.

صاح السيد جوليا دكين وهو يضرب بكفه على جبينه ويحدق بعينه: «ذلك هو أصل الحكاية كلها إذًا». قال وكأنه أدرك جوهر الموضوع: «إذًا أصل الشر كله ومنبع المكائد يكمن هناك في شقة تلك السيدة الألمانية الملعونة. الآن اتضح كل شيء. عندما أشارت إلى تجاه جسر ازمايلوفسكي فإنما كانت تقوم بما يمكن تسميته تخريب استراتيجي، حيث تقوم بتضليلي وتحريف انتباهي عن الموضوع الرئيس وتضعني في حرج شديد. يا لها من ساحرة رخيصة. وفي تلك الأثناء تمت الرشوة وشراء الذمة. هذا ما كان. وإذا نظرنا للموضوع من هذه الوجة فإننا سنجد تفسيرًا لكل شيء. وسندرك ملابسات ظهور هذا

الوعد، فكل الأشياء مرتبطة ببعضها البعض. لقد احتفظوا به منذ زمن، وكانوا يعدونه حتى يرسلونه إليّ في الوقت المناسب.. في اليوم الذي كان من أسود الأيام في حياتي.. هكذا تبدو الأمور الآن.. تم حل اللغز الغامض. ولكن لا بأس. لم يفت الأوان بعد».

فَزِعَ السيد جوليا دكين وهو يتذكر أن الساعة قد دقت الثانية ظهرًا، و صدر أنين من صدره وهو يقول: «ماذا لو نجحوا في ذلك؟.. حسناً.. لا.. إنهم يكذبون... لم يتسع وقتهم لذلك بعد.. سنرى على كل حال.» ثم هرع يرتدي ملابسه وأمسك بقلم وورقة وخط الرسالة التالية:

« السيد الفاضل ياكوف بيتروفيتش!

إما أنت وإما أنا. ولكن من المستحيل أن نكون معًا؛ ولهذا السبب أبلغك أن رغبتك الغريبة والمستحيلة والمثيرة للسخرية في الوقت نفسه بأن تظهر أمام الناس كتوأم لي، وتقدّم نفسك على أنك أنا، لن تأتي بخير أبدًا، ولن تؤدي سوى إلى هزيمتك وضياعك وتلوّث شرفك؛ ولذا أرجو منك -ولمصلحتك- أن تبتعد وتفسح الطريق لأمثالي من الشرفاء العقلاء الصالحين وإلا سأكون مضطرًا إلى الرد بأقصى درجات العنف على تصرفاتك تلك. وأكتفي بهذا القول وسأنتظر كيف سيكون تصرفك.. وفي كل الأحوال فأنا على أتم الاستعداد لتقديم أي خدمة لك، كما أنني على استعداد لاستخدام مسدسي أيضًا.

ياكوف جوليا دكين»

فركّ صاحبنا يديه بقوة بعد انتهائه من كتابة الرسالة. ثم سحب معطفه وارتنى قبعته وفتح باب الشقة بمفتاحه الاحتياطي وانطلق إلى مكتبه. حتى إذا بلغ باب المكتب لم يقوَ على الدخول. في الواقع كان الوقت متأخرًا وكانت ساعة السيد جوليا دكين تشير إلى الثانية والنصف. غير أن موقفًا تافهًا ساعده على تجاوز الموقف، وبدد شكوك وتردد السيد جوليا دكين. فقد ظهرَ رجلٌ من ركن الغرفة يتسلل خفية ويسير ملامسًا للجدار، يلهث وقد احمرَّ وجهه. مشى إلى مدخل المبنى وصعد الدرج الخلفي. لم يكن هذا الرجل سوى أمين

المحكمة أستافيف الذي يعرفه السيد جوليا دكين جيداً وكان في حاجة ماسة إليه في تلك اللحظة، وهو رجل عاشق للمال ومستعدٌ لتقديم أي مساعدة في مقابل عشر كوبيكات لا أكثر.

كان السيد جوليا دكين يعرف نقطة ضعف أستافيف، وأنه على الأغلب في أشد الحاجة إلى النقود وإلا لما تغيب عن العمل؛ ولذا فقد قرّر صاحبنا ألا يبخل بالمال في سبيل تحقيق مآربه وركض خلفه يحاول اللحاق به ثم ناداه، وانفرد به على نحو غامض في ركن معتم خلف مدفأة ضخمة. ولما أصبحا وحدهما بدأ صاحبنا في طرح الأسئلة عليه:

- حسنًا يا صديقي.. ما الذي يحدث هناك؟.. في الإدارة؟ هل تفهمني؟

- كلي آذان صاغية يا سعادة السيد النبيل.. أتمنى لشخصكم الصحة والعافية.

- حسنًا يا صديقي.. حسنًا. وأنا بدوري أشكرك يا صديقي العزيز. والآن أخبرني يا صديقي ما الذي يحدث لديكم؟

وهنا وضع أستافيف يده على فمه الذي فغر رغما عنه وقال:

- عما تسأل يا سيدي؟

- حسنًا.. كما ترى يا صديقي.. أنا.. أرجو ألا تظن أن هناك شيئًا سيئًا أو أن تذهب بفكرك بعيدًا.. حسنًا.. هل أندريه فيليبوفتش في مكتبه؟

- هنا يا سيدي.

- والموظفون؟

- نعم. كل في مكانه.

- وصاحب السعادة؟

- وصاحب السعادة أيضًا.

وهنا أمسك الرجل مرة أخرى بفمه الذي بدا فاغراً وهو يحدّق بفضول وغبابة إلى السيد جوليا دكين. على الأقل هذا ما بدا لصاحبنا.

- وهل الأمور عادية هناك يا صديقي؟ ألم يقع شيء غريب؟

- لا.. أبداً.. لا شيء.

- حسناً يا صديقي.. ألم يذكرني أحد منهم؟ هه؟ ألم يرد اسمي حتى؟ .. هل تفهمني يا صديقي؟

- لا.. لم أسمع شيئاً حتى الآن..

وهنا قام الكاتب وللمرة الثالثة بسد فمه بيده، ونظر مرة أخرى بدهشة وغبابة إلى السيد جوليا دكين.. والحق أن السيد جوليا دكين أيضاً كان يتفرس في وجه أستافيف لفهم ما يدور برأسه. وبالفعل بدا وكأنه يخفي شيئاً ما، كما أن أستافيف أصبح أكثر خشونة ووقاحة في الحديث. بدا الآن وكأنه لا يحفل بالسيد جوليا دكين. فكّر السيد جوليا دكين في نفسه: «من حقه.. ماذا أمثل له أنا؟ لعلّه حصل على المال من الطرف الآخر.. ولذا فقد تغيب عن العمل لبعض الوقت.. عليّ أن أعطيه بعض المال أنا أيضاً.»

أدرك السيد جوليا دكين أن وقت المال قد حان..

- خذ يا صديقي.. هذا لك..

- ممتن لكرمك سيدي النبيل.

- وسأعطيك المزيد..

- أنا طوع أمرك يا سيدي النبيل.

- سأعطيك المزيد الآن.. ومتى ما ينتهى الأمر، سأعطيك مثل هذا المبلغ.. هل تفهم؟

صمت الكاتب ووقف ينظر إلى السيد جوليا دكين وقد تصلب في مكانه.

- والآن.. تكلم.. هل تحدّث أحدٌ عني بشيء؟

- يبدو لي أنه.. وحتى الآن.. لم يبدر من أحد شيء.. حتى الآن..

كان أستافيف يجيب بشكل متقطع تمامًا كما يفعل السيد جوليا دكين وهو يفتعل وجهًا غامضًا ويحرك حاجبيه قليلًا، وينظر إلى أسفل محاولًا أن يتقمص التعبير المناسب وإقناع محدّثه أنه يستحق المكافأة الموعودة لأن ما حصل عليه بالفعل أصبح حقًا مكتسبًا له.

- ولا توجد أي معلومات؟

- حتى الآن لا يوجد..

- اسمع.. ربما يصدر شيء.. قد تسمع شيئًا بعد قليل..

- بالطبع.. فيما بعد.. ربما سنسمع شيئًا يا سيدي..

فكر صاحبنا في نفسه: «يبدو أن الوضع سيئ».

- اسمع. خذ هذا أيضًا يا عزيزي.

- أشكركم من كل قلبي يا سيدي النبيل.

- هل كان فاخرًا مايف هنا بالأمس؟

- نعم.. كان هنا يا سيدي.

- هل كان بمفرده أم أن شخصًا ما كان معه؟ تذكر جيدًا يا أخي...

أغمض الكاتب عينيه غارقًا في ذكرياته لدقيقة ولم يتذكر شيئًا ذا جدوى.

- لا.. لم يكن هناك أحد غيره.

- هممم..

صمت السيد جوليا دكين قليلًا ثم قال:

- اسمع يا صديقي... خذا هذا أيضًا... ولكن أخبرني بكل شيء.. كل ما تعرف.. الحقيقة كلها..

- أنا طوع أمرك.

بدا أن أستافيف الآن قد ألف الوضع تمامًا وهو ما كان يتمناه السيد جوليا دكين..

- أخبرني يا صديقي.. كيف يتعاملون معه الآن؟

أجاب الكاتب وهو يحدق بكلتا عينيه في السيد جوليا دكين:

- لا شيء جديد يا سيدي.. يعاملونه معاملة جيدة..

- ماذا تعني بقولك جيدة؟

- أعني... أقصد يا سيدي...

وهنا حرك أستافيف حاجبيه بطريقة ذات مغزى، وبدا وكأنه في مأزق لا يدري كيف يجيب

على صاحبنا.

فكّر السيد جوليا دكين: «الوضع يبدو في منتهى السوء».

- هل تظن أنه يدبر شيئاً مع فاخرامايف؟

- نعم.. هذه عادة الجميع يا سيدي...

- فكّر جيداً قبل أن تجيب.

- نعم.. سمعت هذا..

- ماذا يدبران؟ أخبرني بسرعة..

أغلق أستافيف فمه بيده.

- هل هناك رسائل من هناك باسمي؟

- اليوم ذهب الحارس ميخايف إلى فاخرامايف في الشقة التي يسكنها.. شقة الألمانية تلك... يمكنني أن أذهب إليهم وأستوضح الأمر إن شئت..

- نعم.. يا صديقي. افعل هذا من أجلي.. أستحلفك بالله.. وأرجو ألا تظن بي الظنون أو يسرح بك فكرك إلى أمرٍ بعيدٍ.. أنا فقط أسألك.. نعم.. استفسر يا صديقي عن الأمر.. واعرف كل شيء.. هل من أمرٍ يدبرونه ضدي؟ ماذا يكيدون لي؟ هذا ما أحтаجه.. اذهب وسأفكر كيف أكافئك على هذا فيما بعد يا صديقي..

- أمرك وتحت طوعك يا سيدي الفاضل. لقد حلّ السيد إيفان سيمينيتش محلكم اليوم يا سيدي.

- إيفان سيمينيتش؟ آه.. صحيح؟

- أندريه فيليبوفيتش هو من أمره بذلك يا سيدي.

- صحيح؟ لماذا؟ اعرف السبب يا صديقي. أستحلفك بالله. اعرف السبب وسأكافئك يا عزيزي. هذا هو ما أحتمه.. ولكن إياك أن تظن بي السوء أو يذهب فكرك بعيداً يا صديقي.

- رهن أمرك.. رهن أمرك.. سأذهب من فوري يا سيدي. ألن تباشر عملك الآن يا سيدي  
الفاضل؟

- لا يا صديقي. أنا هنا فقط لألقي نظرة لا أكثر.. فيما بعد سأكافئك يا عزيزي.

ردّ الكاتب وهو يركض على السلم إلى الطابق العلوي فيما يقف السيد جوليا دكين وحيداً:

- رهن أمرك يا سيدي.

فكر في نفسه: «الوضع سيئ.. يا له من وضع سيئ.. الأمور تجري على أسوأ ما يكون. ماذا يعني هذا كله؟ ماذا تعني تلميحات ذاك السكر مثلاً؟ ومن خلف كل هذا؟ آه. أنا الآن أعرف من المدير لكل هذا.. فهمت كل شيء. لقد عرفوا كل شيء ولهذا وضعوا موظفًا آخر مكاني.. ورغم ذلك.. ماذا عليّ أن أفعل..؟ لا أحد سوى أندريه فيليبوفيتش يمكنه أن يفعل ذلك. ما يريد من وراء ذلك؟ لا شك أنهم عرفوا كل شيء.. لا بدّ أن فاخراماييف هو من أخبرهم أو ربما أحد غيره فهو شخص غبي بليد محدود الذكاء. هم من أطلقوه عليّ انتقاماً مني. وهم من أوحوا لتلك الألمانية العوراء لكي ترفع ضدي الشكوى تلو الأخرى. لقد كنت دومًا أشك في أن هناك أسبابًا تدفعهم إلى الكيد لي، وأن ثمة مؤامراتٍ تحاك ضدي.. لقد أخبرت كريستيان إيفانوفيتش بذلك، وأبلغته أنهم أقسموا على اغتيالي. أقصد الاغتيال المعنوي بالطبع. ولهذا السبب لجأوا إلى كارولينا إيفانوفنا.. من الواضح أن هناك عقلاً مدبرًا لكل هذا. ليس بمقدور فاخراماييف الغبي فعل ذلك. فهذا تدبير مُحكّم.. إنني أعرف الآن مَنْ الذي يقف خلف ذلك. إنه ذلك الوغد الدجال صاحب التأثير القوي على الناس والمحيطين به.. يجب أن أعرف حجم دوره وأسلوبه في التعامل مع الناس. ولكن ما السبب في اختيار إيفان سيميونوفيتش دون غيره؟ على أي حال النتيجة بالنسبة لي واحدة سواء كان هو أو غيره. لقد أثار ريبتي منذ زمنٍ. لقد لاحظت أنه رجل طاعن في السنّ ومقرّف للغاية ومثير

للاشمئزاز. يقولون إنه يمارس الربا الفاحش كاليهود. أما المدير الأول، فهو ذلك الدب. هو الذي يحبك تلك المؤامرة.. هكذا وضح كل شيء.. نعم.. هكذا بدأت المؤامرة وحيكت خيوطها الأولى هناك بالقرب من جسر إزميلوفسكي».

وهنا تجعد وجه السيد جوليادكين، وبدا كمن مضغ قشرة ليمون، وبدا وكأنه تذكر شيئاً مزعجاً للتو. فكر في نفسه: «على أي حال لا شيء يستحق القلق. أنا فقط أتحدث عن وضعي. ماذا عساه أستافيف أن يعرف؟ لن يجد شيئاً. لعله جلس الآن في مكان ما أو شغله أحدهم. إنه لأمر مثير أن أهتم بالموضوع وأحاول من جهتي تدبر أمري ومعرفة ما يدور من وراء ظهري. يكفيني أن أعطي أستافيف عشر كوبيكات أخرى وعندها سيخبرني بكل شيء.. وسيصير في صفي تمامًا. المهم الآن هل هو في جانبي فعلاً؟ أو ربما اشتروه بالمال وقد اتفقوا معه على خداعي. إنه يبدو كلص سارق محتال.. لص مائة بالمائة، هذا الملعون يرتدي قناعاً زائفاً. يقول لي لا شيء يستحق القلق.. يعبر بإحساس قوي هذا المحتال ويقول لي: «سيدي الفاضل. ممتن لكم يا سيدي الفاضل». يا له من لص».

سمع صوت ضجيج.. قفز السيد جوليادكين وانزوى خلف المدفأة. كان أحدهم يهبط الدرج ثم يخرج إلى الشارع. فكّر صاحبنا في سره: «من عساه يخرج الآن؟» وبعد دقيقة سمع مرة أخرى وقع خطوات.. وهنا لم يستطع السيد جوليادكين صبراً فأخرج رأسه ينظر، وفي هذه المرة رأى ذلك الشخص الذي يعرفه. لم يكن سوى ذلك الوغد الفضولي الملعون. كان يمشي كعادته في خطوات متسارعة ويركل بقدميه وكأنه يزعم على ضرب شخص ما. دمدم صاحبنا: «الوغد». لم يستطع السيد جوليادكين أن يغفل أن ذلك الوغد كان يحمل تحت إبطيه حقيبة صاحب السعادة الخضراء. ففكر في نفسه: «إنه يكلف بأمر خاص مرة أخرى». واحمرّ وجهه وتقوقع على نفسه أكثر من فرط الإحباط والحزن. مرّ السيد جوليادكين الأصغر بجوار السيد جوليادكين الأكبر دون أن يلحظه على الإطلاق. وفي تلك اللحظة سمع وقع خطوات جديدة كان من السهل على السيد جوليادكين أن يتوقع أن صاحبها هو أحد الكتبة. وبالفعل لاحت سحنة الكاتب وهو يبحث عن صاحبنا خلف المدفأة. لم تكن تلك سحنة أستافيف بل وجه كاتب آخر يلقبونه بيسارنكا. أصيب بالذهول، وأخذ يتساءل في

نفسه: «لماذا يقحم هذا الأحمق نفسه في الموضوع؟ يا لهم من همج. لا اعتبار لشيء عندهم ولا شيء مقدس لديهم».

قال موجهاً حديثه إلى بيسارنكا:

- ماذا يا صديقي؟ مَنْ أرسلك إلى هنا؟

- جئت من أجل موضوعك يا سيدي. ما من جديد حتى الآن. سأبلغك فور حدوث أي مستجدات.

- و ماذا عن أستافيف؟

- إنه لا يستطيع الحضور إليك يا سيدي، فقد مر صاحب السعادة اليوم مرتين على المكاتب حتى إنني يجب أن أعود من فوري أنا أيضًا..

- حسنًا. شكرًا يا عزيزي. شكرًا لك.. فقط قل لي..

- أقسم لك إنه لا وقت لدي.. فهم يستدوعنا بين لحظة وأخرى.. ابق هنا قليلًا يا سيدي.. وسنخبرك بأي جديد في موضوعك..

- لا.. أنت يا صديقي.. أخبرني..

- اسمح لي سيدي. لا وقت لدي الآن.

نطق بيارنكا بهذه الكلمات وهو يتملص من بين يدي السيد جوليا دكين الذي أمسك بقدميه.

- حقيقة لا أستطيع يا سيدي. لو سمحت ابق هنا قليلًا ولسوف نخطر بك بأي جديد.

- الآن.. الآن يا صديقي.. الآن يا عزيزي. وسأكافئك يا عزيزي.

- أنا رهن أمرك يا سيدي.

- حاول أن توصل هذه الرسالة يا صديقي إلى السيد جوليا دكين.

- السيد جوليا دكين؟

- نعم إلى السيد جوليا دكين يا صديقي.

- حسناً يا سيدي. فور انتهائي من أعمالي سأوصلها إليه. أما أنت يا سيدي فابق هنا قليلاً. لا أحد يستطيع أن يراك وأنت هنا.

- لا يا صديقي. لا تخطئ الظن.. أنا أنتظر هنا ليس لسببٍ ما.. أو لكي لا يراني أحدٌ منهم.. أنا يا صديقي لن أبقى هنا.. سأنتظر هناك في هذا الزقاق. به مقهى صغير. سأنتظر فيه حتى تأتيني بالأخبار. فلا تجعلني أنتظر طويلاً. أفهمت؟

- حسناً يا سيدي. فقط اسمح لي بالانصراف الآن. لقد فهمت..

- وأنا سأكافئك يا عزيزي.

قال السيد جوليا دكين جملته الأخيرة، وهو يصيح في أثر بيسارنكا الذي نجح أخيراً في التملص منه. فكّر صاحبنا وهو يتسلل خلسة من خلف مدفأة المبنى إلى الشارع: «هذا الوغد أصبح أكثر وقاحة بعد أن عرف بالأمر.. ربما هناك أمرٌ يدبر لي.. هذا واضح تماماً.. لم يشأ أن يقول لي شيئاً من البداية.. على أي حالٍ لقد كان واضحاً أنه في عجلة من أمره ربما لديه أعمال عاجلة كثيرة. وقد قام صاحب السعادة بالمرور والتفتيش مرتين باليوم.. ولكن لماذا؟ حسناً.. لا بأس... قد يكون الأمر تافهاً وغير مهم.. قد تكون المشكلة صغيرة.. لنتنظر وسنرى.»

فتح السيد جوليا دكين باب المبنى وهمّ بالخروج إلى الشارع، ولكن فجأة وفي تلك اللحظة بالذات سمع قرقعة عربة تقترب وتتوقف أمام الباب. كانت تلك عربة صاحب السعادة. ولم

يكّد السيد جولياڊكين يستوعب الأمر حتى انفتح باب العربة ووقف السيد الجالس بداخلها متوجّهاً إلى مدخل المبنى. لم يكن هذا الرجل سوى السيد جولياڊكين الأصغر والذي كان قد خرج قبل عشر دقائق تقريباً. تذكّر السيد جولياڊكين الأكبر أن شقة المدير تقع على بُعد خطوتين من هنا. فكّر صاحبنا في نفسه قائلاً: «إذا فقد كان في مهمة خاصة». وأثناء ذلك كان السيد جولياڊكين الأصغر قد فتح باب المبنى بعد أن كلف السائق ببعض الأشياء. كان ممسكاً بحافظة الأوراق الخضراء الضخمة وحقيبة صاحب السعادة مع أوراق أخرى. وحين فتح الباب أوشك الرجلان أن يصطدما ولكنه تظاهر بأنه لم يلحظ صاحبنا فكانت تلك إهانة كبيرة وإضافة له واندفع يصعد السلم المؤدي إلى المكتب سريعاً.

قال صاحبنا في نفسه: «الوضع في منتهى السوء. أنا في خطر محقق. إلى أي حد ساءت الأمور؟.. يا إلهي». بقي صاحبنا صامتاً بلا حراك للحظاتٍ وقلبه يخفق بقوة وجسده يرتعد. ثم ما لبث أن عزم على شيء ما وانطلق يركض على السلم محاولاً اللحاق برفيقه الذي يحمل نفس اسمه. فكّر في نفسه وهو يخلع قبعته ومعطفه وغطاء حذائه عند مدخل الإدارة: «سواء حدث أم لم يحدث.. لا غبار عليّ ولا ذنب لي. أنا فقط مجرد شاهد في القضية.»

عندما ولج السيد جولياڊكين إلى الغرفة كان الشفق قد اكتمل تماماً. لم يكن أندريه فيليبوفيتش أو أنطون أنطونوفيتش بالغرفة. كان كلاهما بمكتب المدير يقدمان له تقاريرهما. وكان المدير بدوره يسارع بتقديم التقارير إلى صاحب السعادة. ونظراً لهذه الظروف وكون الوقت قد تأخر وحن وقت انصراف الموظفين، كان أغلب الحضور ومعظمهم من الشباب قد انتهزوا العتمة وغياب رؤسائهم وتوقفوا عن العمل وجلسوا ينتظرون ساعة إغلاق المكاتب. فهؤلاء يتحلقون سويّاً يثرثرون وهؤلاء يضحكون حتى إن بعضهم من الأقل درجة قد أخذوا يلعبون قرب النافذة لعبة ملك وكتابة. ولدرايته بالقواعد وشؤون الإدارة وإحساسه بحاجته الماسة في تلك اللحظة إلى معرفة ما يدور وجمع الأخبار فقد اقترب السيد جولياڊكين من بعض الموظفين الذين يجمعه بهم قدر من المودة، وحاول أن يصفحهم. فما أشد ما كانت صدمته حين وجدهم يتهربون من الرد عليه. ثم

تلى ذلك إهانة جديدة أشد وطأة عندما قام السعاة الذين بلا درجة وظيفية بالتعامل معه ببرودٍ وجفاء شديدين. حتى إن أحداً منهم لم يمد يده للسلام عليه. البعض منهم اكتفى بردّ التحية بلسانه ثم ابتعدوا عنه والبعض اكتفى بالإيماءة برأسه ثم تنحى عنه وكأنهم لم يلاحظوا وجوده. أما الشيء الذي أثار حزن السيد جوليادكين بقوة فكان رد فعل بعض الشباب الجدد والذين بلا رتبة وظيفية، والذين وصفهم بقوله إنهم لا يجيدون سوى لعب ملك وكتابة أو أن يبحثوا عن مكان يتسكعون فيه، فقد تحلّقوا حوله رويداً رويداً حتى إنه لم يعد لديه منفذ للخروج، وأخذوا يحدقون في وجهه باحتقارٍ وفضولٍ مهينٍ ووقاحة. كانت تلك إشارة سيئة.. شعر السيد جوليادكين بذلك، وحاول بحكمة أن يتجاهل ما يحدث. غير أنه فوجئ بموقف جديد أفسد عليه كل خطته وأصابه بالإحباط واليأس.

ومن بين مجموعة الشباب المتحلق حوله وفي لحظة كانت الأسوأ والأكثر إحباطاً بالنسبة للسيد جوليادكين الأكبر ظهر السيد جوليادكين الأصغر وبدا مرحاً مبتسماً كعادته كثير الحركة ومنتزف وملتق وساخر وخفيف الساقين وسريع الرد كما عهد دوماً ومثلما كان بالأمس على سبيل المثال وفي تلك الليلة التي تحمل أسوأ ذكرى للسيد جوليادكين. ها هو يتحرك ويبتسم ابتسامة ترحاب بالجميع ويصافح يدَ هذا ويربت على كتف ذاك، ويعانق هذا ويتحدث مع هذا عن سبب تواجده عند صاحب السعادة وعن نتائج عمله وجهده ونشاطه وعن ما أحضر معه. حتى إنه قام بتقبيل أحد الموظفين في شفتيه ربما لأنه صديقه المقرب. باختصار كان ما يجري مطابقاً تماماً لما رآه السيد جوليادكين الأكبر في منامه. وبعد أن شبع من التحيات والسلامات على الجميع والتزلف والتملق والرياء المصطنع بدا أن السيد جوليادكين الأصغر لم يلاحظ صاحبنا، ومدّ يده بالخطأ إليه ليصافحه وسرعان ما أفلت صاحبنا هذه اليد عن سهو أيضاً.. لأنه كان قد تيقن بالفعل في تلك اللحظة أن هذا الرجل يكيده المكائد وأنه شخص دجال مخادع. أمسك باليد التي امتدت إليه فجأة بحماس وصافحها بقوة وردّ التحية بعاطفة جياشة ومودة. فهل يا ترى خدع صاحبنا بتلك الإشارة الأولى من عدوه الوقح أم أن ذلك بفعل المفاجأة والصدمة لا أكثر؟ أم لأنه شعر في تلك اللحظة بضعفه وحاجته للحماية. من الصعب الإجابة على هذا

السؤال. الحقيقة المؤكدة أن السيد جوليا دكين الأكبر كان في كامل إدراكه ووعيه، وأنه قد فعل ذلك بإرادته الكاملة. فقد شد على يد رفيقه بقوة وعلى مرأى من الجميع، وصافح من كان يطلق عليه عدوه اللدود.

ولكن يا لحجم الدهشة والذهول والغضب والخجل الذي شعر به حين رأى عدوه اللدود، السيد جوليا دكين الأصغر الشرير، ينتزع يده بقوة وبشكل مفاجئ من يد صاحبنا ثم يتظاهر وكأنه يطهرها من شيء علق بها نتيجة لتلك الملامسة. ثم أتبع ذلك ببصقه على الأرض إمعاناً في الإهانة ثم أخرج منديله وأخذ يمسح يده التي صافحت صاحبنا ولا مستها للحظات قليلة فقط. وفي أثناء ذلك وكعادته المقيمة كان السيد جوليا دكين الأصغر ينظر حوالبه إلى الحضور، وكأنه يتعمد أن يراه الجميع ويتفرس في أعينهم كأنه يحرضهم جميعاً على كراهية السيد جوليا دكين.

بدا أن سلوك السيد جوليا دكين الأصغر المستفز والمثير للاشمئزاز قد أثار استياء عاماً بين الموظفين حتى إن الحضور من الشباب الصغير قد أظهر غضبه علانية وعلت أصواتهم علامة على الاستياء. ووصل ذلك إلى مسمع السيد جوليا دكين الأكبر بوضوح. غير أن المخادع والدجال عاجلهم بنكتة فضحكوا فأصاب ذلك صاحبنا بالإحباط مرة أخرى، حيث ذهب آخر أحلامه أدراج الرياح بعد أن مالت الكفة مرة أخرى إلى جانب عدوه اللدود الشرير.

صرخ السيد جوليا دكين الأصغر بصوته الوقح المعروف عنه: «أيها السادة! انظروا إلى هذا الدون جوان الروسي الذي يهوي الإيقاع بالنساء. اسمحوا لي أن أقدم لكم الشاب المغرر بالنساء». كان يتحرك بين الحضور مشيراً بإصبعه إلى السيد جوليا دكين الحقيقي. واصل يتحدث بتبسط لا يُطاق مقترباً من صاحبنا المطعون والمغدور به «هيا. فلأقبلك وتقبلني يا روعي». ويبدو أن مزحته تلك قد لاقى استحسان بعض الحضور على الرغم من سخافتها لا سيما وأنها تلمح بوقاحة إلى واقعة يعرفها الجميع على ما يبدو.

شعر صاحبنا بيد أعدائه وقد أثقلت كاهله. كان قد اتخذ قراره على أي حال. فإذا به يتملص من بين الحشد صاحب الوجه ومنتقد النظرات وعلى وجهه ابتسامة جامدة. لم يشعر كيف خرج من بينهم، وإذا به يتجه إلى مكتب صاحب السعادة وهو يترنح. ولما وصل إلى هناك وجد أندريه فيليبوفيتش وقد خرج من عنده للتو. وعلى الرغم من تواجد عدد كبير من الأشخاص في الغرفة وأغلبهم ليس لهم علاقة بقضية السيد جوليادكين إلا أن ذلك لم يثن بطلنا عن فعله. فاستجمع قوته وشجاعته حتى إنه ذهل هو نفسه من ذلك وسر كثيرًا واتجه من فوره نحو أندريه فيليبوفيتش الذي فوجئ بهذا الهجوم المباغت.

سأل مدير القسم دون أن يصغي إلى كلام السيد جوليادكين المضطرب:

- ما الذي جاء بك؟ ماذا تريد؟

أجابه صاحبنا بصوت واضح نقي موجهاً نظراته بكل حزم إلى محدثه:

- أندريه فيليبوفيتش.. هل لي يا أندريه فيليبوفيتش بالحديث على انفراد مع صاحب السعادة؟

- ما الذي تقوله؟ بالطبع لا..

أخذ أندريه فيليبوفيتش يحدق في بطلنا من رأسه حتى قدميه.

- أنا يا أندريه فيليبوفيتش طلبت ذلك بسبب دهشتي من عدم تجرؤ أي شخص هنا على فضح أمر هذا الدجال الحقير.

- ماذا؟

- الحقير يا أندريه فيليبوفيتش.

- من تعني بقولك الحقير؟

- أعني ذاك الشخص الشهير يا أندريه فيليبوفيتش. هو بعينه. أنا ألمح يا أندريه فيليبوفيتش إلى هذا الرجل وأنا محق في ذلك. وأعتقد يا أندريه فيليبوفيتش أن الإدارة لا بد وأن تدعمني فيما أقوم به.. وأنا على يقين من تفهّمك مغزى وهدف مبادرتي تلك. فهي مبادرة نبيلة وحسنة النية. كما أنني أومن بأن رئيسنا هو بمثابة الأب لنا يا أندريه فيليبوفيتش؛ ولذا فإنما أضع مصيري بين يديه. سأخبره.. هذا ما سأفعله..

وهنا ارتجف صوتُ السيد جولياديكين واحمرَّ وجهه وسقطت دمعتان من عينيه فأغرقتا رموشه.

أصابت كلمات السيد جولياديكين أندريه فيليبوفيتش بالدهشة والذهول، حتى إنه تراجع خطوتين أو ثلاثة للخلف ثم أخذ ينظر حواليه بقلق.. بدا وكأنه في مأزق لا خروج منه. وفجأة فتح باب مكتب صاحب السعادة وخرج هو بنفسه ومعه بعض الموظفين ثم تبعهم الجميع الذين كانوا بانتظارهم في الخارج. نادى صاحب السعادة أندريه فيليبوفيتش ومشى معه قليلاً وهو يتحدث في أمرٍ ما يتعلق بالعمل. وعندما همَّ بالخروج من الغرفة أفاق السيد جولياديكين من شروده وعاد إلى رشده فمضى خاضعاً خلف أنطون أنطونوفيتش سيتوتشكين الذي كان يمشي في آخر الصف، وبدا لصاحبنا متجهماً صارماً. قال صاحبنا في نفسه: «مرة أخرى اندفع.. مرة أخرى ارتكب حماقة.. على أي حال لا بأس».

قال بصوت هادئ مرتجف بفعل قلقه:

- «آمل على الأقل يا أنطون أنطونوفيتش أن تنصت إليّ وتتفهم دوافعي. أنا وقد أصبحت منبوذاً من الجميع ألجأ إليك أنت يا أنطون انطوفيتش، وأنا عاجزٌ حتى الآن عن فهم مغزى كلمات أندريه فيليبوفيتش. هلا فسرتها لي إن شئت؟»

أجاب أنطون أنطونوفيتش بلهجة قاسية وكلمات متقطعة:

- سأفسر لك كل شيء في أوانه أيها السيد.

بدا للسيد جوليا دكين أن رئيسه لا يرغب في مواصلة الحوار معه.

- ستعرف كل شيء قريبًا. سيتم إبلاغك رسميًا بكل شيء اليوم.

- ما معنى ذلك يا أنطون أنطونوفيتش؟ ما معنى كلمة «رسميًا»؟ سأل السيد جوليا دكين بخوف ووجل.

- ليس من حقي أو حقك يا ياكوف بيتروفيتش مناقشه قرارات رؤسائنا.

- و ما دخل رؤسائنا في الموضوع يا أنطون أنطونوفيتش؟ سأل السيد جوليا دكين وعلى وجهه علامات عدم الفهم والحيرة.

- ما شأنهم بهذه القضية؟ أنا لا أجد سببًا أو مبررًا لإزعاج رؤسائنا يا أنطون أنطونوفيتش. ربما أنت تلمح إلى ما حدث بالأمس يا أنطون أنطونوفيتش؟

- لا.. لا أقصد ما حدث بالأمس.. إن القضية تتعلق بأمر آخر يثير غضب الجميع.

- ماذا تقصد يا أنطون أنطونوفيتش؟ يبدو يا أنطون أنطونوفيتش أنه لا يوجد شيء غير مستقيم قد اقترفته في حياتي.

قاطعته أنطون أنطونوفيتش بحدة فزاد من خوفه ورجفته وسأله:

- وماذا عن المكائد؟ مع مَنْ كنت تدبر المكائد؟

تخلى السيد جوليا دكين تمامًا عن شجاعته، وارتجف بشدة وشحب وجهه وردَّ بصوت بالكاد يُسمَع:

- بالطبع يا أنطون أنطونوفيتش. طالما تصغون إلى أعدائي فقط ولا تمنحون فرصة للمتهم للدفاع عن نفسه فمن الطبيعي عندها أن... نعم من الطبيعي في هذه الحالة يا أنطون

أنطونوفيتش أن يتعرض الشخص البريء للظلم ويعاني ألم الغبن.

- وماذا عن جريمتك الحقيرة وتلويث سُمعة بنت شريفة من عائلة صالحة ومحترمة وتحظى بحب الجميع ولهم الفضل على الكثيرين وأنت منهم.

- عن أيّ شيءٍ تتحدث يا أنطون أنطونوفيتش؟

- عن تلك الجريمة أيها السيد.. وماذا تقول أيضًا عن الفتاة الأخرى التي على الرغم من فقرها إلا أنها تنتمي إلى عائلة أجنبية محترمة؟

- اسمح لي يا أنطون أنطونوفيتش.. اسمعني من فضلك يا أنطون أنطونوفيتش..

- وماذا عن تصرفك الوقح الخسيس مع ذاك الرجل الذي غدرت به واتهمته بجرائم أنت الذي اقترفتها؟ ماذا تقول عن ذلك؟ كيف يمكن أن نسمي هذا؟

قال صاحبنا مرتجفًا:

- أنا يا أنطون أنطونوفيتش لم أطرده.. ولم آمر خادمي بيتروشكا أن يفعل ذلك يومًا. لقد أكل خبزًا وملحًا معي يا أنطون أنطونوفيتش واستغل كرمي الشديد معه.

قال صاحبنا جملته الأخيرة بصوت معبر وبكثير من التأثر والانفعال حتى إن ذقنه كانت ترتجف والدموع كادت أن تنهمر من عينيه.

أجابه أنطون أنطونوفيتش بسخرية هزت محدثه بشدة:

- هذه الحكاية من اختراعك يا ياكوف بيتروفيتش.. حكاية أنه أكل خبزًا وملحًا معك واستغل كرمك.

- اسمح لي يا أنطون أنطونوفيتش أن اطرح عليك سؤالاً لعلّه الأخير. هل يعلم صاحب السعادة بهذه الأمور؟

- بالطبع .. والآن دَعْنِي وشأني. ليس لدي وقت أضيعه معك.. اليوم ستعرف كل شيء.

- أستحلفك بالله يا أنطون أنطونوفيتش أن تبقى معي لدقيقة واحدة أخرى..

- سأستمع إليك فيما بعد.

- لا يا سيدي، لا يا أنطون أنطونوفيتش، أنا كما ترى.. أصغ إليّ فقط يا أنطون أنطونوفيتش.. أنا لست إنساناً أهوج على الإطلاق يا أنطون أنطونوفيتش، وأنا على استعداد تامّ من جهتي لأن أتقبّل فكرة..

- حسناً حسناً أيها السيد.. لقد سمعت هذا من قبل أيها السيد.

- لا يا سيدي، لم تسمع هذا من قبل يا أنطون أنطونوفيتش. هذا شيء آخر يا أنطون أنطونوفيتش. سأقول قولاً مفيداً. أؤكد لك. شيء مفيد وسيسرك سماعه.. لقد سبق وقلت أن الله قد يخلق شخصين متشابهين تماماً يا أنطون أنطونوفيتش، وأن الإدارة الكريمة بما لديها من بصيرة متقدمة قد أدركت قدرة الله ومشئته، فأنعمت علينا نحن الاثنين بكرمها ورعايتها... تلك فكرة طيبة يا أنطون أنطونوفيتش. أنا لست مع الأفكار الهوجاء. وأنا أعتبر رؤسائي في الإدارة بمثابة آباء لي. هذا ما أعتقده. هناك رؤساء طيبون رحماء وكرماء، وهناك من جهة أخرى شباب في حاجة إلى العمل. ساعدني يا أنطون أنطونوفيتش. احمني يا أنطون أنطونوفيتش. أنا لست سيئاً.. أستحلفك بالله يا أنطون أنطونوفيتش.. اسمح لي أن أقول كلمة واحدة أخرى.. أنطون أنطونوفيتش..

ولكن الأخير كان قد ابتعد عن السيد جوليا دكين. وقف صاحبنا لا يدري أين هو ولا ما الذي سمعه، ولا ماذا يفعل، ولا ما الذي صنّع به، ولا ما الذي سيصنع به بعد ذلك.. اضطربت نفسه كثيراً من هول ما سمع وما حدث معه.

وبنظرة خاضعة متوسله أخذ يبحث بين الموظفين عن أنطون أنطونوفيتش؛ لكي يبرئ نفسه أمامه، ويقول له قولاً طيباً يمدح به نفسه وخلقة وطباعه القويمة.. ورويداً رويداً أخذت ومضة جديدة تتسلل وتخترق حالة الخجل التي يعاني منها السيد جوليا دكين. كانت ومضة جديدة مخيفة وقد كشفت له عن آفاقٍ رحبة لأحداث مجهولة تماماً، حتى إنها تبدو مستحيلة.. وفي تلك اللحظة دفع أحدهم صاحبنا المهزوم في خاصرته. فالتفت من فوره فوجد بيسارنكا أمامه.

- هذه رسالة لك يا سيدي النبيل.

- ها.. هل أوصلت رسالتي يا عزيزي؟

- لا. تلك الرسالة وصلت اليوم صباحاً. أحضرها سيرجي ماخييف الحارس من شقة سكرتير المقاطعة فاخرامايف.

- حسناً يا صديقي. حسناً. لا بُدَّ وأن أكافئك يا عزيزي.

نطق السيد جوليا دكين بهذه الكلمات ثم أخفى الرسالة في جيب سترته ثم عقد أزرارها بإحكام. ونظر حوالياه فدهش كثيراً عندما وجد نفسه في الممر الكبير وسط باقي الموظفين المتجهين إلى باب الخروج بعد انتهاء مواعيد العمل. لم يكن السيد جوليا دكين قد أدرك ذلك بعد، ولم يتذكّر السبب الذي جعله يقف في منتصف الممر فجأة مرتدياً معطفه ومنتعلاً حذاءه وممسكاً بقبعته.

كان الموظفون في حالة سكون وانتظار وقور لأن صاحب السعادة كان يقف في الأسفل في انتظار عربته ويتبادل حديثاً مهماً مع اثنين من مستشاريه ومع أندريه فيليبوفيتش.. وبالقرب منهم كان يقف أنطون أنطونوفيتش وعدد من الموظفين الآخرين الذين كانوا يبتسمون بشدة وهم يرون صاحب السعادة يمزح ويضحك. كان المحتشدون من الموظفين في الأعلى أيضاً يضحكون باستثناء واحداً فقط وهو فيودوسيتش الحارس السمين

الواقف عند الباب ممسكًا بالمقبض وينتظر بشدة أن يحصل على المتعة اليومية عندما يصرع الباب بدفعة واحدة ثم ينحني احترامًا أمام صاحب السعادة وهو يمر.. أما الشخص الأكثر سعادة ورضا على ما يبدو، فكان العدو الشرير للسيد جوليا دكين. ذلك العدو الذي لا يستحق سوى التجاهل واللامبالاة.

كان في تلك اللحظة كمن نسي زملاءه الموظفين كلهم ولم يكن يتنقل بينهم ويدور كعادته التي جُبل عليها. حتى إنه نسي في تلك اللحظة أن يتملق ويتزلف إلى أحدٍ منهم. كان في تلك اللحظة يسترق السمع ويحدّق ببصره بقوة متفوقًا على نفسه، ربما حتى ينصت بشكل أفضل إلى الحوارات دون أن يسقط نظره عن صاحب السعادة، ومن حينٍ لآخر كانت التجاعيد تبدو على وجهه كاشفة عن اضطراب روحه.

فكر صاحبنا في نفسه: «انظر كيف يتصنع! يبدو أنه محبوب هذا المخادع. وددت لو أعرف كيف يستولي على حب الناس هكذا. إنه فاقد لكل شيء، فلا فكر لديه ولا عقل ولا شخصية ولا ثقافة ولا مشاعر. ولكنه محظوظ هذا الفاجر. يا إلهي. كيف يمكن لشخص تحقيق هذا النجاح بهذه السرعة. يا إلهي. كيف لي أن أعرف عن أي شيء كانوا يتهامون؟ هل لي أن أسأله أو أن أقول له: «إنني مذنبٌ وأعترف بإثمي.. ففي هذا الزمن لا مفرًا للرجل من العمل يا صاحب السعادة.. وأنا لست خجلًا من هذا التشابه الغريب الذي يثير في النفس الاضطراب. أعدك ألا أحتجّ بعد الآن. أعدك أن أصبر على أي مكروه، صغيرًا كان أم كبيرًا».. هل هذا ما عليّ فعله؟ لا... إن هذا لن يجدي مع هذا الفاسق.. لن تؤثر فيه الكلمات أبدًا.. ولا يمكن إقناع غبي مثله حتى يعود إلى صوابه ورشده. ولكن لا ضير من المحاولة. ربما تواتيني فرصة مناسبة.. سأحاول إدا».

تحرك صاحبنا رويدًا رويدًا في اتجاه المكان الذي يقف فيه رفيقه الكريه والغامض. كان السيد جوليا دكين حزينًا خجلًا وحائرًا. أحس أن اللحظة الحاسمة تقترب، وأن عليه أن يصارح أحدهم بالحقيقة، وشيئًا فشيئًا شقّ لنفسه طريقًا بين الحشود حتى أصبح أمام ذلك الرجل الغريب والحقير الذي كان يعتبره رفيقه ليلة أمس.

غير أن صوت عجلات العربة وهي تتوقف لفتت انتباه الجميع. كانت تلك هي العربة التي ينتظرها صاحب السعادة منذ وقت طويل. فتح فيدوسيتش باب العربة وانحنى أمام صاحب السعادة وهو يمر أمامه، وأسرع باقي الموظفين نحو باب المبنى في وقتٍ واحدٍ تقريبًا حتى إنه من شدة الزحام دفعوا السيد جولياديكين الأكبر بعيدًا عن السيد جولياديكين الأصغر. قال صاحبنا: «لن تفلت مني». ثم تفرَّق الموظفون بعد خروجهم من الباب؛ فإذا بصاحبنا حُرٌّ فركض مسرعًا يحاول اللحاق بعدوّه.

## الفصل الحادي عشر

كان السيد جوليا دكين يلهث وهو يلاحق عدوّه الذي يبتعد سريعًا كما لو كان له جناحان يطير بهما. كان يشعر بطاقةٍ مخيفةٍ بداخله. وعلى الرغم من هذه الطاقة الهائلة التي تملكته، إلا أنه كان يعرف جيدًا - في هذه اللحظة بالذات - أنه في وسع ذبابة أن تطرحه أرضًا بسهولة إذا لطمته بجناحها لطمة صغيرة، هذا إذا وُجدَ ذباب في بترسبورج في مثل هذا الفصل من السنة. كان يشعر أيضًا بأنه عاجز عن مواصلة السير على قدميه، وكان يشعر في الوقت نفسه أن قوة غريبة تجرّه جُرًّا. كانت قدماه تصطكان ببعضهما، ولا تسعفانه. ولولا تلك القوة الغريبة التي تملكته منه لما استطاع أن يخطو ولو خطوة واحدة للأمام.

أخذ السيد جوليا دكين يردد لنفسه، وهو متقطع الأنفاس من الركض: «ما زلت أستطيع أن أنهي الأمر على الوجه الأمثل. نعم بل على أفضل وجه، أو ربما على أسوأ وجه. لقد خسرت المعركة. ليس لديّ الآن أدنى شك أنني قد انتهيت.. انتهيت تمامًا. صار كل شيء واضحًا جليًّا.. لقد قضي الأمر كما كان مُقدَّرًا له».

وعلى الرغم من كل هذا، كانت اللحظة التي استطاع فيها بطلنا التشبث بمعطف عدوّه لحظة حاسمة وكأنها منحته طوق النجاة، أحس حينها أنه يصارع عدوّه وانتصر عليه، وصاح يناديه قائلاً:

- سيدي! سيدي! سيدي! أمل منك أن...

فردّ عليه عدوّه بفضافة:

- من فضلك، لا تأمل بأي شيء.

قال قوله هذا وهو يضع إحدى قدميه في العربة، محاولاً إدخال القدم الأخرى في اضطراب، وجاهد كثيراً حتى يستطع الحفاظ على توازنه. كما جاهد كثيراً للخلاص من قبضة السيد جوليا دكين التي تُمسك به من طرف معطفه. ولكنَّ بطلنا ظلَّ يمسك بمعطف خصمه بكل ما أوتي من قوة.

- ياكوف بيتروفيتش! عشر دقائق فقط.

- معذرة ليس لديَّ وقت.

- ياكوف بيتروفيتش! أرجوك، لأجل الرب، أتوسل إليك. ثانية واحدة، ياكوف بتروفيتش! سأفسر لك كل شيء.

فأجاب عدوُّه بطريقة تخلو من اللياقة، ولكنها مغلفة بالطيبة واللفظ:

- يا عزيزي ليس لديَّ متسع من الوقت.

وأردف يقول:

- في وقتٍ آخر، صدقني، سيسرني أن أستمع إليك من قلبي، أما الآن فحقاً مستحيل.

هنا همهم بطلنا قائلاً:

- يا له من جبان!

ثم صاح وقلبه يعصره الخوف:

- ياكوف بيتروفيتش! لم أكن عدوَّك يوماً ما، إن السنة السوء قد كالت لي الاتهامات الظالمة، وأنا عن نفسي مستعد أن... ياكوف بيتروفيتش، هلا دخلنا لحظة إلى هذا المقهى فتصراحنا، وتحدَّثنا بقلب مفتوح على حدِّ تعبيرك الدقيق، سنتحدث بصراحة. وسترى

بنفسك: سيصبح كل شيء واضحًا جليًا. نعم يا ياكوف بيتروفيتش سيصبح كل شيء واضحًا حتمًا.

- في هذا المقهى؟ حسنًا.. موافق. سأدخل معك إلى هذا المقهى بشرط... بشرط واحد يا مبعث سعادتي، وهو أن تتضح لي الأمور كاملة بعد هذا النقاش.

كانت تلك كلمات جوليا دكين الأصغر وهو يهبط من العربة، ويربت على كتف بطلنا دون خجل. وأردف قائلاً:

- آه منك أيها الصديق القديم لأجلك يا صديقي أنا مستعد لأن أسلك أصعب الدروب، مثل ذلك الزقاق الذي اقترحت عليّ أن نمشي فيه في أول ليلة التقينا. هل تتذكر؟ ..

ما أشد مكره هذا المدعو ياكوف بيتروفيتش، إنه يصنع بي ما يشاء.

أردف الرفيق غير الحقيقي بهذه الكلمات، وهو يبتسم ابتسامة خفيفة، ويحوم ويدور حول بطلنا.

كان المقهى، البعيد عن الشوارع الكبيرة، وحيث دخل السيدان جوليا دكين، خاليا تمامًا في تلك اللحظة، إلا من سيدة ألمانية سمينة خرجت لهما من خلف البسطة حين سمعت صوت الباب عندما انفتح. مضى السيد جوليا دكين وعدوه الحقير إلى الغرفة المجاورة، حيث كان هناك صبي بدين حليق الرأس يتحرك حول المدفأة محاولاً أن يشعل النار ثانية بعد أن خمدت. ثم أحضر الجرسون مشروب الشكولاتة حسب طلب السيد جوليا دكين الأصغر.

قال جوليا دكين الأصغر لصديقه وهو يغمز بعينه بخُبتٍ:

- امرأة صغيرة حلوة...هه؟

فاحمرَّ وجه بطلنا وظلَّ صامتًا.

- ها، معذرة. لقد نسيت تمامًا. فأنا أعرف ذوقك. نحن يا سيدي نعشق الألمانية النحيلات الرشيقا، نعم يا روجي الطاهرة يا ياكوف بيتروفيتش، نحن نميل إلى الألمانية النحيلات شريطة ألا يعوزهن شيء من فتنة وإغراء طبعًا، نستأجر في بيوتهن غرفًا ثم نغويهن، وفي مقابل أطباق الطعام الصغيرة التي يقدمها لنا، ومقابل صحن البيرة واللبن، نمنحن قلوبنا وقليلًا من المال. أليس هذا ما نقوم به؟ آه منك يا ساحر النساء!

كان السيد جوليادين الأصغر يوجّه كلامه إلى بطلنا وهو يرسم ابتسامة مصطنعة على وجنتيه ويرسل إشارات وإيماءات في غير وقتها عن امرأة بعينها وهو يحوم ويدور حول السيد جوليادين، ويبتسم نحوه مجاملة له، معربًا عن فرحته بوجوده معه. ولكن بطلنا لم يكن من السذاجة بحيث تنطلي عليه هذه الحيل، كانت ثقافته وأخلاقه الحميدة سلاحين يذودان عنه في هذه المواقف، ولم يكن من السهل أن يصدق على الفور. فلما لاحظ صاحبه المقيت الكريه ذلك، أسرع يبدّل أسلوبه، وأصبح اللعب على المكشوف.

وقد بادر بوضع يده على كتف بطلنا وظلّ هكذا دون خجل، رافعًا الكلفة بشكل يثير الحفيظة، ويبعث على السخط والحنق. ولم يكتفِ بذلك بل اندفع يمازحه بنكات بذيئة. ثم أراد أن يكرر تصرفه المقيت بالأمس حين قرص بطلنا في خدّه. ورغم ما أظهره بطلنا من مقاومة واستياء، إلا أنه كبح زمام نفسه ولزم الصمت، ثم أجاب بصوت مضطرب وهو يحاول السيطرة على نفسه:

- هذا ما ينطق به أعدائي.

وفي تلك اللحظة نفسها ألقى بطلنا نظرة قلقة نحو الباب. والحقيقة هي أن السيد جوليادين الأصغر كان على ما يبدو في حالة مزاجية ممتازة، وعلى استعداد لإطلاق المزيد من النكات التي لا يمكن قبولها في مكان عام، أو في مجتمع محترم بأي حال من الأحوال.

وأجاب جوليادين الأصغر وهو يضع قدحه الذي التهمه بشراهة ودون خجل:

- لم نلتق منذ زمن طويل، ولكن... حسنًا، سيدي، كيف حالك الآن، ياكوف بيتروفيتش؟

أجاب بطلنا بهدوء وبعزة نفس:

- لا يمكنني إلا أن أخبرك بشيءٍ واحدٍ، يا ياكوف بيتروفيتش، لم أكن عدوك أبدًا في يوم من الأيام.

- همم.. حسنًا! وبتروشكا؟ ما اسم ذلك القرد؟ بتروشكا! أليس كذلك؟ نعم هو كذلك. كيف حاله الآن؟ أظن أنه بخير. هل ما زال كما هو؟

فأجاب السيد جوليا دكين وهو في دهشة مما يسمعه:

- حالته جيدة، مثلما كان دائمًا ياكوف بيتروفيتش. حقيقة لا أدري ماذا أقول.. لكنني من جهتي.. بكل صراحة ووضوح ونية طيبة.. أنت تعرف يا ياكوف بيتروفيتش.

قال السيد جوليا دكين الأصغر بصوت شجي معبر، ومتصنّعًا هيئة إنسان غارق في أحزانه، نادم أشد الندم.. هيئة إنسان جدير بالشفقة والرثاء والرحمة:

- نعم! ولكنك تعلم يا ياكوف بيتروفيتش، تعلم أنت نفسك كم هو صعب هذا الزمن الذي نعيشه.

ثم أضاف وكان قد عزم على تملُّق بطلنا:

- ياكوف بيتروفيتش، سوف أشهدك أنت نفسك. أنت رجل ذكي وبمقدورك الحكم بإنصاف على الأشياء.. الحياة ليست لعبة ولا هي مادة للمرح، يا ياكوف بيتروفيتش! وأنت تعرف هذا جيدًا.

نطق السيد جوليا دكين الأصغر بهذه الكلمات وهو يرسم على وجهه ملامح الشخص الذكي المثقف، الذي يمكنه التحدث عن أهم الموضوعات في الحياة.

فردًا بطلنا بحماسة:

- من جهتي يا ياكوف بيتروفيتش! سأكلمك بصراحة وأؤكد لك بكل صدق وإخلاص، أنني سأضع الأمور في نصابها، إنني بريء كل البراءة.. نعم يا ياكوف بيتروفيتش أستطيع أن أؤكد لك ذلك. ثم إنك تعرف يا ياكوف بيتروفيتش أن الأمر كله نتج عن سوء فهم متبادل - وكل شيء وارد في هذه الحياة. هو سوء فهم فاقمته أحكام المجتمع. أنا أحدثك بكل صراحة، ياكوف بيتروفيتش! كل شيء ممكن في هذه الحياة كما ذكرت لك. وأضيف لك يا ياكوف بيتروفيتش! إذا ارتضينا أن ننظر إلى الأمر كله نظرة صادقة، فأستطيع بلا خجل زائف أن أؤكد لك يا ياكوف بيتروفيتش، بل إنه يكاد يسرنى أن أعترف لك ببعض ما ارتكبت من أخطاء، وما وقعت فيه من ضلالات.. نعم. أنت تدرك جيدًا كل ما اعترفت به، فأنت شخص ذكي، وعلاوة على ذلك، إنسان نبيل. أنا مستعد للاعتراف بذلك دون خجل زائف أو حياء كاذب.

هكذا ختم بطلنا كلامه بكل عزة نفس ورفعة ووقار.

فردًا السيد جوليادكين الأصغر وهو يتنهد قائلاً:

- دعنا من الكلام عن المصير والقدر! يا كوف بيتروفيتش.. لا داعي لهذا الحديث الآن. لعلّه من الأفضل أن نستغل الدقائق القليلة التي تجمعنا في حديث أكثر فائدة ومنتعة. هذا ما يليق بنا كرفيقين. حقًا، أنا لم أستطع أن أقول كلمتين طوال هذه المحادثة ولو بأي طريقة.. ولست أنا المذنب في ذلك، يا ياكوف بتروفيتش..

فقاطعه بطلنا يقول بحماسة:

- ولا هو ذنبي! ليس ذنبي مطلقًا.. قلبي يخبرني، يا ياكوف بتروفيتش، إنه ليس ذنبي.

وأضاف السيد جوليادكين بنبرة الذي يسعى لمصالحة محاوره: «فلنلقِ على القدر تبعات هذا كله يا ياكوف بتروفيتش». بدأ صوته يضعف تدريجيًا ويرتعش.

قال صاحبه المنافق بصوتٍ رقيقٍ عذبٍ:

- ماذا بك؟ كيف هي صحتك في هذه الأيام؟

قال السيد جوليا دكين بصوتٍ عذبٍ:

- أعاني من سعالٍ خفيفٍ.

- يجب أن تحذر. إن هذا هو أوان انتشار الأمراض المعدية. ما أسهل أن يصاب المرء بالتهاب في الحلق هذه الأيام. لا أخفيك سرًّا، أنا أرتدي قميصًا داخليًّا من الصوف.

فعلّق بطلنا بعد صمتٍ قصيرٍ:

- أنت مُحقٌّ، يا ياكوف بيتروفيتش! ما أسرع أن يصاب المرء بالتهاب في الحلق في هذه الأيام. أرى أنني كنت مخطئًا.. أتذكر بكثير من الشوق تلك اللحظات السعيدة التي استطعنا أن نقضيها معًا في بيتي، الذي رغم كونه متواضعًا، إلا أنني في الوقت نفسه أجرؤ على وصفه بالبيت المضياف.

ردَّ السيد جوليا دكين الأصغر بنبرة عتاب:

- ولكنك قلت شيئًا غير ذلك في رسالتك.

وبدرجة ما كان السيد جوليا دكين الأصغر في تلك اللحظة.. في تلك اللحظة فقط صادقًا كل الصدق.

- يا ياكوف بتروفيتش! أنا كنت مخطئًا تائهاً.. أرى الآن بوضوح أنني كنت مخطئًا حينما كتبت لك ذلك الخطاب التعيس. ياكوف بتروفيتش، إنني أستحي منك ولا أقوى على النظر إليك بسبب ذلك، ربما لن تصدق.. اسمع.. أعد إليّ تلك الرسالة.. سوف أمزقها أمامك يا ياكوف بيتروفيتش، وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فإنني أرجوك أن تقرأها من زاوية أخرى،

عكس ما هو مكتوب تمامًا، أقصد أن تتعامل مع الرسالة من منطلق المعاني الصداقة والمودة، وأن تفهم كل كلمة من كلماتها بالمعنى المعاكس تمامًا. لقد ارتكبت خطأ كبيرًا، ولن أغفر هذا لنفسى يا ياكوف بيتروفيتش.

ردّ الرفيق المنافق وقد لاحت على وجهه علامات الذهول واللامبالاة:

- ماذا تقول؟

- أعترف بأننى قد أخطأت خطأ كبيرًا، يا ياكوف بيتروفيتش، وأنى على أتم استعداد، بكل صدق وبلا خجل كاذب، أن ...

ردّ جوليا دكين الأصغر بفضاظة:

- آه، نعم، هذا صحيح! أنت أخطأت.. هذا صحيح تمامًا.

«أنا، يا ياكوف بتروفيتش، كان لديّ فكرة» - نطق بطلنا بصدق ووقار دون أن يلحظ الازدواجية البشعة في سلوك رفيقه الوقح - لقد خطرت ببالي فكرة: لقد خلقنا الله شخصين متماثلين تمامًا..

- آه! هذه هي فكرتك إذًا!

نطق السيد جوليا دكين الأصغر بهذه الكلمات وهو ينهض ممسكًا بقبعته.

ونهض السيد جوليا دكين أيضًا. إنه ما زال لا يلاحظ الخداع الذي يقوم به عدوّه. كان لا زال يبتسم في نبل ومودة، محاولاً ملاطفة عدوّه، ومواساته، وأن يعقد معه صداقة جديدة.

فصاح السيد جوليا دكين الأصغر فجأة:

- وداعًا، صاحب السعادة!

ارتجف بطلنا حين لحظ في وجه عدوّه ذلك التعبير الساخر. وحتى يتخلص من هذا الشعور الذي تملّكه في تلك اللحظة وضع إصبعين من يده في اليد التي مدّها إليه شبيهه الوقح. وفي هذه اللحظة، هنا تمامًا، تجاوزت وقاحة السيد جوليا دكين الأصغر كل حدّ. فها هو ذا يقبض على الإصبعين، ويضغطهما، في رغبة أن يكرر مزحة الصباح مع بطلنا مرة أخرى.

وهنا فقد بطلنا ما تبقى لديه من صبرٍ. أعاد جوليا دكين الأصغر المنديل الذي مسح به يديه إلى جيبه، وخرج. وفي تلك اللحظة استرد السيد جوليا دكين أخيرًا صوابه، فأسرع يلحق بعدوّه. ولكن عدوّه كان قد تسلل كعادته، وأصبح في الغرفة الأولى. إنه الآن يقف قُربَ البسطة متكئًا، يلتهم بعض الفطائر في هدوءٍ، ويتحدث مع الألمانية بائعة الفطائر بلطف وأدبٍ.

همس بطلنا لنفسه: «لا داعي لأن تفضح أمرنا أمام النساء».

واقترب بدوره من البسطة وهو في شدة الانفعال.

- في الحقيقة هذه المرأة لا بأس بها! فما قولك؟

بدأ السيد جوليا دكين الأصغر الأعيبه المبتذلة من جديد، وربما كان يعول على صبر بطلنا الذي لا ينفد على ما يبدو. من جانبها، نظرت الألمانية السمينة إلى كل من زائريها بنظرات لا تعبّر عن شيء، مع ابتسامة تودّد وتلطف، وكان من الواضح أنها لا تفهم الروسية.

لم يحتمل بطلنا كلمات السيد جوليا دكين الأصغر الوقحة، وصار عاجزًا عن السيطرة على نفسه، فاندفع أخيرًا باتجاهه وهو يغلي من الحنق، يريد أن ينتقم منه ويجهز عليه مرة واحدة. ولكن هذا الجبان كان قد ابتعد كعادته مستفيدًا بمهاراته في الخداع. وثب فجأة فصار على درجات مدخل البيت.

أصاب الذهول السيد جوليادكين، ولكنه سرعان ما استفاق من الصدمة، فهرع يلاحق الشخص الذي أهانه للتو بكل ما أوتي من قوة. ولكن عدوه لم يلبث أن ركب عربة كانت تقف في الشارع. ولا شك أن السائق الذي يركبها كان متواطئاً مع ذلك المخادع.

ولكن في تلك اللحظة بالذات، أطلقت الألمانية البدينة، وقد رأت زبونها يفران، صرخة حادة، وهزت جرس الباب بكل قوة، فالتفت السيد جوليادكين إلى الخلف وهو يركض، وألقى إليها ببعض النقود مقابل ما شربه وصاحبه، وتابع الركض نحو العربة دون أن ينتظر أن ترد له الباقي، ورغم هذا الوقت الضائع استطاع أن يلحق بخصمه من جديد والعربة تتحرك.

تشبث السيد جوليادكين بطرف العربة بكل قوته، وظل على هذا الحال يحاول أن يتسلق إلى داخلها، فيما كان عدوه يصدّه بكل ما أوتي من قوة أيضاً.

وفي أثناء ذلك كان السائق يستحث فرسه الضعيفة الهزيلة للعدو بشكل أسرع مستخدماً سوطه، والزمّام والقدم، وكذلك الشتائم والسباب، فإذا بالفرس الهزيلة تعدو عدواً على غير المتوقع، عاضة زمامها رافسة بقائمتيها. واستطاع بطلنا أخيراً أن يصعد إلى العربة، أصبح أمام عدوه وجهًا لوجه، مديراً ظهره لمقعد السائق.

تشابكت ركب الرجلين، وأمسك السيد جوليادكين بيده اليمنى ياقة الفراء المهترئ من المعطف الذي يرتديه عدوه.

كانت العربة تعدو بسرعة شديدة، والخصمان المتماسكان صامتان لا يتكلمان. التقط بطلنا أنفاسه بالكاد. كان الطريق وعراً والعربة تهتز بشدة، وفي كل مرة توشك رقبة بطلنا أن تنكسر. علاوة على ذلك، لم يكن عدوه قد استسلم بعد بل ظلّ يقاوم ويحاول دفع خصمه إلى الوحل.

ومما زاد الطين بلة، أن الطقس كان سيئًا، وكان الثلج يتساقط بشدة، ويتسرب إلى داخل معطف السيد جوليا دكين الحقيقي. ولم يكن في وسع المرء أن يرى شيئًا من شدة كثافة الثلج والضباب.

كان من الصعب على المرء أن يعرف اسم الشارع الذي تجري فيه العربة بهذه السرعة الكبيرة، وفجأة شعر السيد جوليا دكين بشيء عجيب، وأن هناك شيئًا مألوفًا قادمًا إليه، أحس بذلك الشعور الذي يجعل المرء وكأنه رأى ما يحدث الآن من قبل. فظلّ بضع لحظات يحاول أن يتذكر.

ترى ألم يتنبأ قلبه بكل هذه الأحداث في الليلة الماضية، أم تراه رآها في المنام مثلًا؟ وأخذ قلقه يزداد بشدة ودون انقطاع. وهو الآن يخشى أن يكون في حالة احتضار أو أن تكون تلك هي النهاية. أراد أن يصرخ وهو متشبث بعدوّه الذي لا يعرف الرحمة، ولكنه عجز حتى عن الصراخ.

ثم كانت اللحظة التي تناسى فيها السيد جوليا دكين كل شيء، وقرر أن كل ما حدث لا أهمية له، وأن كل ما يحدث له هو أمر لا سبيل إلى فهمه، وأي جهد سيبذل في سبيل إدراك ما يحدث هو جهدٌ مُهدّر دون طائل.

لكن فجأة، وفي تلك اللحظة بالذات، بعد أن أدرك بطلنا أن هذا أمرٌ لا طائل منه، اهتزت العربة بقوة فجأة فتغير كل شيء. لقد سقط بطلنا كما يسقط كيس الطحين. وتدحرج في الوحل وهو يردّد في نفسه أنه أخطأ حينما حمل الأمر أكثر من حجمه واغتمت نفسه بشدة.

فلما نهض وجد أنهم وصلوا إلى مكانٍ ما، وأدرك من اللحظة الأولى أنهم الآن في فناء المنزل الذي يعيش فيه السوفي إيفانوفيتش. وتملكه قلقٌ لا يُوصف.

وهمّ أن يلاحق عدوّه، ولكن لحسن حظه، غيّر رأيه بحكمة في الوقت المناسب. ولم ينس أن يدفع للحدوي أجره، ثم هرع السيد جوليا دكين إلى الشارع وأخذ يركض. كان الثلج لا

يزال يتساقط بكثافة. وكان الجو غائماً ومظلمًا بفعل الضباب. لم يشأ بطلنا أن يسير بخطوات معتدلة، بل كان يركض كطائر، فيصدم المارة، ويصدم الرجال والنساء والأطفال، وبدوره يتلقى صدمة تلو الأخرى. ومن حوله، ومن ورائه ترتفع صرخات، وتعلو صيحات زعر. لكن يبدو أن السيد جوليادكين كان قد فقد الذاكرة ولم يكن يرغب في الانتباه إلى أي شيء، أو فهم أي شيء.

فلما اقترب من جسر سيميونوفسكي استردَّ صوابه ووثاب إلى رشده بعد أن صدم بائعتين وبضاعتهما، فقلبهما على الأرض، وانقلب معهما هو أيضًا. وصار يردد لنفسه: «لا مشكلة، يمكننا تسوية كل هذا» ودسَّ يده في جيبه باحثًا عن روبل يعوض به البائعتين ما فقدناه من فطائر وتفاح وجوز وغير ذلك من بضائع التي تناثرت على الأرض. وفجأة لمعت فكرة جديدة في رأسه. لقد عثر في جيبه على الرسالة التي سلمها له كاتب المحكمة في الصباح.

وسرعان ما تذكَّر السيد جوليادكين أنه يعرف حانة شهيرة في مكان قريب من هنا. فأسرع باتجاهها، وهمَّ سريعًا بالجلوس إلى طاولة تضيئها شمعة ملطخة غير مكترث بأي شيء. كان لا يشعر بما حوله، حتى إنه لم ينتبه إلى الخادم الذي جاء يسأله عن طلبه. فضَّ غلاف الرسالة بسرعة، وأخذ يقرأ مشدوه الفكر مذهولًا:

«أيها الرجل النبيل، الحنون عليّ والعزيز على قلبي إلى الأبد!

إنني أتألم، إنني أموت - أنقذني! إن رجلاً محتالًا، واشيًّا ومعروفًا بسوء السلوك قد نصب شباكه حولي، وأوقعني في فخاخه. لقد انتهيت. كان ذلك بمثابة سقوطي. أنا أكرهه وأمقته. أما أنت فلأ! لقد باعدوا بيننا، ومنعوا الرسائل التي كنت أكتبها من الوصول إليك، وكان ذلك كله من تدبير ذاك الشخص الدنيء الذي استغل ميزته الوحيدة، وهي أنه يشبهك.

أنا أعلم على كل حال أنه ربما قد يكون لديك بعض الحماقات، ولكن في الوقت نفسه لديك قدرة على أسرِّ القلوب بسمو فكرك، وكرم عواطفك ورفعة أخلاقك وأدبك.

أنا أسقط وأنتهي.. إنهم يزجون بي إلى الهاوية رغم إرادتي. وأبي، نعم أبي، مستشار الدولة  
السوفي إيفانوفيتش هو الذي يدبر الأمر كله. هل تراها رغبته في الاستفادة من مكائتي  
في المجتمع، ومن علاقتي بعليّة القوم؟

لكنني عزمت أمري، وسوف أحتج بكل ما أوتيت من قوة وبكل الوسائل الممكنة.

انتظرنني في الفناء مع عربتك. سأتي إليك هذا المساء، في تمام الساعة التاسعة، تحت  
نوافذ شقة السوفي إيفانوفيتش. حيث سيقام عندنا احتفال راقص مرة أخرى، سيأتي  
الضابط صاحب الوجه الجميل. سأنسل من الحفل، وأحضر إليك. فنهرب سويًا. هناك في  
بلادنا ما يكفي من وظائف يمكن أن نخدم بها الوطن.

على أي حال، تذكّر يا صديقي أن البراءة تستمد قوّتها من معناها. إلى اللقاء. انتظرنني في  
الفناء هذا المساء في عربتك، سأتي إليك وأحتمي بين أحضانك في الساعة الثانية تمامًا.

سأظلُّ لك حتى مماتي»

كلارا السوفييفا.

بعد قراءة الرسالة، ظلَّ بطلنا مشدوّهًا مصدومًا لعدة دقائق.

ثم أخذ يذرع الحجرة جيئةً وذهابًا مضطرب النفس قلقًا ممتقع اللون ممسكًا الرسالة بيده.  
وحتى تكتمل مأساته لم يلحظ أن أنظار الجميع في الغرفة تتجه إليه وتنظر ماذا يفعل،  
كان لباسه غير مهندم مطلقًا واضطرابه ظاهرًا يصعب السيطرة عليه.

وكان كل ما يراه الناس فيه، من مشيته في القاعة أو بالأحرى ركضه بين أرجائها، إلى  
حركات يديه، إلى الكلمات الغريبة التي كانت تفلت من شفثيه دون شعور، لا يجعلهم أن  
ينظروا إليه بعين الرضا. حتى الخادم كان ينظر إليه بريية. فلما تاب إلى رشده، لاحظ أنه

كان في وسط القاعة، وأنه كان يحدق بشكل غير لائق أو قُل في غير محله في رجل عجوز قصير ووقور.

كان الرجل القصير قد فرغ لتوه من تناول طعامه، وانحنى أمام الأيقونة، كان جالسًا على كرسيه لا يحول بصره عن السيد جوليا دكين. أجال بطلنا عينيه في أرجاء القاعة حائرًا قلقًا. فرأى عندئذ أن جميع الأعين كانت مصوّبة إليه والريبة والشرر يتطايران منها.

وها هو ضابط متقاعد يرتدي بذلة ذات ياقة حمراء يصيح بأن يحضروا له صحيفة «أخبار الشرطة».

ارتعد السيد جوليا دكين واحمرّ وجهه خجلًا وخفض عينيه بحركة آلية ملاحظًا أن مظهره كان غير لائقٍ ولا محتشم. وأطرق بعينيه ونظر إلى قدميه ورأى أنه ما كان لرجل محترم مثله أن يرضى لنفسه بارتداء هذه الملابس في بيته، فكيف إذا ارتداها بين الناس!

كان حذاؤه وسرواله وكل الجانب الأيسر من ملابسه ملطخًا بالوحل، كما تمزق الشريط الموجود على الجزء الأيمن من سرواله، بل وتمزق معطفه في عددٍ كبيرٍ من المواضع. وبنظرات يملأها الرعب والحزن أسرع إلى المائدة التي كان يجلس عليها وقت قراءة الرسالة. فرأى الخادم مقبلًا عليه وهو يرمقه بوقاحة وشراسة. فاضطرب بطلنا وشعر بأن النهاية تقترب فأخذ يتفحص المائدة، فوجدَ عليها أطباقًا غير نظيفة، ومنشفة ملطخة، وسكينًا وشوكة وملعقة يبدو أنها ما تبقى بعد أن انتهى أحدهم من تناول طعامه.

وتساءل السيد جوليا دكين في نفسه: «مَن أكل هذا؟ أنا؟ كل شيء ممكن. آه.. كل شيء ممكن. لقد تناولت طعامي دون أن أشعر. ما الذي يجب أن أفعله الآن؟ رفع عينيه، فرأى الخادم واقفًا أمامه يهم أن يقول شيئًا. فبادره بالسؤال:

كم حسابي، يا أخي؟

سأل بطلنا بصوت يرتجف.

فضج المكان حول السيد جوليا دكين بقهقهات صاخبة، حتى إن الخادم نفسه قد ابتسم.

أدرك السيد جوليا دكين أنه قد ارتكب مصيبة أخرى وحماقة كبرى، فاضطرب أشد الاضطراب، ودس يده في جيبه باحثًا عن منديل.

كان مضطربًا خجلًا لدرجة أنه اضطرب إلى البحث في جيوبه عن منديله حتى يغطي به اضطرابه ولا يظلم واقفًا جامدًا على هذا النحو. ولكن ما كان أشد دهشته وما كانت أشد دهشة الحضور أيضًا عندما أخرج بدلًا من المنديل زجاجة الدواء الذي وصفه له كريستيان إيفانوفيتش قبل أربعة أيام. ولمعت في رأسه فكرة أن «جميع الأدوية من نفس الصيدلية»، فارتعد وكاد يصرخ من فرط رعبه.

ولاحت فكرة أخرى في عقله..

بدا السائل في الزجاج كئيب اللون قائم الحمرة مثيرًا للاشمئزاز ينعكس متوهجًا في عيني بطلنا، وفجأة أفلتت الزجاج من بين يديه فتحطمت. أطلق بطلنا صرخة وقفز خطوتين إلى الخلف وهو يحاول تفادي السائل المسكوب.

ارتعدت فرائصه بالكامل وصار العرق يتصبب على جبينه ووجنتيه.

- لا ريب أن حياتي في خطر(\*\*\*\*).

وفي أثناء ذلك كانت الغرفة تشهد صخبًا شديدًا وارتباكًا في جميع أركانها. أحاط الجميع بالسيد جوليا دكين، وشرعوا يحدثونه، وأمسك البعض بالسيد جوليا دكين، لكن بطلنا ظل ساكنًا صامتًا بلا حراك. لا يرى شيئًا، ولا يسمع شيئًا ولا يشعر بشيء. وأخيرًا وكأنه يقفز من مكانه، اندفع مسرعًا يخرج من المطعم. أرادوا أن يستبقوه. لكنه أبى ومضى في طريقه منطلقًا يصدم دون وعي كل ما يقف في طريقه. فلما صار في الشارع ألقى بنفسه في أول عربه وأمر السائق أن يقله إلى بيته. وفي الممر الذي يقود إلى الشقة صادف ميخيف؛ أحد حراس القسم الذي يعمل به، وفي يده حزمة أوراق حكومية.

«أنا أعلم مضمون الرسالة، يا صديقي، أعرف كل شيء»، أجاب بطلنا المرهق بصوت ضعيف، كئيب، «هذا خطاب رسمي يتضمن.».

قال ذلك وتناول الرسالة وأعطى حارس القسم عشر كوبيكات. تضمنت الرسالة بالفعل أمرًا للسيد جوليا دكين، بتوقيع من أندريه فيليبوفيتش، الذي يطلب منه تسليم إيفان سيمينوفيتش جميع الملفات والأوراق التي في عهده. فلما دخل السيد جوليا دكين إلى شقته رأى بيتروشكا منهمكًا في حزم ملابسه وخرقه الرثة في ربطه واحدة. كان من الواضح أنه عقد العزم على ترك السيد جوليا دكين ومغادرة المنزل والانتقال للعمل لدى كارولينا إيفانوفنا التي أغرته بالمال وأنه سيحل محل خادمها يوستاش.

## الفصل الثاني عشر

دخل بتروشكا وهو يتمايل ويترنح غير عابئ بشيء، بشكل يثير الدهشة. وكانت علامات الفرحة والشعور بالانتصار واضحين على وجهه. كان واضحاً أنه يخطط لشيء ما. إنه يتصرف الآن تصرف إنسان حُرّ طليقي، غريب كل الغرابة عن المكان الذي يتواجد فيه، ولكنه بالتأكيد لم يعد الخادم السابق للسيد جولياديكين.

قال بطلنا وهو يلهث:

«ها أنا ذا قد عدت يا عزيزي كما ترى»، «كم الساعة الآن يا عزيزي؟» ذهب بيتروشكا إلى ما وراء الحاجز دون أن يجيب، ثم عاد وأجاب بنبرة مستقلة إلى حد ما:

- الساعة قاربت على السابعة والنصف.

- حسناً، حسناً، يا عزيزي، حسناً. دعني أخبرك يا عزيزي، يبدو أن كل شيء قد انتهى بيننا الآن.

ظل بيتروشكا صامتاً.

- حسناً، أما وقد انتهى بيننا كل شيء، أخبرني الآن بصراحة، كما يخبر الصديق صديقه، أين كنت يا أخي؟

- أين كنت؟ عند أناس طيبين.

- أعرف، يا صديقي، أعرف. كنت سعيداً دائماً بخدماتك يا عزيزي، وسأمنحك شهادة بذلك.. إذا ستعمل بعد اليوم في بيتهم؟

- حسناً يا سيدي.. كما تعلمون، إذا سمحتم لي: ما من إنسان شريف سيعلمك أشياء سيئة.

- أعرف يا صديقي. الطيبون قلة في هذا الزمان. يجب علينا أن نقدّرهم حقّ قدرهم. كيف حالهم هذه الأيام؟

- إنكم تعلمون كيف هو حالهم يا سيدي.. أما أنا يا سيدي فلا أستطيع أن أبقى في خدمتكم بعد اليوم.. وأنتم على دراية بذلك يا سيدي.

- أعرف، يا عزيزي، أعرف. أنا أعرف همتك وحماستك في العمل. لقد علمت بذلك، أدركت ذلك في حينه. إنني أقدرك كثيرًا يا صديقي. أنا أحترم كلّ شخصٍ شريفٍ وطيبٍ، ولو كان خادمًا.

- هذا شيءٌ معروف عنك سيدي وبالطبع كما تعلمون فالأفضل أن أبقى في المكان الأفضل. أنا يا سيدي أجد من الصعب أن أعيش بدون أناس شرفاء. هذا أمرٌ أكيدٌ.

- حسنًا يا أخي حسنًا أتفهم ما تقول.. حسنًا، تفضل أجرك وتلك شهادتك. والآن دعني أعانقك وأودعك. لكنني، يا عزيزي، سأطلب منك خدمة واحدة، خدمه أخيرة.

قالها السيد جوليا دكين بلهجة وقورة.

- كما ترى يا عزيزي، يمكن أن يحدث أي شيء. الشقاء موجود في كل مكان، يا صديقي، حتى في بيوت الأثرياء والغرف المذهبة، وما من أحد يستطيع أن يفلت منه. وأنت تعرف، يا صديقي، أنني كنت دائمًا لطيفًا معك ..

كان بيتروشكا صامتًا.

- أنا، على ما أعتقد، كنت دائمًا حنونًا معك يا عزيزي.. قل لي بالمناسبة، كم بقي لدينا من ملابس؟

- نعم، ملابسك كلها موجودة: ستة قمصان من القطن، ثلاثة أزواج من الجرابات. أربع صديريات، صديرية من الصوف، وسروالان داخليان. كما تعلم سيدي. أنا يا سيدي لم آخذ

منك شيئًا البتة في يومٍ من الأيام. أنا أحافظ على كل أغراضك. أنا يا سيدي لم أرتكب ذنبًا تجاهك يومًا ما ولا ألوم نفسي على شيء. وأنت تعلم ذلك جيدًا يا سيدي.

- أصدقك، يا صديقي، أصدقك. أنا لا أتحدث عن ذلك، يا صديقي، لا أتحدث عن ذلك. اسمع يا صديقي..

- هذا معروف يا سيدي، كلنا يعرف ذلك. عندما كنت لا أزال في خدمة الجنرال ستولبنياكوف، كان يمنحني إجازة كلما ذهب إلى ساراتوف حيث يملكون إرثًا.

- لا يا صديقي.. ما كان هذا مقصدي.. أنا لا ألومك على شيء. لا تكثر بذلك يا صديقي.

- إنه من السهل والمعتاد أن يُتَّهَمَ أناسٌ من طبقتنا. أنت تعرف ذلك يا سيدي. أما أنا فقد كنت أعمل دائمًا لإرضاء أسيادي. وكانوا جميعًا عني راضين، وزراء كانوا أو جنرالات أو أعضاء في مجلس الشيوخ أو كونتات. لقد خدمت لدى الجميع يا سيدي. خدمت في منزل الأمير سفينتشاتكين، وفي منزل الكولونيل بيريبوركين، وفي منزل العقيد نيدوباروف، وكان يأخذني معه إلى عزبته حيث أطيانه.

- نعم يا صديقي، حسنًا جدًا.. هذا حسن جدًا. والآن فقد جاء دوري أنا للرحيل.. لكل طريقه، يا عزيزي، ولا يعرف أيُّ منا ما الطريق الذي اختاره له القدر. حسنًا، يا صديقي، دَعني أرتدي ملابسِي الآن، وَضَعْ بدلتِي الرسمية مع باقي الأشياء، وكذلك السراويل والمفارش والأغطية والوسادات..

- هل تأمر بجعل هذا كله في حزمة واحدة يا سيدي؟

- نعم يا صديقي، نعم.. في حزمة واحدة. حسنًا، مَنْ يدري ماذا يخبئ لنا القدر؟.. والآن يا صديقي استدع لي عربة.

- عربة يا سيدي؟

- نعم يا صديقي عربية، استأجرها لوقتٍ طويلٍ، واحرص على أن تكون العربية واسعة. ولكن إياك أن تذهب بك الظنون يا صديقي وتتصور أشياء..

- هل ستسافر إلى بعيد يا سيدي؟

- لا علم لي، يا صديقي، لا أعرف ذلك أيضًا. ومن الأفضل في رأيي أن تضع في العربية لحافًا، ما رأيك في ذلك يا صديقي؟ أنا أعتد عليك يا عزيزي..

- أنت مسافر فورًا يا سيدي؟

- نعم يا صديقي، نعم! لقد تغيرت الظروف على هذا النحو، هذا هو الحال يا عزيزي.

- أفهمك يا سيدي. لقد حدث الشيء نفسه يا سيدي في الكتيبة التي كنت فيها، حدثت هذه المغامرة نفسها لملازم أول وقد خطف هو أيضًا ابنة أحد كبار الملاك.

- خطف؟ ماذا تقول؟ ولكن يا عزيزي...

- نعم يا سيدي، خطفها وتزوجا في كنيسة مجاورة. كان كل شيء مُعدًا سلفًا. وكانت مطاردة معروفة. لاحقوهما ولكن الأمير، نعم المرحوم الأمير قد تدخل وسوى الأمر بالكامل.

- إذًا تزوجا.. ولكن كيف علمت يا صديقي؟ كيف تعلم بما عقدت العزم عليه؟

- نعم يا سيدي، الأمر معروف! الإشاعات تسري في كل مكان بسرعة، نحن على علمٍ بكل شيء. نعم بكل شيء.. طبعًا، ما من إنسان معصوم من الخطأ. ولكن يجب أن أقول لك يا سيدي.. اسمح لي لأن أقول، لأنني خادم طيب. ما دامت الأمور قد وصلت إلى هذه المرحلة الآن، فيجب أن أقول لك يا سيدي أن هناك عدوًا يتربص بك وهو منافس عنيد، نعم يا سيدي، إن لك منافسًا لا يستهان به.

- أعرف، يا صديقي، أعرف، أنت نفسك تعلم يا عزيزي.. على أي حال، أنا أعتد عليك. ماذا نفعل الآن يا صديقي؟ بماذا تنصحنني؟

أعتقد يا سيدي أنه طالما اخترت هذا الحل، فيجب عليك أن تشتري أشياء كثيرة، مفارش ووسائد، ولحافًا آخر لشخصين، وبطانية جيدة، وهذه الأشياء يمكنك أن تجدها كلها عند جارتنا في الطابق السفلي. هناك.. تحت.. وعندها أيضًا فراء ثعلب جيد يمكنك أن تعينه وتشتريه، وإذا أردت يمكنك أن تراه الآن. هو معطف جميل مغطى بالساتان وله فروة ثعلب، يا سيدي.

- حسنًا، يا صديقي، حسنًا. أوافقك الرأي، يا صديقي، أنا أعتد عليك، أعتد عليك كثيرًا. ربما فعلاً ينبغي أن أشتري عباءة من الفرو.. فقط أسرع أرجوك، أسرع، أنا مستعدٌ لشراء المعطف، لكن من فضلك، أسرع! الساعة تقترب من الثامنة، يجب أن نسرع يا صديقي! أسرع يا صديقي!

ترك بيتروشكا حزمة الملابس والأغطية والوسائد وغير ذلك من الأثواب التي كان يجمعها وهرعَ مسرعًا خارج الغرفة.

تناول السيد جوليا دكين الرسالة مرة أخرى. ولكنه لم يستطع قراءتها. فأمسك رأسه المهزومة بين يديه ومال بها على الحائط شارد العقل.

لم يستطع التفكير في أي شيء ولا فعل أي شيء أيضًا. هو نفسه لم يكن يعلم ما الذي كان يحدث له. فلما لاحظ أخيرًا أن الدقائق تجري والوقت يمر، وأن بيتروشكا والمعطف لم يحضرا، قرر أن ينزل بنفسه. ففتح باب المدخل، وسمع ضوضاء وجلبة في الأسفل، سمع همهمات وأحاديثٍ ونقاشاتٍ وصياحًا. بعض الجارات كن يتجاذبن أطراف الحديث، كن يصرخن ويتشاجرن ويلقن بالأحكام، كان السيد جوليا دكين يعرف جيدًا على أي شيء كن يختصمن.

وسمع أيضًا صوت بتروشكا. ثم سمع وقع خطوات تصعد السلم.

- يا إلهي! سوف يدعون العالم كله إلى هنا!

كان ذلك ما فكّر فيه بطلنا وهو يفرك يديه في حالة من الحزن واليأس فاندفع عائداً إلى غرفته. وارتدى على الكنب، ودفن وجهه في الوسادة وهو لا يستطيع فهم نفسه.

ظلّ على هذه الحال دقيقة كاملة. ثم نهض بوثبة واحدة دون أن ينتظر بيتروشكا، وارتدى حذاءه وقبعته ومعطفه وتناول محفظته واندفع يهبط السلم.

فلما صادف بيتروشكا على السلم قال له:

- لست في حاجة إلى شيء يا عزيزي! سأفعل كل شيء بنفسني. لست في حاجة إليك الآن. يمكنني أن أسوي الأمر على أفضل وجه.

ثم وصل إلى الفناء وخرج من المنزل. كان قلبه يوشك أن يتوقف عن الخفقان. وهو ما زال متردداً.. فماذا عساه أن يفعل؟ ماذا عليه أن يقرر؟ كيف عليه التصرف في هذا الموقف الحرج؟

وصرخ أخيراً وقد تملكه اليأس وعيناه تنظران حوله، وهام على وجهه لا يدري أين يسير:

- ماذا أفعل يا إلهي؟ حسناً، كل شيء مكتوب!

تابع السيد جولياكين السير بخطوات قصيرة وهو ما زال شاردًا، ويخاطب نفسه:

- لولا هذا الموقف الأخير لكان كل شيء على ما يرام، كان يمكنني أن أسوي كل شيء مرة واحدة وبضربة واحدة قوية حيوية ومُحكمة. فلتقطع يدي لو لم أستطع القيام بذلك، أنا أعرف حق المعرفة كيف يمكن تسوية أمر كهذا.

كنت سأفرد بهذا الرجل وأقول له:

- اسمح لي يا سيدي أن أخبرك أن الأمور لا تسير هكذا، نعم يا سيدي الأمور لا يمكن أن تسير هكذا، الأمور لا تتم بهذه الطريقة، ولن تستطيع أن تأخذ شيئًا بالاحتيايل. أنت شخص محتال يا سيدي، أنت رجل لا قيمة له ولا نفع للوطن منه. هل تفهم ذلك؟

نعم هل تفهم ما أقول سيدي العزيز؟ بوسعي أن أضيف ما هو أكثر من ذلك، ولكن ماذا عساي أن أضيف؟! هذا كل شيء. أنا فقط أكذب على نفسي، يا لي من أبله! أقتل نفسي بيدي؟! لا لا..

ومع ذلك أنت شخص منحرف، وقد انتهى كل شيء الآن!.. حسنًا، أين سأذهب الآن؟ ماذا سأفعل الآن بنفسني؟ حسنًا، إلى أين أنا ذاهب الآن؟ حسنًا، ماذا عساي أن أفعل؟ إلى أين أذهب؟ يا لك من شخص دنيء يا جوليا دكين. هكذا أنت.

حسنًا ما العمل الآن؟ يجب استئجار عربة، وأحضرها إلى هناك. هذا ما طلبته مني. وإذا لم أحضر العربة سوف تتبلل أقدامنا. من كان يتصور أن هذا كله يمكن أن يحدث؟

آه أيتها السيدة الشابة، آه، يا سيدتي أنت لي! نعم، أيتها الفتاة الطيبة! يا له من سلوك معيب. تصرفك مشين يا سيدتي وما هو إلا نتيجة تنشئتك السيئة. نعم لقد توصلت بعد تمعن في الأمر منذ البدايات أن هذا كله ما هو إلا نتيجة مباشرة للتربية غير الأخلاقية.

فرغم صغر سنها كان يجب أن تعاقب بالعصا منذ طفولتها. لكنهم بدلًا من ذلك كانوا يحشون فمها بالحلوى! وهذا المُسنّ الذي لا يتوقف عن تدليلها بالقول «حبيبتي، إنك في غاية الرقة. إنك في غاية الحسن والجمال.. أعدك أن أزوجك بنبيل.».

وها هي ذي تخرج إلينا وتلقي بأوراقها كاملة قائلة: «دعونا نلهو أيها السادة. هلموا عبروا عن إعجابكم وهيامكم بي كما شئتم.

كان حريًا بهم أن يلزموها المنزل ولكنهم أرسلوها إلى مدرسة داخلية لدى امرأة فرنسية، مهاجرة، امرأة لا يعرف لها أصل من فصل يقال لها مدام فالبالا(\*\*\*\*\*) .

هذه هي نتيجة هذا النوع من التربية، فابتهجوا بما جنت أيديكم!

النتيجة ماثلة أمامكم: «انتظرنى في العربة في الساعة كذا، تحت نوافذ بيتنا وقم بغناء أغنية رومانسية بالإسبانية؛ أنا في انتظارك، وأنا أعلم أنك تحبني، وسوف نهرب معًا، وسنعيش ولو في كوخ».

- لكن هذا غير مقبول، نعم يا سيدتي، مستحيل. ليس من حق إنسان أن يختطف فتاة عفيفة طاهرة من منزل والديها دون موافقتها.

نعم، وفي النهاية.. لماذا؟ وما هي الحاجة إلى ذلك؟ ما عليك إلا أن تتزوجي الشخص الذي كتبه لك القدر.

أما أنا فرجل موظف. ومهدد بفقدان وظيفتي إن قمت بذلك. نعم يا سيدتي. وبسبب ذلك قد أضطر للمثول أمام المحكمة. هكذا سيكون الوضع لو كنت لا تعلمين.

كل هذا بسبب تلك الساحرة الألمانية فهي التي تدبر هذه المكائد. كل هذه المصائب بسبب هذه الألمانية الشمطاء. بسببها وشوا بي، وبسببها نجحت المؤامرة ضدي بإيعاز من أندريه فيليبوفيتش حيث استخدموا ثرثرة ونميمة امرأة مثلها ليشوا بإنسان، وإلا فلماذا يتدخل بتروشكا في القضية؟ وما علاقته بهذا الأمر؟!

لا، لا أستطيع، يا سيدتي، لا أستطيع، لا أستطيع بأي شكل من الأشكال. لا أستطيع مهما كان المقابل..

وأنت يا سيدتي، في هذه المرة، اعذريني، لا أستطيع. فأنت يا سيدتي سبب كل البلاء، وليس الألمانية، أنتِ حقًا سبب كل شيء، تلك الساحرة الألمانية امرأة طيبة، الذنب ليس

ذنبها على الإطلاق، بل أنت فقط، أنت، يا سيدتي، أنت الملامة، - تلك هي الحقيقة!

أنت، يا سيدتي، تؤدي بي إلى الخطيئة.. أصبحت على حافة الهاوية، هكذا يسير المرء نحو العبث.. هكذا ينفصل الإنسان عن ذاته ويهوي إلى العدم ولا يملك أن ينقذ نفسه. عن أي زواج تتحدثين؟ وكيف يمكن أن ينتهي هذا كله؟ وكيف يمكن أن يتم ذلك؟ أذفع نصف ما أملك لمن يعطيني الإجابة!..

هكذا كان بطلنا غارقًا في أفكاره يائسًا. أفاق فجأة وأدرك في حينه أنه يقف في مكانٍ ما في شارع ليتينايا. كان الطقس سيئًا: كان الجليد يذوب والسماء تمطر. كل شيء يشبه تمامًا تلك الليلة التي لا تنسى، عندما بدأت جميع المصائب تتكالب على السيد جوليا دكين.

- عن أي رحلة تتحدث؟ ألا إنها نهاية العالم..

سرح السيد جوليا دكين وهو يتابع الطقس من حوله

يا إلهي! حسناً، أين يمكنني مثلاً العثور على عربة هنا؟

- هناك في زاوية الشارع، يبدو أن هناك شيئًا يتحرك. فلأذهب إلى هناك لأرى عن كثب.. يا إلهي! تابع بطلنا، توجه بخطواته الضعيفة والهشة في الاتجاه الذي رأى فيه شيئًا يشبه العربة.

قال لنفسه:

- لا لا، سأفعل ما يلي: سأذهب إلى هناك، وسأخر ساجدًا عند قدميه، وسوف أقول بكل تواضع. «انظر إلى حالتي. إني أضع مصيري بين يديك، بين يدي رؤسائي. أتوسل إليك يا صاحب السعادة، أن تحميني وأن تدافع عني وتباركني؛ فهذا الفعل جريمة يعاقب عليها القانون، فلا تتخلّ عني.. لا ترهقني.. أنت لي بمثابة الأب.. أنقذ كرامة إنسان مسكين، انقذ شرفي وسمعتي. أنقذني من هذا الرجل الفاسد الشرير، أنا وهو شخصان مختلفان يا

صاحب السعادة، له شخصيته المستقلة وأنا أيضًا. هو يعيش على هواه، وأنا أختلف عنه حيث أعيش وفق قناعاتي، حقيقي، وفق قناعاتي يا صاحب السعادة. أنا أختلف عنه. لا أستطيع أن أكون مثله؛ يا صاحب السعادة أتوسل إليك أن تنقلني من وظيفتي، أصدر أمرًا بنقلي إلى وظيفة أخرى فتنتهي معاناتي، وتنتهي تلك المؤامرة الدنيئة ضدي.

يا صاحب السعادة. أنا أتخذك أبا لي. والرؤساء أصحاب رحابة الصدر والضمير الحي لا بُدَّ أن يدعموا مثل هذه المبادرات، فتصرفي لا يخلو من نُبلٍ وفروسية. إنني ألجأ إليك كأبٍ لي.. وأضع مصيري بين يديك، وأعدك أنني سأقبل بأي قرارٍ تتخذه وسوف أنصاع له. هذا كل ما في الأمر».

- حسنًا، هل أنت السائق يا عزيزي؟

- نعم.

- هل يمكن أن تظل بعربتك معي طوال المساء؟

- وهل سنذهب إلى بعيد يا سيدي؟

- أريد أن أستأجر العربة للمساء، للمساء كله. ليس مهمًا يا عزيزي إلى أين سنذهب.

- اسمح لي أن أسأل هل سنخرج من المدينة؟

- نعم يا صديقي، ربما نذهب إلى خارج المدينة. أنا شخصيًا ما زلت لا أعرف يا صديقي، لا أستطيع أن أجزم بذلك الآن يا عزيزي. وكما ترى، يا عزيزي، من الممكن أن يتم كل شيء على خير. كما تعلم يا صديقي.

- نعم، أعلم يا سيدي بالطبع، أنا أتمنى الخير للجميع.

- نعم يا صديقي، نعم.. شكرًا لك يا عزيزي، كم ستأخذ مني أجره يا عزيزي؟..

- هل سنسافر الآن يا سيدي؟

- نعم، الآن، أو لا. ستنتظرنني قليلاً في مكان ما.. لن تنتظر طويلاً يا عزيزي..

- نعم، إذًا كنت ستستأجر العربة طوال المساء يا سيدي، فلن أَرْضَى بأقل من ستة روبلات في مثل هذا الطقس السيئ..

- حسنًا، يا صديقي، حسنًا، وسوف أعطيك مكافأة يا عزيزي. حسنًا، ستأخذني الآن يا عزيزي.

- اجلس، بل انتظر لحظة. يمكنك الجلوس الآن. أين تريد أن تذهب؟

- إلى جسر إزميلوفسكي، يا صديقي.

صعد السائق إلى مقعده، وضرب الحصانين بعد أن نزع كيس العلف بعناء منهما. واتجهت العربة إلى جسر إزميلوفسكي.

ولكن فجأة قام السيد جولياديكين بشد الحبل من السائق واستوقف العربة، وطلب منه بتوسل ألا يذهب إلى جسر إزميلوفسكي، بل إلى شارع آخر.

استدار السائق بالعربة إلى شارع آخر، وبعد عشر دقائق توقفت العربة بالسيد جولياديكين أمام المنزل الذي يسكن فيه صاحب السعادة.

نزل السيد جولياديكين من العربة، وطلب من السائق بكثير من الإلحاح أن ينتظره، ثم اندفع بقلب يخفق يصعد الدرج، وصل إلى الطابق الثاني، وشدَّ حبل الجرس، ففتح الباب. ووجد بطلنا نفسه في بهو منزل صاحب السعادة.

- اسمح لي! هل صاحب السعادة في المنزل؟

سأل السيد جوليادكين الخادم الذي فتح له الباب.

فأجاب الخادم وهو ينظر إليه من رأسه إلى أخمص قدميه:

- ماذا تريد؟

- أنا جئت يا صديقي، أنا جوليادكين، الموظف، أنا الكاتب جوليادكين جئت لأفسّر لصاحب السعادة بعض الأمور.

- انتظر. لا يمكنك الآن.

- يا صديقي، أنا لا أطيق الانتظار: فالأمر عاجل ولا يحتمل التأجيل..

- نعم، من أرسلك؟ هل تحمل أوراقًا؟..

- لا، أنا، يا صديقي، جئت بمفردتي.. أبلغ صاحب السعادة أنني قد أتيت لشرح بعض الأمور، وسأكون شاكرًا لك يا صديقي.

- هذا مستحيل يا سيدي. لا يمكنه استقبال أحد الآن؛ هناك ضيوف يا سيدي. تعال غدًا في العاشرة صباحًا..

- أبلغه يا صديقي، أنا لا أستطيع الانتظار، فإذا لم تبلغه عليك أن تتحمل العواقب.

فصاح خادم آخر كان يجلس في الجوار ولم ينطق قبل ذلك بكلمة واحدة:

- هيا أبلغه.. ما الذي يمنعك أن تبلغه؟! أنت خائف على نعليك أن يهترئًا!

- نعم الأمر كذلك إنني خائف. وأنت تعلم أنني أمرت بعدم إدخال أي شخص. فهو لا يستقبل أحدًا إلا في الصباح.

-هَيَّا أَبْلُغْهُ. أَنْتِ خَائِفٌ أَنْ تَبْلُعَ لِسَانَكَ؟

- حَسَنًا، سَأَبْلُغْهُ. لَنْ أَبْلُعَ لِسَانِي. وَلَكِنِّي أَمَرْتُ بِأَلَّا أُدْخِلَ أَيَّ شَخْصٍ. مَمْنُوعٌ عَلَيَّ مِنْعًا بَاتًّا. تَعَالَى. ادْخُلِي إِلَى هَذِهِ الْغُرْفَةِ.

دَخَلَ السَّيِّدُ جُولِيَادِكِينَ الْغُرْفَةَ. كَانَتْ هُنَاكَ سَاعَةٌ عَلَى الطَّائِلَةِ. نَظَرَ فَوَجَدَ أَنَّ عَقَارِبَهَا تُشِيرُ إِلَى الثَّامِنَةِ وَالنِّصْفِ.

اعْتَصَرَتْ أَلَامُ الْخَوْفِ قَلْبَ السَّيِّدِ جُولِيَادِكِينَ لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ كَانَ عَلَى وَشِكِّ الْخُرُوجِ مَرَّةً أُخْرَى. وَلَكِنْ فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِالذَّاتِ وَقَفَ الْخَادِمُ عَلَى عَتَبَةِ قَاعَةِ الْاسْتِقْبَالِ وَصَاحَ بِصَوْتٍ عَالٍ: «السَّيِّدُ جُولِيَادِكِينَ».

هَمَسَ بَطْلَانَا لِنَفْسِهِ وَقَدْ تَمَلَّكَهُ خَوْفٌ شَدِيدٌ:

مَا هَذَا الصَّوْتُ؟! أَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِهِ أَنْ يَبْلُغَهُ بِهَدْوٍ أَنِّي جِئْتُ مَتَوَسِّلًا لِشَرْحِ بَعْضِ الْأُمُورِ؟  
- تَفَضَّلْ بِمُقَابَلَتِهِ.

لَقَدْ أَفْسَدَ الْأَمْرَ، لَقَدْ أَفْسَدَ هَذَا الْخَادِمُ كُلَّ شَيْءٍ؛ وَمَعَ ذَلِكَ.. نَعَمْ، حَسَنًا.. لَا بِأَسْ..

غَيْرَ أَنَّ أَوَانَ التَّفَكِيرِ كَانَ قَدْ فَاتَ. وَعَادَ الْخَادِمُ يَقُولُ لِبَطْلَانَا: تَفَضَّلْ بِالْدُخُولِ. ثُمَّ اصْطَحَبَ السَّيِّدُ جُولِيَادِكِينَ إِلَى صَالُونِ صَاحِبِ السَّعَادَةِ.

عِنْدَمَا دَخَلَ بَطْلَانَا، شَعَرَ حِينئِذٍ وَكَأَنَّهُ فَقَدَ نَظْرَهُ وَصَارَ أَعْمَى. لَمْ يَعِدْ يَرَى شَيْئًا.

بِالتَّأَكِيدِ لَا يَرَى شَيْئًا.

وَمَعَ ذَلِكَ، وَمَضَتْ فِي عَيْنَيْهِ صُورَةُ شَخْصَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ بَيْنِ الْحُضُورِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ:

- حَسَنًا، لَعَلَّهُمُ الضِّيُوفُ.

وأخيرًا استطاع بطلنا أن يميز النجمة التي تزين المعطف الأسود الذي كان يرتديه صاحب السعادة. وبدأ رويدًا رويدًا يقترب منه، وفي النهاية استطاع أن يميز صاحب السعادة جيدًا.

وبصوتٍ مألوفٍ لدى السيد جوليا دكين، سأل صاحب السعادة:

- ماذا تريد؟

- أنا يا صاحب السعادة الكاتب جوليا دكين.

- حسنًا؟

- جئت لأوضح أمرًا ما.

- كيف؟.. ماذا تريد؟..

- نعم، الآن. لقد جئت يا صاحب السعادة لأشرح لك..

- ولكن من أنت؟

- أنا... السيد جوليا دكين يا صاحب السعادة، كاتب في الإدارة.

- حسنًا، إذًا ماذا تحتاج؟

- المسألة يا صاحب السعادة أنني أعتبرك أبا لي. أنا نفسي سأُسحب من هذا الموضوع ولن أستمر في هذا الصراع. فاحمني من أعدائي يا صاحب السعادة. هذا هو ما قصدت.

- ماذا تقول؟

- أصبح معروفًا..

- ما هذا الذي أصبح معروفًا؟

صمت السيد جوليا دكين وأخذت ذقنه ترتجف.

سأله صاحب السعادة:

- وبعد؟

-كنت أعتقد أنني أقوم بشيء بطولي يا صاحب السعادة.. وأرى أنه من الشهامة أن يتخذ المرء قائدًا له.. ولذلك أتوسل إليك أن تحميني. أأ... أتوسل إليك ضارعًا.. ذ..ذ.. ذليلاً. وإن بادرت بمثل هذا التص.. التصرف فلا بُدَّ أن تشج.. تشجعني يا صاحب السعادة.

أشاح صاحب السعادة بوجهه عنه. اضطربت عينا بطلنا برهة فلم يرَ شيئًا، وضاق صدره بشدة واختنق. لم يكن يعرف أين يقف.. كان يشعر بالخجل والحزن. الله وحده يعلم ما الذي حدث بعد ذلك..

عندما أفاق بطلنا من شروده سمع صاحب السعادة يتحدث إلى ضيوفه ويبدو أنه يتحدث معهم بحدة وبقوة عن شيء ما.

وسرعان ما تعرّف السيد جوليا دكين على أحد الضيوف. كان أندريه فيليبوفيتش. هو، لا أحد غيره. لكنه لم يستطع التعرف على الضيف الآخر. كان وجهه مألوفًا أيضًا، كان فارع القامة، بدين، وهو يبدو متقدمًا في السن وله حاجبان وسوالف كثيفة للغاية، نظرته قاسية معبرة. كان يحمل وسامًا يتدلى على عنقه وسيجارًا في فمه. السيجار لا يترك فمه. وكان هذا الرجل يهز رأسه في وقار وهو يلقي على بطلنا نظرةً من حينٍ إلى آخر.

شعر السيد جوليا دكين بالخرج وعدم الارتياح بدرجة ما. التفتت عيناه إلى الجانب الآخر ورأى على الفور ضيفًا آخر غريبًا عند الباب.

كان حتى تلك اللحظة يظن أن فتحة الباب ما هي إلا مرآة، وهو الأمر الذي تكرر معه كثيرًا قبل ذلك، ظهر شخص معروف جدًا له، هو ذاك الصديق الذي تعرف عليه السيد جوليا دكين

منذ فترة قصيرة. لا أحد غيره. إنه السيد جوليا دكين الأصغر.

كان هو بالفعل، يقف في غرفة صغيرة أخرى وكان يكتب شيئًا على عجل على ما يبدو.. كان يكتب شيئًا ضروريًا للضيوف، وها هو ذا يجيء الآن والأوراق تحت إبطيه، اقترب من صاحب السعادة وببراعة شديدة انتظر اللحظة التي يستطيع أن يلفت اهتمام الضيوف فيها ويشارك معهم في الحوار. وقف وراء أندريه فيليبوفيتش مباشرة، إلى جانب الرجل المجهول الذي يدخل السيجار. كان يبدو على السيد جوليا دكين الأصغر أنه يتابع الحديث باهتمام كبير. لقد اتخذ وضعًا مناسبًا، فهو يهز رأسه علامة على الموافقة والتأييد، ويحرك قدميه ويبتسم ولا يحول بصره عن صاحب السعادة. وكأنه يتوسل إليه أيضًا أن يسمح له بالمشاركة في الحديث.

قال السيد جوليا دكين وهو يتقدم خطوة إلى الأمام دون أن يشعر:

- وغدا!

في تلك اللحظة استدار الجنرال وتوجه بتردد إلى السيد جوليا دكين.

- حسنًا، جيد. انصرف الآن، يرباك الله. سأنظر في موضوعك، اسمح أن يرافقوك إلى الخارج..

قال الجنرال ذلك وألقى على الرجل المجهول نظرة لا تخلو من مغزى، فأوماً الرجل برأسه موافقًا.

شعر السيد جوليا دكين وأدرك بوضوح أنهم أخطأوا في معرفة شخصه؛ ولذلك يعاملونه معاملة غير لائقة.

قال لنفسه: «ينبغي أن أشرح لهم الموضوع بأي صورة». يجب أن أقول له: «يا صاحب السعادة. القضية على النحو التالي...»

ثم وهو في حيرته تلك، أطرق بعينه إلى الأرض، ودهش بشدة عندما رأى بقعة بيضاء كبيرة على حذاء صاحب السعادة.

قال لنفسه: «هل من المعقول أن يكون حذاء صاحب السعادة ممزقًا؟!»

ولكنه لم يلبث أن أدرك أن حذاء صاحب السعادة لم يكن ممزقًا، ولكنه كان يتلألأ بشدة، فمن المعروف أن الأحذية التي تلمع بالورنيش تفيض بريقًا وتسطع بقوة.

قال بطلنا لنفسه:

«هذا ما يُطلق عليه التوهج والبريق. إنها كلمة تستخدم كثيرًا في ورش فناني التصوير. أما في غيرها فيستعمل مصطلح الحافة الساطعة.

ثم رفع السيد جوليا دكين عينيه ورأى أنه قد آن الأوان لأن يتكلم، لأن الأمر قد ينتهي نهاية سيئة..

تقدّم بطلنا خطوة إلى الأمام.

- إليك القضية يا صاحب السعادة، لا يمكن لأحدٍ في يومنا هذا أن يحقق شيئًا عن طريق الاحتيال والدجل.

لم يجبه الجنرال بشيء، واكتفى بأن شدَّ بقوة حبل الجرس الذي يستدعي به الخدم. فتقدم السيد جوليا دكين خطوة أخرى إلى الأمام.

- إنه شخص حقير ومفسد يا صاحب السعادة.

هكذا قال بطلنا والخوف يتملّكه ولا يعرف ماذا يصنع. وعلى الرغم من خوفه أشار بيده بجرأة وحزم إلى توأمه ذاك الحقير الذي كان في تلك اللحظة يحوم حول صاحب السعادة.

- نعم يا صاحب السعادة، إنني أقصد بكلامي هذا شخصًا تعرفه.

تلت كلمات بطلنا جلبة عامة من جميع الضيوف.

هزّ أندريه فيليبوفيتش والشخص المجهول رأسيهما، وقام صاحب السعادة بسحب الجرس بشدة، ونادى على الخدم بلهجة صارمة.

ثم تقدّم السيد جولياديكين الأصغر للأمام بدوره وقال:

- يا صاحب السعادة، أتوسل إليك أن تسمح لي بالكلام.

كان هناك شيء حاسم للغاية في صوت السيد جولياديكين الأصغر. كل شيء فيه يُظهر أنه يتصرف تصرفًا هو حق من حقوقه.

- دعني أسألك..

قالها جولياديكين الأصغر متوجهًا بالكلام لبطلنا مستبقًا جواب صاحب السعادة.

هل تعي في حضرة مَنْ تتكلم هذا الكلام؟ هل تعرف أمام مَنْ تقف الآن؟ وفي غرفة مَنْ أنت الآن؟

كان السيد جولياديكين الأصغر مضطربًا للغاية، كان وجهه محمرًا من شدة الغضب والاستياء، حتى لقد ظهرت الدموع في عينيه.

- صاح الخادم بملء حنجرتة وهو واقف على عتبة الصالون يعلن عن وصول ضيفين:  
السيد والسيدة باسافريوكوف!

فقال السيد جولياديكين لنفسه:

- اسم جميل، هي أسرة نبيلة من العائلات الروسية.

وفي تلك اللحظة نفسها شعر بأن شخصًا ما يضغط بيده على كتفه بطريقة ودية للغاية. وما هي إلا لحظة حتى كانت يدٌ أخرى تحط على ظهره.

كان توأمه ذاك السيد جوليا دكين الغادر يتحرّك أمامه مشيرًا للخادمين إلى الطريق الذي كانا يدفعان بطلنا إليه. ورأى بطلنا بوضوح أنه يُقَاد نحو الأبواب الكبيرة لغرفة المكتب.

قال لنفسه:

- تمامًا مثلما حدث لي عند السوفي إيفانوفيتش.

ووجد نفسه في القاعة. ثم نظر حوله فرأى إلى جانبه اثنين من خدم صاحب السعادة و«توأمه» الذي كان يصيح:

- المعطف، المعطف، المعطف، أحضروا معطف صديقي، معطف أعز أصدقائي.

وانتزع المعطف من يد أحد الخدم، ورماه من أجل إثارة الضحك والمزاح الدنيء الجبان، على رأس السيد جوليا دكين.

وسمع السيد جوليا دكين الأكبر، بينما كان يحاول التخلص من المعطف، قهقهات الخادمين تدوي واضحة.

لكنه لم يستمع إلى أي شيء ولم يول اهتمامًا بما يحدث من حوله، فقد غادر بالفعل المكان ووجد نفسه على الدرج المضيء.

وتبعه السيد جوليا دكين الأصغر يصيح فيه قائلاً:

- وداعًا، صاحب السعادة!

فحدث السيد جوليا دكين نفسه:

- جبان!

- حسنًا وجبان أيضًا..

- رجل فاسد.

- حسنًا، ورجل فاسد..

بهذا أجاب العدو اللدود الدنيء على بطلنا الوقور، وهو يرشقه من أعلى الدرج بنظرات متغطرسة ثابتة لا تحيد عن عيني السيد جوليا دكين، وكأنه يطالبه بالاستمرار في الحديث ويتحداه.

فما كان من بطلنا إلا أن بصق احتقارًا واستياءً وأسرع يهبط السلم. كان في حالة انهيار لدرجة أنه لم يشعر ولا يتذكر كيف وضعوه في العربة.

فلما بدأ يستوعب ما يجري حوله وجد بطلنا أن العربة تسير بمحاذاة نهر فونتانكا. وقال لنفسه: «لا بُدَّ وأن السائق سيوصلني إلى جسر إزميلوفسكي».

أراد السيد جوليا دكين أن يفكر في أمرٍ آخر، لكن بدا ذلك مستحيلًا؛ كان لديه إحساس فظيع للغاية، يستحيل تفسيره..

- حسنًا، لا بأس!

هكذا حدث بطلنا نفسه، وتوجه إلى جسر ازمايلوفسكي.

## الفصل الثالث عشر

بدا أن الطقس يتحسن. في الواقع، بدأ الجليد الرطب، الذي كان يتساقط بغزارة حتى اللحظة في الذوبان، ثم رويدًا رويدًا توقف تمامًا عن التساقط.

أصبح بمقدور المرء أن يرى السماء صافيةً، تتعلق بها النجوم وتتلاأأ هنا وهناك. كان كل شيء رطبًا وقذرًا وخانقًا، خاصة في عيني السيد جوليا دكين، الذي كان بالكاد يستطيع التقاط أنفاسه.

تسبب معطفه المبتل، الذي صار ثقيلًا بفعل تراكم الماء داخله، في نقل بعض الرطوبة الفاترة المقيتة إلى جميع أعضائه، وإلى ساقيه المتعبتين بالفعل. وسرث في جميع أنحاء جسده رعشةً محمومةً مصحوبة بقشعريرة حادة. صار السيد جوليا دكين بفعل الإرهاق يتصبب عرقًا باردًا مؤلمًا، لدرجة أنه نسي، في هذه الأجواء، أن يكرّر كعادته بصرامة وتصميم عبارته المأثورة المفضلة تلك «ما زال يمكنني تسوية الأمور على خير وجه».

غير أنه استعاد رباطة جأشه وتغلب على لحظات الإحباط تلك وردد في نفسه: «حتى الآن ما من قيمة تُذكر أو أهمية لكل ما يحدث»، قال ذلك وهو يمسح من على وجهه قطرات الماء الباردة التي تتدفق في جميع الاتجاهات من حافة قبعته المستديرة التي أصبحت مبتلة بشدة لدرجة أنها صارت عاجزة عن حجب المطر عنه.

وصار يردد من جديد: «لا قيمة لكل ما يحدث»، قالها وهو يحاول الجلوس على جذع خشبي سميك ملقى بالقرب من كومة حطب في فناء العمارة التي يسكنها السيد ألسوفي إيفانوفيتش.

بالطبع، لم يكن بوسعه في تلك اللحظة أن يتذكر الأغاني الغرامية الإسبانية أو يحلم بالسلام الحريرية، بل كان شاغله الأول هو البحث عن ركن صغير منعزل، وأن يكون مريحًا

ولو بعض الشيء، وليس بالضرورة أن يكون دافئًا تمامًا.

كان كل ما يهمه حينها أن يجد لنفسه مكانا في تلك الزاوية الصغيرة في رواق شقة ألسوفي إيفانوفيتش، التي ظل فيها قرابة ساعتين في أولى مغامراته، محبوبًا بين خزنة الملابس والحواجز العتيقة، وسط أكوام من الأغراض المنزلية القديمة والخرق البالية..

والحقيقة هي أن الأمر قد تكرر فقد ظلَّ السيد جوليا دكين واقفًا ينتظر طيلة ساعتين كاملتين في ساحة منزل ألسوفي إيفانوفيتش. ولكن مقارنة بالمرّة السابقة حيث كان الركن الذي انزوى فيه منعزلًا ومريحًا، بدا المكان الذي ينتظر فيه الآن مربكًا وغير مريح، كما أنه يواجه الآن عددًا من العقبات.

تكمّن العقبة الأولى في أنه لا بُدَّ وأن يكون مراقبًا جيدًا، لا سيما بعد تلك الواقعة التي حدثت في الحفل الراقص الذي أقامه ألسوفي إيفانوفيتش، وثانيًا، عليه انتظار إشارة تأتيه من كلارا ألسوفيفنا؛ لأن حدوث هذه الإشارة كان أمرًا ضروريًا وشرطًا لإتمام كل شيء .

كان بطلنا على يقين أنها ستأتي بهذه الإشارة. أخذ يردّد في نفسه: «إننا لسنا أوّل من قام بذلك ولن نكون آخرهم»، وهنا تذكّر السيد جوليا دكين على الفور رواية كان قد قرأها منذ فترة طويلة، حيث بعثت البطلة بإشارة لحبيبها ألفريد في ظروف كانت مماثلة تمامًا، وكانت الإشارة عبارة عن شريط وردي على النافذة.

لكن الآن، وفي هذا الظلام، وهذه الرطوبة المتدفقة في سماء سانت بطرسبرج، لا يمكننا اعتبار الشريط الوردي إشارة مناسبة، وباختصار، كان مستحيلًا تمامًا أن تكون تلك هي الإشارة المتوقعة من حبيبته.

وهمهم بطلنا بعد تفكير: «ليس هذا وقت الرومانسية الحاملة. من الأفضل أن أبقى في مكان مظلم وغير مكشوف.. آه يمكنني أن أمكث هنا مثلًا» وأختار ركنًا في الفناء، يقع أمام النوافذ، بالقرب من أكوام الحطب المكدسة.

بالطبع، كان هناك الكثير من الغرباء في ساحة المنزل، فثمة سائقون وخدم كما كان صوت عجلات العربات وصهيل الخيول وغير ذلك يشق سكون الليل. ومع ذلك، كان المكان مناسبًا: لم يكن يشغله إذا كان أحدهم سيلاحظ وجوده أم لا، والأمور تسير حتى الآن على ما يرام وعلى الأقل هو الآن قابع في الظلام ولا أحد يراه؛ في الوقت الذي يستطيع هو نفسه أن يرى كل شيء يحدث في المنزل.

كانت الأنوار تسطع من نوافذ المنزل، مما يوحي بأن هناك جمعًا احتفاليًا كبيرًا في منزل اولسوفسكي إيفانوفيتش. لكن لا صوت لموسيقى تُعزَف. «لا، لعلّه ليس حفلًا، ربما يكون اجتماعًا لبحث موضوع ما» - هكذا قال بطلنا لنفسه بنبرة لا تخلو من قلق.

ثم تساءل: ولكن هل اليوم هو موعدنا؟ هل هناك ثمة خطأ في تاريخ اليوم؟ هذا وارد.. كل شيء صار واردًا. ربما تكون رسالتها قد كتبت بالأمس، ولم تصلني إلا اليوم بسبب إهمال بتروشكا، هذا الوغد الحقير! أو لعلّ الرسالة كتبت لغد، أقصد أن الموعد يجب أن يكون غدًا، فكان يتوجب عليّ أن أحضر غدًا مع العربة وأكون في انتظارها.

فكّر بطلنا في هذا الاحتمال وأسقط في يده، ومدّ يده يبحث في جيبه عن الرسالة حتى يبدد شكوكه. وكانت صدمته الأكبر عندما اكتشف أنه لا أثر لتلك الرسالة في جيبه. هنا بدأ يتمتم وهو شاحب الوجه كمن يحتضر: «كيف حدث ذلك؟ أين عساي أن أكون وضعتها؟! ربما أضعتها؟! ثم أضاف أخيرًا متنهدًا: «آه هذا ما كان ينقصني، يا إلهي ماذا سيحدث إذا وقعت الرسالة في يد شخصٍ يضر لي شرًا!! أو ربما وقعت بالفعل في يد أحدهم.

آه يا ربي! ماذا سوف يحدث حينها! سوف تكون العاقبة وخيمة، يا لشقائي!» هنا ارتجف السيد جوليادين مثل ورقة شجر تنطير بفعل الأفكار التي أخذت تدور في رأسه، حيث تخيل أن «توأمه» ذلك الرجل الحقير قد انتهز فرصة اضطرابه حينما ألقى عليه المعطف ليسرق الرسالة التي علمَ بها بشكلٍ ما من أحد أعداء السيد جوليادين. فكّر يقول: «نعم. إنه دائمًا يهوى جمع الأدلة.. لكن أي دليل هنا؟» أدت هذه الصدمة الأولى وحالة الرعب تلك إلى اندفاع الدم إلى رأس السيد جوليادين، فأطلق صرخة من بين أسنانه، وأمسك برأسه

الذي كاد أن ينفجر بكلتا يديه، وخرَّ جالسًا على جذع الشجرة. وغرق في التفكير.. ولكنه عجز أن يرتب أفكاره على نحو متناسق ومنطقي.. أخذت وجوه كثيرة تمر أمام عينيه، منها ما يذكره ومنها ما هو مجهول لديه، ثم فجأة، بدأ في تذكر أحداثٍ وقعت منذ زمنٍ طويلٍ، وأخذت تندفق على ذاكرته - لسببٍ ما - بعض الأغاني السخيفة.. كان في شدة الخوف والقلق!

وأخذ يفكر بعد أن تاب قليلاً إلى رشده ويجاهد للتخلص من خوفه الذي يعتصر قلبه: «يا إلهي! يا إلهي! هب لي شيئاً من العزيمة لنفسي لكي أتخلص بها من الشقاء الذي يعتصرني، لقد ضعت، لقد انتهيت، لا شك في ذلك، وهذا من سنن الحياة وترتيب القدر، لا يمكن أن ينتهي الأمر على نحوٍ آخر! في البداية فقدتُ وظيفتي، لقد فقدتها بالتأكيد، وما كان يمكن إلا أن أفقدها.. حسناً، لنفترض أن هذا الأمر يمكن أن يتم تسويته بطريقة ما. لنفترض أن ما ادخرته من مالٍ يكفيني لبعض الوقت. سيكون عليّ أن أستأجر شقةً أخرى صغيرة، ولا بُدَّ من شراء بعض الأثاث، ولكن بتروشكا لن يكون معي. يمكنني الاستغناء عن هذا الوغد.. سوف أستأجر غرفة؛ وهذا أمرٌ في المتناول! وحينها أستطيع أن أدخل وأغادر متى شئت، ولن يتذمر بيتروشكا مني لأني تأخرت - هكذا سيكون الوضع إذًا، هذه هي ميزة استئجار غرفةٍ في شقةٍ آخرين. حسناً، نعم، فلنفترض أن كل شيء سيكون على ما يرام، ولكن كيف لي أن أفكر هكذا. ما زلت أتجاهل الشيء الأهم. نعم أنا أتحدث عن شيءٍ مختلفٍ تمامًا».

وهنا لمعت في ذهنه فكرة عن وضعه الحالي. نظر حوله. «آه يا إلهي! يا رباها! لكن ما الذي أتحدث عنه الآن؟» - هكذا سأل بطلنا نفسه وهو في اضطراب شديد ممسكاً برأسه المحموم..-

خاطبه صوت قادم من الأعلى يقول:

- هل تسمح أن نتحرك قريباً يا سيدي؟

هنا ارتجف السيد جوليا دكين. ورفع عينيه. فرأى أمامه السائق، الذي كان مبتلاً أيضاً من رأسه إلى أخمص قدميه وقد دفعه نفاذ الصبر والملل أن يلقي نظرة على بطلنا القابع وراء كومة الحطب.

- لا أعرف، يا صديقي، لا أعرف.. أنا، يا صديقي أودُّ أن أغادر بعد قليل، حالاً سنتحرك، أما أنت فانتظرنى قليلاً..

انسحب السائق وهو يتمتم في نفسه متذمراً. فتساءل بطلنا بينه وبين نفسه بعينين دامعتين: «ما سبب تدمره وضيقة؟ لقد استأجرت العربة لليلة بأكملها. لأنني.. في مثل حالتي تلك.. هذا ما حدث.. وأعتقد أن هذا حقي الآن. استأجرت له ليلية كاملة. والأجر واحد سواء أبقى هنا أو ذهب بي إلى مكان آخر. الأمر كله وفق إرادتي أنا. إن شئت ذهبت وإن شئت بقيت هنا وراء كومة الحطب. هذا الأمر لا يعنيه.. ولا تجرؤ أيها السائق على قول أي شيء؛ سيدك اليوم يريد أن يقف خلف كومة الحطب، لذا فهو يقف خلف كومة الحطب.. هو لم يؤذ أحداً بفعلته تلك ولم يلوث شرف أحده ولم يجر على حق أحده، هكذا هو الأمر! وهذا هو الحال، يا سيدتي، إذا كنت مهتمة بمعرفة ذلك في الأساس. أما الكوخ، يا سيدتي، فاعلمي أنه ما من أحد يسكن أكوأخاً في هذا الزمان.

فلتعلمي هذا جيداً! وأنه لا يمكن للمرء إذا تخلى عن أخلاقه أن يحقق ثمة نجاح، خاصة مع التقدم الذي نعيشه في عصرنا هذا، وما أنت الآن إلا مثال يبعث على الحزن والأسى..

لقد افترضت يا سيدتي أنني سوف أعمل في أحد المكاتب، وأنا سنعيش في كوخ سوياً على شاطئ البحر. لكن عليك يا سيدتي، أن تعلمي أنه ما من مكاتب على شاطئ البحر، هذا أولاً. وثانياً من المستحيل أن أحصل على عمل كهذا بفضل منك.

فلنفترض مثلاً، أنني تقدمت بطلب، وقلت وأنا أقدمه: «إليك هذا الطلب يا سيدي، وأريد تعييني رئيس مكتب.. واحمني من أعدائي. أتعرفين ماذا سيكون الرد؟ سيكون كالتالي:

«لدينا عدد كافٍ من رؤساء المكاتب». وعليك يا سيدتي أن تعلمي أنك الآن لست مع المهاجرة مدام فالبالا التي كانت مربيتك حينًا من الزمن. أنت الآن يا سيدتي لست إلا نموذج سيئ ومؤسف.

إن حسن السلوك يا سيدتي يعني أن تبقي في المنزل، وأن تحترمي والدك وألا تفكري في الخطاب قبل الأوان. سيعثرون لك على خطيب، يا سيدتي، في الوقت المناسب - هكذا هو الأمر!

بالطبع، يجب أن تنمي الفتاة مواهبها، ومن المستحسن في بعض الأحيان أن تتعلم الفتاة العزف على البيانو وأن تتحدث الفرنسية، وأن تعرف قليلاً في التاريخ والجغرافيا، وأن تعي قواعد دينها، وأن تتعلم الحساب - هذا أمر طبيعي! ولكن لا يتطلب الأمر أكثر من ذلك! هناك أيضًا مسألة المطبخ، إن فنّ المطبخ لا غنى عنه في تربية كل فتاة مثالية!

أما الآن فلنعد لموضوعنا، بداية، لن يسمحوا لك يا جميلتي، يا سيدتي العزيزة بأن ترحلي، وإن هربت فلن يتركوك، وبعد ذلك سيحجرون عليك، ويضعونك في دير من الأديرة.

ما العمل حينها يا سيدتي؟ ماذا سيتعين عليّ أن أفعل حينها؟

هل سيكون عليّ يا سيدتي أن اقلد ما يحكى في الروايات السخيفة وأن أتسل كل يوم إلى أحد التلال المجاور؟ ثم أنفجر باكياً وأنا أتأمل جدران سجنك الباردة، وفي النهاية أنتظر موتي على غرار بعض الشعراء والروائيين الألمان المخادعين؟ هل هذا ما تريدينه يا سيدتي؟

حسنًا، أولاً، دعيني أخبرك كصديق أن الأشياء لا تتم على هذا النحو، وثانيًا، أنت ووالداك تستحقون اللوم على هذه الروايات الفرنسية التي قرأتماها؛ والتي منحوك إياها من أجل أن تقرئها، اعلمي جيدًا أن هذه الروايات الفرنسية لا تقيد بشيء. كل ما فيها هو سُم.. سُم زعاف يا سيدتي!

أو ربما تتصورين - لو سمحت لي - أنه يمكننا الهرب والإفلات بفعلتنا دون عقاب؟! وأنا سنمتلك هناك كوخا على شاطئ البحر، وتبادل المشاعر الجميلة والاحاديث الرومانسية وتمضي حياتنا كلها في رضا وسعادة، وربما قادك الخيال إلى أننا سننجب طفلاً، عصفوراً جميلاً، وحينها نعود إلى أبيك مستشار الدولة، ألسوفي إيفانوفيتش، ونقول له: ها هو عصفورنا الجميل، فانس غضبك علينا وباركنا ومولودنا.

لا، يا سيدتي، ومرة أخرى أكرر لك، أبداً لا تتم الأمور على هذا النحو، لا يجب أن تركني كثيراً لأحاديث الهوى والغرام. الزوج، يا سيدتي، في هذه الأيام هو سيد العائلة، وعلى الزوجة الطيبة ذات التربية الحسنة أن تفعل كل شيء لإرضاء زوجها.

اعلمي يا سيدتي، أنه لا أحد في أيامنا هذه - حيث التقدم والتطور في كل شيء - يحرص على التمسك بالرومانسية، فقد أصبح زمن جان جاك روسو من الماضي. عصرنا مختلف عن عصره. والرجل في أيامنا هذه يعود من عمله، فإذا كان جائعاً يقول لزوجته: يا روجي، هل من شيء أسكت به جوعي، أرغب في قطعة من السمك المدخن مثلاً مع كأس فودكا؛ لذلك يجب أن تكوني متأهبة في كل لحظة لتقديم الفودكا والسمك المدخن متى طلب منك زوجك ذلك.

سيلتهم الزوج غداءه دون أن يرمقك ولو بنظرة واحدة، ثم سيقول لك: هيّا اذهبي إلى المطبخ، يا قطتي، وحضري لنا طعام العشاء. سيمنحك قبلةً واحدةً في الأسبوع، وستكون على الأغلب قبلةً باردةً. ذلك هو ما يحدث في أيامنا هذه يا سيدتي. نعم، قبلة قصيرة تخلو من أي مشاعر.

هكذا سيكون الحال، إذا أردنا أن نتدبر أمرنا جيداً، وإذا أردنا أن نرى الأشياء على حقيقتها. أما عني، فما شأني بكل ذلك؟ لماذا جعلت مني شريكاً لك في نزواتك وأهوائك يا سيدتي؟ ربما ستقولين لأنني رجلٌ طيبٌ كريمٌ مخلص لك وعزيز على قلبك إلى آخر هذه الصفات.

نعم، ولكن عليك أن تعلمي يا سيدتي أنه أولاً وقبل كل شيء، أنا شخص غير مناسب لك. ولستُ أجيّد فنون الملاطفة والمجاملات ولعلّك تعرفين ذلك جيّدًا. ولا أحب تكرار السخافات التي يلقيها الرجال على مسامع النساء. إنني لا أصلح أن أمثّل دور العاشق الولهان وليست لدي رغبة في ذلك.

كما أن هيئتي نفسها لا تصلح لذلك، فلن تجدي فيّ حبًّا للتفاخر والزهو الكاذب والخجل الزائف. أنا أعترف لك من كل قلبي وبكل صدق، نعم هذا أنا، لن تجدي سوى رجل قويم صريح صاحب حسّ سليم، لا يهتم مطلقًا بتدبير المكائد. لست بالرجل الذي يخدع النساء، وأنا فخورٌ بما أنا عليه - تلك هي الحقيقة!.. أمشي بدون قناع بين الناس الطيبين، ولكي أتم حديثي أقول...»

فجأة ارتجف السيد جوليا دكين حينما رأى لحية السائق التي تميل للحمرة والمبللة ترمقه مرةً أخرى من فوق كومة الحطب.

قال السيد جوليا دكين للحوزي بصوت مرتجف وثقيل: الآن يا صديقي، حالًا، سأتي حالًا يا صديقي، على الفور يا صديقي.

حك السائق رأسه، وطاف بيده على لحيته، ثم خطا خطوة للأمام.. ثم توقف ونظر بريبة إلى السيد جوليا دكين.

- أنا آتٍ يا صديقي. كما ترى. أنا آتٍ، إنني أنتظر قليلًا يا صديقي، كما ترى.. لحظة واحدة فقط.. هل ترى يا صديقي؟

قال السائق بنبرة لا تخلو من صرامة وهو يقترب جدًّا من السيد جوليا دكين:

- أليس في نيتك مغادرة هذا المكان اليوم؟

- لا يا صديقي. بل سأتي. أنا كما ترى.. أنتظر حتى آخر لحظة يا صديقي.

- مفهوم.

- آه كما ترى يا صديقي.. بالمناسبة: من أي قرية أنت يا عزيزي؟

- لقد ولدت في منزل أسيادي.

- وهل هم أسياد طيبون؟

- لا بأس بهم.

- حسنًا يا صديقي؛ ابقَ معي هنا يا صديقي، هل تفهمني يا صديقي؟ هل أنت مقيم في

سان بطرسبورج منذ فترة طويلة؟

- نعم منذ سنة وأنا أعمل في المدينة.

- وهل أنت مرتاح فيها؟

- لا بأس.

- حسنًا يا صديقي، حسنًا. يجب أن نشكر الله على ذلك. يا صديقي. أنت صديقي. أتعلم

يجب دائمًا أن تبحث عن صديق طيب وصدوق، فمثل هؤلاء قد أصبحوا قلة في هذا

الزمان. فالمرء الطيب سوف يعتني بك ويساعدك في الاستحمام ويقدم لك الطعام

والشراب يا عزيزي الطيب، الأغنياء أيضًا يذرفون الدمع يا صديقي.. هم أيضًا بؤساء.

يمكنك أن ترى أمامك الآن مثالًا حيًا مؤسفًا؛ هذا هو الحال يا عزيزي..

بدا أن السائق يشعر بالأسف تجاه السيد جوليا دكين، وقال:

- حسنًا، اسمح لي، سوف أنتظرك يا سيدي. ولكن هل سيطول انتظاركم؟

- لا يا صديقي، لا. هل تعلم؟ لن أنتظر أكثر من ذلك.. ما رأيك يا صديقي؟ أنا أعتد عليك.  
لن أنتظر أكثر من ذلك..

- لن نسافر إذا إلى أي مكان؟

- لا يا صديقي، لا. ولكني سأعطيك مكافأة سخية مع ذلك يا عزيزي. هذا ما سيكون. كم  
عليّ لك يا عزيزي؟

- ما اتفقنا عليه يا سيدي ستدفعونه لي. لقد انتظرت مدة طويلة يا سيدي. واعلم أنك لن  
تبخسني حقي يا سيدي.

- حسنًا، إليك أجرك يا عزيزي، هذا من أجلك.

أعطى السيد جوليا دكين السائق الروبلات الستة الفضية التي وعده بها. وقرر بحسم عدم  
إضاعة المزيد من الوقت والانصراف مهما كلفه الأمر، خاصة وأن الأمر قد انتهى أخيرًا بعد  
أن أخلى سبيل السائق، ولم يكن هناك أي داعٍ لمزيد من الانتظار. خرج من الفناء، وتجاوز  
باب الدخول، والتفت يسارًا، وأطلق العنان لقدميه يركض لاهئًا مشرق الوجه دون أن ينظر  
خلفه. وظلّ يردّد في نفسه: «ربما يكون ذلك أفضل، ربما ما زال في الإمكان تسوية الأمر  
على خير وجه، وهكذا أكون قد تجنبت المشاكل».

في الواقع شعر السيد جوليا دكين فجأةً بهدوء في نفسه وطمأنينة غير معتادة. وقال لنفسه  
وهو لا يكاد يصدّق ما يقول: «كل شيء سيكون على ما يرام شريطة أن تسوّى الأمور على  
خير وجه. هذا ما سأقوم به. لا، بل الأفضل أن... أو ربما من ناحية أخرى أن... بل هذا ما  
يجب أن أفعله. أم إنه من الأفضل لي أن أفعل هكذا؟»

هكذا واصل أفكاره وأخذ يبحث عن حلول يبذّر بها شكوكه وقلقه وهو يركض في اتجاه  
جسر سيمينوفسكي. فلما صار عند الجسر اتخذ قرارًا حكيماً وحاسماً ألا وهو أن يعود من  
حيث أتى.

ردّد في نفسه: «هكذا أفضل. من مصلحتي أن أكون على الجانب الآخر، أن أقف موقف المشاهد المحايد المراقب عن بُعد. لا أكثر، سأكون هكذا وحسب، مراقب غريب عن هذه القضية كلها، ومهما حدث، سأظل خارج هذه القضية بأكملها. لن أسأل عن شيءٍ مهما حدث. ذلك ما سوف أفعله من الآن وصاعدًا».

بعد أن استسلم لقرار العودة، عاد بطلنا بالفعل، وقد رسمَ على وجهه ملامح الشخص غير المعني بالأمر على الإطلاق. كانت الثقة والطمأنينة تملآن قلبه بفضل هذه الفكرة السديدة. وأخذ يردد في نفسه: «هذا أفضل: الآن أنت لست مسؤولاً عن أيّ شيءٍ، وفي الوقت نفسه تتابعُ كلَّ شيءٍ. حقيقة هذا أفضل حلّ».

بعد أن هدأ تمامًا واطمأنت نفسه، عاد بطلنا يقبع في مخبأه المريح الآمن وراء كومة الحطب، وبدأ يراقب النوافذ باهتمام.

هذه المرة لم يطل انتظاره.

وفجأة، إذا بحركة غريبة تظهر من وراء نوافذ بيت السوفي إيفانوفيتش. ثم أطلت منها الرؤوس وفتحت الستائر، وهرع الضيوف يتزاحمون على النوافذ وكأنهم يبحثون عن شيءٍ ما في الفناء.

ظلّ بطلنا متحصنًا وراء كومة الحطب الخاصة به، وأخذ يتابع هو أيضًا بفضولٍ ما يحدث، وهو يمد رأسه تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، بقدر ما يسمح له الظلُّ القصير من كومة الخشب التي كانت تخفيه عن الأعين.

وفجأةً أصيب بالذهول، وارتجف، وكاد يسقط مغشيًا عليه من فرط الرعب. بدا له أنهم لا يبحثون عن شيءٍ ما بل عن شخصٍ ما. إنهم يبحثون عنه هو، عنه هو لا غيره، عن السيد جوليا دكين.

كانت جميع الأنظار مصوّبة إليه، وكان الجميع يشيرون باتجاهه. كان الهروب مستحيلاً، ولو هرب لقبضوا عليه.. التصق السيد جوليا دكين بكومة الخشب أكثر وأكثر، وأدرك في تلك اللحظة نفسها أن الظل الغادر هو من فضحه، فهو لا يستر كل جسمه.

في تلك اللحظة بالذات لم يكن يمانع أن ينقلب إلى فأر حتى يتمكن من التسلل بين كومة الحطب. فيختفي تحته هادئاً مطمئناً. ليت هذا كان ممكناً! ولكن هيهات هيهات.

وفي النهاية قرّر بطلنا -والرعب يتملكه- أن يرفع عينيه نحو النوافذ، مطمئناً نفسه قائلاً: هذا أفضل..

ولكن ما هي إلا لحظة واحدة حتى تملّكه شعور بالخجل الشديد، لقد أدرك أنهم تعرّفوا عليه. لقد تعرّف عليه الجميع، ها هم يلوّحون له بأيديهم وينادونه باسمه. وسمع صرير النوافذ وهي تُفتّح، وسمع أصواتاً تهتف نحوه بكلمات لم يميزها..

«أستغرب كيف تركت هؤلاء الفتيات دون عقابٍ بالسوط. إنهن يستحقن ذلك منذ طفولتهن»، - غمغم بطلنا في نفسه وقد بلغ اليأس منه مبلغه.

وفجأة خرج من الشرفة (نعلم جميعاً من المقصود هنا)، مرتدياً زياً رسمياً وبدون قُبعة، وبغير معطف، ينفث أنفاسه، ويرتجف، هبّط درجات السلم وأسرع في اتجاه السيد جوليا دكين، وهو يعلن بنية غادرة عن سعادته الغامرة برؤيته في نهاية الأمر.

همس «الرجل» عديم الجدوى قائلاً:

- ياكوف بيتروفيتش! أنت هنا؟ ستصاب بالبرد يا ياكوف بيتروفيتش. البرد قارصٌ هنا يا ياكوف بيتروفيتش. تعال معي وادخل إلى القاعة.

تمتم بطلنا بصوت ذليل:

- يا كوف بيتروفيتش! لا.. أنا على ما يرام. لا شيء أبداً يا ياكوف بتروفيتش!



فكر فجأة وكأنه اكتشف شيئًا هامًا: «ولكنهم لا يدفعونني نحو الباب»، في الحقيقة لم يكن أحد يدفعه نحو باب البيت، كانوا يقودونه باتجاه مقعد مريح يجلس عليه ألسوفي إيفانوفيتش.

وبجواره تقف كلارا ألسوفيفنا، كانت شاحبة الوجه واهنة حزينة رغم ما ترتديه من ملابس أنيقة.

لفت نظره على نحوٍ خاص تلك الزهور البيضاء الصغيرة التي تزين شعرها الأسود، كان لذلك وقع خاص في قلبه. وفي مقابل المقاعد وقف فلاديمير سيميونوفيتش، مرتديًا معطفًا أسود اللون مزينًا بوسامه الذي حصل عليه مؤخرًا.

سحبوا السيد جوليادين من ذراعيه مباشرة في اتجاه ألسوفي إيفانوفيتش، كان يمسكه من إحدى ذراعيه السيد جوليادين الأصغر الذي رسم على وجهه في تلك اللحظة علامات الحكمة والوقار، وهو الأمر الذي أسعد بطلنا أيما سعادة، ومن الجهة الأخرى كان يقوده أندريه فيليبوفيتش ووجهه تعلوه ملامح الزهو والانتصار. فكر السيد جوليادين في قرارة نفسه: «ماذا سيحدث بي؟»

عندما أدرك أنه يقاد إلى ألسوفي إيفانوفيتش، داهمته فكرة في ذهنه. لقد خطرَ بباله موضوع الرسالة المسروقة.

وقف بطلنا والحزن يكاد يقتله أمام ألسوفي. قال في نفسه «ماذا عليّ أن أفعل الآن؟ ينبغي أن أواجه هذا الموقف بشجاعة وصراحة لا تخلو من النبل والشهامة في ذات الوقت. عليّ أن أشرح القضية كما هي بكل التفاصيل.»

لكن يبدو أن ما كان يخشاه بطلنا لم يحدث. فها هو ألسوفي إيفانوفيتش يستقبل السيد جوليادين جيدًا، وعلى الرغم من أنه لم يمد يده إليه ليصافحه، لكنه على الأقل، نظر إليه

وهو يهز رأسه ذا الشعر الأشيب الذي يفرض على محدثه الاحترام، هز رأسه بطريقة تفيض زهواً وحزناً ووداً في الوقت نفسه.

هكذا بدا الأمر بالنسبة للسيد جوليا دكين في تلك اللحظة على الأقل. وبدا له حتى إن الدمع يكاد يذرف من عيني ألسوفي إيفانوفيتش الباهتتين. رفع عينيه ولاحظ أن رموش كلارا ألسوفيفنا هي الأخرى قد ابتلت، والأمر نفسه حدث مع فلاديمير سيميونوفيتش أيضاً، حتى أندريه فيليبوفيتش الذي ظلّ واقفاً في وقار غير مضطرب بدا متعاطفاً مشفقاً هو الآخر على بطلنا. وبدا له أخيراً أن الشاب الذي يبدو أنه يعمل كمستشار من مستشاري الدولة قد انفجر باكياً بحرقة شديدة متأثراً بما يحدث.

أو ربما كان هذا كله محض أوهام لدى السيد جوليا دكين، لأنه هو أيضاً قد انخرط في بكاءٍ شديدٍ، وكان يشعر بدموعه الساخنة تتدفق على وجنتيه الباردين..

وبصوت منتحب متصلح مع الجميع ومستسلم لقدره، يملأه الحب ليس فقط لألسوفي إيفانوفيتش، وليس فقط للحضور من الناس بل ولغرابة الأمر تجاه توأمه الشرير الذي لم يعد على ما يبدو شريراً وبدا وكأنه لم يكن يوماً شبيهاً به أو توأمًا له، بل هو إنسان غريب عنه ودود مُجِب له، وجّه حديثه إلى ألسوفي إيفانوفيتش، لكن فرط تأثره منعه من الحديث فلم ينطق بكلمة واحدة. ولكنه قام بإشارة بليغة للغاية وصامتة بوضع يده على قلبه..

وأخيراً، وفي محاولة منه لإنقاذ الرجل العجوز أشيب الشعر من الانفعال الزائد قام أندريه فيليبوفيتش بسحب بطلنا إلى ركن من القاعة وتركه هناك حرّاً تماماً في اتخاذ أي قرار على ما يبدو.

مبتسماً شق بطلنا طريقه بين الزحام وبين صفوف الضيوف، وهو يتمتم في نفسه حائراً، ولكنه مع ذلك كان قد نجح في التصالح مع الناس ومع مصيره وقدره بشكل كامل.

أفسحوا له الطريق وكانت النظرات ترمقه بفضول غريب وتعاطف واهتمام غامض يصعب تفسيره.

دخل بطلنا إلى غرفة مجاورة وإذا بنفس القدر من الاهتمام من الحضور. وسمع بأذنيه كيف كان الجميع يتبعونه بخطواتهم ويرقبون كل خطوة يخطوها. وسمعهم يتباحثون فيما بينهم في أمرٍ ما يبدو هامًا للغاية. كانوا يهزون رؤوسهم ويتحدثون ويطلقون أحكامًا ويتصافون فيما بينهم يعارض بعضهم بعضًا ويتهامسون.

وَدَّ السيد جوليادكين حينها لو يعرف سرَّ ذلك كله، وفيما يتناقشون ويتجادلون ويتهامسون بشأنه.

نظر حوله، فلاحظ أن السيد جوليادكين الأصغر يقف بجواره. وشعر السيد جوليادكين برغبة في أن يمسك بيده ويسحبه جانبًا. وطلب السيد جوليادكين راجيًا من السيد جوليادكين الآخر أن يدعمه في جميع مساعيه المستقبلية وألا يتركه وحده في هذا الوضع الحرج. فأوما السيد جوليادكين الأصغر برأسه وضغط بقوة على يد السيد جوليادكين الأكبر.

أحسَّ بطلنا بقلبه يخفق بقوة من فرط التأثر. ورغم ذلك ظلَّ يلهث في محاولة منه لالتقاط أنفاسه، وشعر أنه مظلوم ومضطهد للغاية، وأن كل هذه العيون التي تحديق إليه، ونظراتها القاسية ترمقه باحتقار فتوشك أن تسحقه..

وفي أثناء ذلك، لاحظ السيد جوليادكين ذاك المستشار الذي كان يضع على رأسه شعرًا مستعارًا.

نظر إليه المستشار بنظرة صارمة فاحصة لم تتأثر بتعاطف الآخرين. قرر صاحبنا أن يذهب إليه مباشرة ليبتسم إليه ويحادثه، لكن ولسبب ما لم يقوَ على فعل ذلك.

وللحظة، فقد السيد جوليادكين ذاته بالكامل.. فقد ذاكرته ومشاعره..

فلما عاد إليه صوابه، لاحظ أنه كان يطوف حول نفسه وسط دائرة واسعة من الضيوف.  
وفجأة نادى أحدهم من الغرفة المجاورة صائحًا: «السيد جوليا دكين». كانت صيحة تردّد  
صداها بين الجمع المحتشد من الناس دفعة واحدة.

عمّ الصخب والاضطراب أرجاء المكان، واندفع الجميع إلى أبواب القاعة الأولى؛ وكادوا  
يحملون بطلنا إلى هناك حملاً على أيديهم، كان المستشار الذي يحمل شعراً مستعاراً غليظ  
القلب ملاصقاً طوال الوقت للسيد جوليا دكين. أخذه من يده وأجلسه بجانبه، أمام مقعد  
السوفي إيفانوفيتش، ولكن على مسافة كبيرة منه.

تجمّع كلٌّ من كان في الغرفة الأخرى وتحلق الجميع جلوساً في عدة صفوف حول السيد  
جوليا دكين والسوفي إيفانوفيتش. حلّ السكون والهدوء على المكان، وران على الجميع  
صمتٌ مهيبٌ، تطلع الحضور جميعاً إلى السوفي إيفانوفيتش، كان من الواضح أنهم  
يتوقعون أن شيئاً غير عادي سوف يحدث.

ولاحظ السيد جوليا دكين أن السيد جوليا دكين الآخر وأندريه فيليبوفيتش قد جلسا إلى  
جانبي مقعد السوفي إيفانوفيتش، مباشرة أمام المستشار.

استمر الصمت طويلاً. وبدا فعلاً أن هناك أمراً ما خطيراً سيقع. فكّر بطلنا في نفسه: «الوضع  
الآن يذكّرني تماماً بما يحدث عادة داخل عائلة ما قبل أن يغادر أحد أفرادها في رحلة  
طويلة؛ لم يبقَ الآن إلا أن ينهضوا ويصلوا للرب» **(\*\*\*\*\*)**.

وسرعان ما وقع شيء طال انتظاره وقطع أفكار السيد جوليا دكين. بدأ الحضور يرددون:  
«ها هو قادم. ها هو قادم». تساءل السد جوليا دكين وهو يرتعدُ وقد تملّكه شعورٌ غريبٌ:

- «من هذا الذي وصل؟»

قال المستشار وهو ينظر باهتمام إلى أندريه فيليبوفيتش.

- لقد حان الوقت!

ومن جانبه ألقى أندريه فيليبوفيتش نظرة خاطفة على ألسوفي إيفانوفيتش. فأشار هذا الأخير برأسه بوقار علامة على الموافقة.

قال المستشار وهو يساعد السيد جوليا دكين على الوقوف:

- انهض!

وقف الجميع. ثم أخذ المستشار بيد السيد جوليا دكين الأكبر، وأخذ أندريه فيليبوفيتش بيد السيد جوليا دكين الأصغر، وسارا بالرجلين الشبيهين في كل شيء بين الجمع المترقب المحيط بهم.

نظر بطلنا حائرًا حوله، لكنهم أوقفوه وأشاروا إلى السيد جوليا دكين الأصغر، الذي كان يمد يده إليه.

«ربما يريدون المصالحة بيننا»- فكّر في نفسه وهو يمد يده برقة إلى السيد جوليا دكين الأصغر، ثم مد رأسه إليه.

قام السيد جوليا دكين الآخر بالشيء نفسه.. وهنا بدا للسيد جوليا دكين الأكبر أن صديقه الغادر كان يبتسم، وأنه غمزَ بمكر وبسرعة للحشد بأكمله من حوله، وأن هناك شيئًا ينذر بالسوء يبدو في ملامح وجه السيد جوليا دكين الأصغر الشرير، فلقد تجهّم السيد جوليا دكين المخادع في اللحظة التي كان يهيم فيها أن يمنح صاحبه قبلة يهوذا الخائن..

وبدا للسيد جوليا دكين وكأن جرسًا قويًا يدوي في رأسه، وأظلمت الدنيا أمام عينيه؛ وبدا له أن جميع من حوله هم جميعًا أشباه جوليا دكين، يتحلقون حوله كسلسلة ضخمة تصدر ضجيجًا هائلًا وتندفع بقوة لتحطم جميع الأبواب. ولكن كان الأوان قد فات.. كان رجع صدى قبلة الخيانة قد أخذ يدوي في أرجاء المكان..

ثم حدث ظرفٌ غيرُ متوقع على الإطلاق.. فُتِحَت أبواب القاعة بقوة فأحدثت صوتًا عاليًا، وظهرَ رجلٌ على العتبة، وما إن رآه السيد جوليا دكين حتى تجمَّد في مكانه. تسمرت قدماه على الأرض ولم يقوَ على إطلاق صرخة من صدره المختنق.

ومع ذلك كان السيد جوليا دكين قد تنبأ بكل ما يحدث وكان قد توقع شيئًا كهذا منذ زمنٍ طويلٍ. كان الغريب يقترب من السيد جوليا دكين وعلى وجهه ترتسم علامات الجَد والزهو والوقار.. كان السيد جوليا دكين يعرف هيئته جيدًا. لقد رآه من قبل، رآه مرارًا، ورآه في هذا اليوم أيضًا..

كان الغريب رجلًا طويل القامة، قوي البنية، يرتدي معطفًا أسود، مع صليب كبير حول رقبته، ولديه سواف سميقة داكنة السواد؛ لم يكن ينقصه سوى سيجار يتلقمه بين شفتيه، حتى يكون الشبه كاملاً.

لكن نظرات الغريب، كما سبق وقلنا، ملأت قلب السيد جوليا دكين بالخوف فتسمر في مكانه.

اقترب الغريب مزهواً وقوراً من بطلنا المسكين. مدَّ بطلنا يده إليه. فأمسك الغريب بيده وسحبه خلفه.. نظر بطلنا حوله وقد بدا وجهه تائهاً ضائعاً كوجه رجل ميت..

- «إنه كريستيان إيفانوفيتش روتنشتيتس، الطبيب والجراح، أحد معارفك القدامى، يا ياكوف بتروفيتش!» - همس شخص بهذه الكلمات بصوت مقزز في أذني السيد جوليا دكين.

نظر بطلنا حوله، فرأى أن صاحب هذا الصوت هو توأمه السيد جوليا دكين، ذلك الرجل المثير للاشمئزاز الغدار الذي تلوثت روحه بقبيح الخصال. قال ذلك وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شريرة مشؤومة وفرك يديه منتشياً، وأدار رأسه بسعادة، وتحرك بين الجموع مفتتاً بنفسه. بدا أنه مستعد للرقص في الحال، ووثب فجأة إلى الأمام، وانتزع

شمعةً من يد أحد الخدم، وتقدّم يضيء الطريق للسيد جوليا دكين وكريستيان إيفانوفيتش.

رأى السيد جوليا دكين بوضوح كيف أن كل من كان في القاعة قد اندفع خلفه، وكيف احتشد الجميع كأنه موكب كبير يتدافعون فيما بينهم ويتسابقون للحاق به، وبدأوا جميعاً، يرددون في صوتٍ واحدٍ مخاطبين السيد جوليا دكين:

« لا شيء. لا تخف يا ياكوف بتروفيتش، إنه صديقك القديم، هو صاحبك القديم، كريستيان إيفانوفيتش روتنشتيتس.».

أخيراً خرجوا إلى الممر الخارجي، ثم إلى السلم حيث كانت الإضاءة ساطعة؛ كان هناك أيضاً الكثير من الناس ينتظرون على الدرج. انفتح باب العمارة بصوتٍ عالٍ، ووجد السيد جوليا دكين نفسه عند المدخل وبجواره كريستيان إيفانوفيتش.

وهناك كانت تقف عربة يجرها أربعة خيول تصهل بنفاد صبرها.

قفز السيد جوليا دكين الأصغر الشرير في أثرهما على الدرج فوصل للمدخل بثلاث وثبات وفتح العربة بنفسه. وبإشارة أمرة طلب كريستيان إيفانوفيتش من السيد جوليا دكين الجلوس.

ومع ذلك، لم تكن للإشارة أي ضرورة على الإطلاق؛ كان هناك عدد كبير من الناس كافٍ تماماً لإرغامه على ذلك.. نظر السيد جوليا دكين خلفه وكان الرعب يملكه تماماً. كان السلم المضاء يعج بالناس، وكانت نظرات الفضول تلاحقه في كل مكان ولا تكاد تتركه. حتى إن ألسوفي إيفانوفيتش نفسه كان يجلس إلى مقعده أعلى الدرج، يتابع باهتمام كل ما يحدث بعينيه التي تملؤها الشفقة.

كان الجميع ينتظرون. وعندما نظر السيد جوليا دكين خلفه كان صبر الحضور قد بدأ في النفاد.

وهنا تمتم بطلنا وقد شعر بالضياح التام وقرب النهاية:

- أتمنى ألا يكون هناك شيء ضدي.. أي شيء ألام عليه.. أو ما يبعث على استخدام القسوة ضدي.. ويلفت انتباه الناس إليّ وإلى علاقاتي بالآخرين.

دارت أحاديث وحدثت جلبة في المكان كله؛ الجميع يهز رأسه أسفاً على ما حدث. انهمرت الدموع من عيني السيد جوليا دكين.

قال: في هذه الحالة، أنا جاهز.. أنا أثق بك تماماً.. أوكل مصيري كاملاً إلى كريستيان إيفانوفيتش..

وبمجرد أن قال السيد جوليا دكين إنه يعهد بمصيره إلى كريستيان إيفانوفيتش، حتى دوت صرخة فرح مفزعة تصم الآذان من كل من حوله، وسرى صداها بين الحشد بأكمله.

هنا أمسك كل من كريستيان إيفانوفيتش، وأندريه فيليبوفيتش بأحد ذراعي السيد جوليا دكين، وأخذاً يُركبانه في العربة؛ فيما كان توأمه كعادته الحقيرة يدفعه من الخلف.

ألقى السيد جوليا دكين البائس المسكين بنظرته الأخيرة على الجميع وعلى كل شيء حوله، وهو يرتجف كقطة صغيرة سكب عليها قدرٌ كبيرٌ من الماء البارد - إذا جاز لنا التشبيه.

صعد بطلنا إلى العربة، وسرعان ما تبعه كريستيان إيفانوفيتش. أغلق الباب. وسمعت قرقعة السوط على ظهور الأحصنة، التي تحركت بدورها تجر العربة.. وهرع الجميع خلفها، في أثر السيد جوليا دكين. كانت صرخات أعدائه المحمومة والحادة تلاحقه في صورة عبارات وكلمات فراق ووداع. وظلّ بعض الوقت يميز بين الوجوه المتحلقة بالعربة وهي تقله بعيداً، لكنّ شيئاً فشيئاً بدأت الوجوه تتلاشى، حتى اختفت تماماً في النهاية.

أصبح لا يرى أحداً إلا شبيهه، ذاك الحقيرة الذي ظلّ يرافق العربة مدةً أطول.

كان هذا الأخير يركض وراء العربة واضعًا يديه في الجيوب الجانبية لسرواله الأخضر، كانت علامات الفرحة ترتسم على وجهه وهو يركض بجوار العربة تارةً من ناحية اليمين وتارةً من ناحية اليسار ويتشبث بالنافذة من وقتٍ لآخر ويحشر رأسه داخل العربة ويرسل القبلات في الهواء إلى صديقه المسكين مودعًا إياه.

لكن التعب قد تملَّك منه هو أيضًا في النهاية وبدأ يتعب من الركض، وصار يتلاشى هو الآخر من أمام عين بطلنا رويدًا رويدًا حتى اختفى أخيرًا في النهاية.

اختنق صدر السيد جوليا دكين وشعر بألم صامت قد ألمَّ به. وصار الدم يغلي في رأسه؛ شعر بضيق شديد، وودَّ لو يستطيع فك أزرار سترته، ويكشف صدره، ويرشه بالثلج أو يسكب عليه الماء البارد. ولم يلبث أن فقد وعيه تمامًا.. فلما أفاق، رأى أن الخيول كانت تحمله عبر طريق لم يعتدُّه. كانت الغابات السوداء القاحلة تحيط به يمنة ويسرة. كان الطريق موحشًا ومقفراً.

وفجأةً شعر بأن قلبه سيتوقف حين بدا له أن عينين من لهب تحدقان به في الظلام، عينان يتطاير منهما شرر فرح جهنمي مشؤوم.

«لم يكن هذا كريستيان إيفانوفيتش! من هو؟ هل كان هو؟ نعم هو. هو كريستيان إيفانوفيتش ولكن ليس كالسابق وليس الذي يعرفه. إنه كريستيان إيفانوفيتش آخر! إنه كريستيان إيفانوفيتش الرهيب!»

نطق بطلنا بصوت مرتعد من فرط الخوف، وهو يحاول أن يكسب عطف وشفقة كريستيان إيفانوفيتش الرهيب بإظهار المذلة والخضوع له:

- كريستيان إيفانوفيتش، أنا.. يبدو أنني لم أرتكب شيئًا أستحق عليه.. لم أفعل شيئًا يا كريستيان إيفانوفيتش

فقاطعه كريستيان إيفانوفيتش بلهجة صارمة مرعبة كمن يصدر حكمًا نهائيًا على متهم:

- رغم أنك لا تستحق ذلك، سيكون لك الحق في مسكن بالمجان، مع تدفئة وإضاءة وخادم  
يرعى شؤونك.

أطلق بطلنا صرخة مدوية وأمسك رأسه بكلتا يديه. «واحسرتاه! لقد توقعت هذا كله منذ  
زمنٍ بعيدٍ!»

**تمت**

# السيرة الذاتية للمترجم

- أ.د. محمد نصر الدين محمد الجبالي
- أستاذ ورئيس قسم اللغة الروسية بجامعة عين شمس والاقصر
- المستشار الثقافي المصري ومدير البعثة التعليمية المصرية في روسيا الاتحادية سابقا
- كاتب مقالات بالصحف والمجلات الادبية العربية وباحث في الأدب الروسي والترجمة
- رئيس قسم اللغة الروسية بجامعة الملك سعود بالرياض سابقا.
- المؤلفات والترجمات

## المؤلفات:

- ١- معجم المصطلحات السياسية والاقتصادية (روسي - عربي) (عشرون ألف مصطلح سياسي واقتصادي) (وزارة الثقافة المصرية -المركز القومي للترجمة).
- ٢- مذكرات الرحالة الروس إلى مصر في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين- باللغة الروسية - سان بطرسبورج - ٢٠٠٨م
- ٣- كتاب تعريفي عن المملكة العربية السعودية باللغة الروسية-وزارة الثقافة السعودية- ٢٠١٠

- ٤- الكتب المرجعية في الترجمات السياسية والنفطية والاجتماعية والعسكرية (من وإلى اللغة الروسية) لطلاب كلية اللغات والترجمة - الرياض - ٢٠٠٥م
- ٥- كتاب (مشاهد من المملكة) - وزارة الثقافة السعودية - ٢٠١١م
- ٦- كتاب المطالعات في اللغة العربية للطلاب الروس. موسكو. ٢٠١٢م - ٣ طبعات
- ٧- الاستراتيجيات الدولية في خدمة اللغة الوطنية. تجربة روسيا الاتحادية في حماية ودعم اللغة الروسية. الرياض. مركز اللغة العربية. ٢٠١٥م.
- ٨- تاريخ الحج من روسيا الاتحادية، داره الملك عبد العزيز التاريخية، الرياض، ٢٠١٧م
- ٩- تاريخ الحج من دول البلطيق، داره الملك عبد العزيز التاريخية، تحت الطبع.
- الترجمات:

- ١- ترجمة رواية «زمن النساء» - الهيئة العامة للكتاب - سلسلة الجوائز- نوفمبر ٢٠١٦م
- ٢- ترجمة كتاب «الأدب الشعبي عند العرب والترك» من اللغة الروسية إلى العربية. مركز الترجمة بجامعة الملك سعود- الرياض- ٢٠١٢
- ٣- ترجمة كتاب «تاريخ الحج من أوزبكستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين. داره الملك عبد العزيز. الرياض. ٢٠١٣
- ٤- ترجمة كتاب «تاريخ الحج من طاجكستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين. داره الملك عبد العزيز. الرياض. ٢٠١٤م
- ٥- ترجمة كتاب «تاريخ الحج من تركمنستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين. داره الملك عبد العزيز. الرياض. ٢٠١٦م

٦- ترجمة كتاب «تاريخ الحج من كازاخستان». موسوعة الحج والحرمين الشريفين.  
دارة الملك عبد العزيز. الرياض. ٢٠١٧م

٧- ترجمة كتاب (الإستراتيجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين) إلى اللغة  
العربية – المشروع القومي للترجمة – المجلس الأعلى للثقافة –وزارة الثقافة – مصر  
– ٢٠٠٣م

٨- ترجمة كتاب (النور والظل) في الجغرافيا السياسية لمنطقة آسيا الوسطي -مكتبة  
العبيكان -٢٠٠٩- الرياض

٩- ترجمة دليل تاريخ مصر القديم والحرف والصناعات القديمة في مصر الفرعونية  
– القاهرة – ٢٠٠٤م

١٠- ترجمة قصائد الشاعر الكسندر بوشكين ضمن مشروع موسوعة ترجمة أعماله إلى  
٢٠٠ لغة عالمية. ٢٠١٤م

١١- ترجمة كتاب «حوار الحضارات. روسيا والعالم الإسلامي». مركز الترجمة بجامعة  
الملك سعود. الرياض. ٢٠١٧

١٢- ترجمة كتاب «روسيا في الشرق الأوسط والأدنى»، دار نشر «أنباء روسيا»،  
القاهرة، ٢٠١٨م

١٣- ترجمة كتاب «روسيا والغرب. لمن الغلبة؟»، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٩

١٤- ترجمة رواية «مذكرات الكاهن الاعظم ايفان سيرجيفيتش»، الهيئة العامة  
للكتاب، ٢٠٢٠

١٥- ترجمة رواية «النبطي» للأديب المصري يوسف زيدان إلى اللغة الروسية – دار  
نشر «أنباء روسيا» –٢٠١٥م

١٦- ترجمة رواية «عزازيل» للأديب المصري يوسف زيدان إلى اللغة الروسية. دار نشر «أسترال». موسكو. ٢٠١٣

١٧- ترجمة إصدارات مركز زايد للتنسيق والمتابعة والتابع لجامعة الدول العربية إلى اللغة الروسية - دليل الإصدارات + دليل المحاضرات - ٢٠٠٣م

سنة ١٧٢٢م، قام بطرس الأكبر بإصلاح إداري، وقسم رُتب الموظفين الحكوميين إلى أربع عشرة رتبة. وكانت الرتبة الثامنة وقتذاك هي رتبة المساعد الإداري. توحى بعض مشتقات اسم جوليا دكين في اللغة الروسية بالندالة والعري والغباء. السماور: وعاء معدني يُستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي. يستخدم في روسيا وأوروبا الشرقية وبلدان الشرق الأوسط. يقصد الراهب جريجوري أوتريبييف الذي كان يعمل في أحد أديرة الكرملين وهرب عام ١٦٠١ ثم عاد وقدم نفسه بوصفه الأمير دميتري يوانوفيتش وأعلن نفسه القيصر دميتري الأول في عام ١٦٠٥. السبب في رد فعل جوليا دكين الغريب تجاه زجاجة الدواء هنا، أن الكاتب قد أعاد كتابة هذه الرواية، وفي النسخة القديمة كان قد ذكر أن جوليا دكين ظن أن الصيدلي متآمر ضده وقد ابتاعه زجاجة سم بدلاً من الدواء، وقد أبلغه فاخرمايف بذلك في رسالة.. فعندما قرأ اسم الصيدلي على الزجاجة أسقطها وظن أنه في خطر. شخصية وردت في إحدى قصص بوشكين الشعرية باسم الكونت نولين. وكان من عادة الروس وقتذاك أن يجلسوا مع المسافر سفرًا طويلًا لمدة دقيقتين في صمت، ومن بعدها يرسمون إشارة الصليب.

1. [الغلاف](#)
2. [1](#)
3. [الآخر](#)
4. [فيودور ميخائيل دوستويفسكي: الآخر، روس](#)
5. [فيودور ميخائيل دوستويفسكي](#)
6. [نُشِرَت للمرة الأولى عام ١٨٤٦](#)
7. [الفصل الأول](#)
8. [الفصل الثاني](#)
9. [الفصل الثالث](#)
10. [الفصل الرابع](#)
11. [الفصل الخامس](#)
12. [الفصل السادس](#)
13. [الفصل السابع](#)
14. [الفصل الثامن](#)
15. [الفصل التاسع](#)
16. [الفصل العاشر](#)
17. [الفصل الحادي عشر](#)
18. [الفصل الثاني عشر](#)
19. [الفصل الثالث عشر](#)
20. [السيرة الذاتية للمترجم](#)